بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

السّماع اللغوي

إعداد
علي أحمد العبدي الفريح

إشراف
الدكتور سلمان محمد سلمان القضاة

قدم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة
الماجستير في
اللغة العربية في جامعة اليرموك تخصص لغة ونحو

١٤١٧هـ / ١٩٩٧م

السماع اللغوي

إعـــداد

علي أحمد العبدي الفريح

بكالوريوس في اللغة العربية، جامعة اليرموك ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م

دبلوم في التربية تخصص تدريس اللغة العربية ١٤٠٨هـ-

١٩٨٨م

قـــدم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير

في

اللغة العربية من جامعة اليرموك تخصص لغة ونحو

لجنة المناقشة:

الدكتور سلمان محمد سلمان القضاة ..... رئيساً ومشرفاً

الأستاذ الدكتور حنا جميل حداد ..... عـــضـــواً

الدكتور فارس فندي رفاعي البطاينه ..... عـــضـــواً

الإهـــداء .....

- إلى والدتي رمز الصبر والتضحية
- إلى زوجتي رمز التحمل والعناء
- إلى أبنائي أمل غدي: علاء وإسراء ومحمد وآلاء وهشام وسلاف وخير الله
- إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي المتواضع.

شكر وتقـــديـــر

أجدُ لزاماً عليَّ وقد انتهيت من كتابة هذه الرِّسالة أن أتقدَم بجزيل الشكر وعظيم التقدير إلى أستاذي الفاضل **الدكتور سلمان محمد سلمان القضاة**، الذي أفتخر بأنني تتلمذت على يديه في هذه الجامعة؛ لأنه بعث فيَّ العزيمة والقوة، والأمل بغدٍ مشرقٍ. فاللّهَ أسأل أن يجزيه عنّي خير الجزاء ويبقيه سنداً للعلم، وطلابه.

كما أتقدَّمُ بجزيل الشكر إلى **الأستاذ الدكتور حنّا جميل حداد**، أستاذي في مرحلة البكالوريوس، والماجستير، والذي كان مثالاً للأب الحنون الذي يُقدّم خير ما عنده لأبنائه، كما أتقدَّم بجزيل الشكر **للدكتور فارس البطاينه** لتفضله بقبول مناقشتي وعناء قراءة هذه الرسالة.

كما أتقدم بالشكر إلى زملائي طلاب الدراسات العليا، وأخص بالذكر الزميلين **نصرالله الشاعر وعمر خزاعله**، لما بذلاه من جهد وتعاون للوصول إلى الكلمة الصادقة الدقيقة. ولن أنسى الزملاء **عبدالمعطي الصبّاغ وحسن الفلاح ومحمد عيد قويدر**، والعاملين في مكتبة جامعة اليرموك، والجامعة الأردنية لما قدّموه من عون ومساعدة وتشجيع.

كما أقدم شكري لأسرة مؤسسة **بيت الحكمة**، ممثلة بإدارة الأخ الاستاذ **غالب حسن فريحات** الذي كان مثالاً يحتذى في صدق التعامل، وحبّ الإخلاص للعمل في البحث بأشكاله وخطواته كلها.

والله أسأل أن يجزيهم عنّي خير الجزاء، وأن يكلّل مسعاهم بالتوفيق والنجاح إنّه سميع مجيب.

الباحث

علي أحمد العبدلي

المحتـــوى

الموضـــوع	الصفـحة
الإهداء	د
شكر وتقدير	هـ
المحتوى	و
الرموز المستخدمة في الهوامش	ح
المقدمة	ي
الفصل الأول: مفهوم السّماع ونشأته	١
أولاً:- المفهوم.	٢
ثانياً:- النشأة.	٥
١- دواعي النشأة.	٥
٢- أثر فشو اللحن في النشأة	٨
٣- دور الرواة في النشأة.	١١
أ- الفراء، أبو زكريا يحي بن زياد (ت ٢٠٧هـ-٨٢٢م)	١١
ب- أبو عبيدة، مَعْمَر بن المثنّى (ت ٢١١هـ-٨٢٥م)	٢١
جـ- أبو زيد، سعيد بن أوس الأنصاري (ت ٢١٥هـ-٨٣٠م)	٢٨
د- الأصمعي، عبدالملك بن قريب (ت ٢١٦هـ-٨٣١م)	٣٤
الفصل الثاني: وثيقة أبي نصر الفارابي في السماع اللغوي.	٤١
أولاً:- تحقيق شخصية أبي نصر صاحب كتاب الألفاظ والحروف مصدر الوثيقة.	٤٢
١- تحقيق شخصية أبي نصر.	٤٢
٢- حقيقة كتاب "الألفاظ والحروف".	٤٥
ثانياً:- مضمون الوثيقة.	٥٠
١- نص الوثيقة.	٥٠
٢- فصاحة قريش.	٥١
٣- القبائل التي سمعت منها اللغة.	٥٤
٤- القبائل التي لم تسمع منها اللغة.	٦٦
ثالثاً:- أثر الوثيقة في علماء العربيّة.	٧٢
الفصل الثالث: مصادر سماع اللغة.	٧٩
أولاً:- القرآن الكريم.	٨٠

ثانياً:- الحديث النبوي الشريف. ٩١
ثالثاً:- كلام العرب شعرهم ونثرهم. ٩٨
الفصل الرابع: طرائق السماع وضوابط السامع والمسموع وعلاقتهما بعلم الحديث ١٠٧
أولاً:- طرائق السماع. ١٠٨
ثانياً:- ضوابط السامع. ١١٢
ثالثاً:- ضوابط المسموع. ١٢١
رابعاً:- علاقة الطرائق والضوابط بعلم الحديث. ١٢٧
الفصل الخامس: موقف القدماء والمعاصرين من السماع وأثره في تقعيد اللغة. ١٣٩
أولاً:- موقف القدماء. ١٤٠
١- أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ-٧٧١م) ١٤١
٢- الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ-٧٩٢م) ١٤٤
٣- سيبويه عمرو بن عثمان (ت ١٨٠هـ-٧٩٧م) ١٥٠
ثانياً:- موقف المعاصرين ١٥٧
١- فردينان دي سوسير (ت ١٣٣١هـ-١٩١٣م) ١٥٨
٢- إبراهيم مصطفى (ت ١٣٨٢هـ-١٩٦٢م) ١٦٤
٣- عبدالله العلايلي (ت ١٤١٧هـ-١٩٩٦م) ١٦٨
ثالثاً:- أثر السماع في تقعيد اللغة. ١٧٣
- الخاتمة. ١٨٠
- الملخص باللغة العربية. ١٨٢
- الملخص باللغة الإنجليزية. ١٨٣
- المصادر والمراجع والدوريات. ١٨٥
أ- المصادر العربية المطبوعة. ١٨٦
ب- المراجع العربية المطبوعة. ١٩٤
ج- المراجع الأجنبية المطبوعة. ١٩٩
د- الدوريات العربية المطبوعة. ٢٠٠
- الفهارس الفنية. ٢٠١
أ- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة. ٢٠١
ب- فهرس الأعلام. ٢٠٢
ج- فهرس الأمكنة. ٢١٠
د- فهرس الشواهد الشعرية. ٢١٣

هـ- فهرس الشواهد القرآنية الكريمة. ٢١٥
و- فهرس القبائل. ٢١٨
ز- فهرس الكتب. ٢٢٠

ولتحقيق ذلك، وللإجابة عن كُلّ الأسئلة التي ثارت في ذهن الباحث فقد جاءت الدراسة في خمسة فصول وخاتمة؛ حيث تناول في الفصل الأول مفهوم السّماع ونشأته، وتحدّث عن مفهوم السّماع فبيّن أنّ (السّماع) إنّما هو الأخذ المباشر من أفواه العرب مباشرة دون وساطة، وبيّن أنّ السّماع لم ينشأ من فراغ، فقد كان هناك دوافع هامّة وراء نشأته، وهو في رأيي نظرية الوقف في اللغة، تلك النظرية التي أثّرت وما زالت تؤثر في كثير من البحوث والدراسات حتى وقتنا الحاضر. ثم بيّن الباحث دور الرواة في نشوء السّماع؛ حيث خلُص إلى أنّ السّماع قد قام على أكتاف اللغويين، وبفضل جهودهم أُرسيت دعائمه.

أمّا الفصل الثاني فتناول وثيقة أبي نصر الفارابي في سماع اللغة؛ حيث بيّن حقيقة شخصية أبي نصر الفارابي، وحقيقة كتاب (الألفاظ والحروف) مصدر الوثيقة، كما تحدّث عن فصاحة قريش الواردة في الوثيقة، والقبائل الست التي سمعت منها اللغة، والقبائل التي لم تسمع منها، وختم هذا الفصل ببيان أثر الوثيقة في علماء العربيّة.

وعالج الباحث في الفصل الثالث مصادر السماع وهي القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وكلام العرب شعرهم ونثرهم. وبيّن أنّ العلماء قد أجمعوا على الاحتجاج بالمصدر الأوّل القرآن الكريم، بينما وقف غير واحدٍ من علماء اللغة موقف المعارض للاحتجاج بالقراءات القرآنية والحديث النبوي الشريف. بينما أكثر العلماء من سماع أشعار العرب ونثرهم؛ حيث قاموا باستقرائه وتقعيد اللغة على أساسه.

أمّا الفصل الرابع فقد وُسِم بـ "طرائق السّماع، وضوابط السامع والمسموع وعلاقتها بعلم الحديث". فبيّن الباحث الطرائق التي وُضعت لتحمّل اللغة وأدائها، وأشار إلى الضوابط التي قيّدت سامع اللغة وناقلها، والضوابط التي ميّزت المسموع الذي يمكن أن نطمئن إليه من المسموع الذي دخله كثير من التحريف. وختم هذا الفصل ببيان العلاقة الوطيدة بين علماء اللغة وعلماء الحديث، حيث خلُص إلى أنّ علماء الحديث قد أثّروا في علماء اللغة الذين قاموا بدورهم بأخذ ما يرونه مناسباً من الضوابط التي وضعها علماءُ الحديث وطبقوها في دراساتهم.

أمّا الفصل الخامس والأخير فقد خُصّص لبيان موقف القدماء والمُحدثين من السّماع وأثر السّماع في تقعيد اللغة. حيث بيّن موقف أبي عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد الفراهيدي

وسيبويه من السَماع وخلص إلى أنّ هؤلاء الثلاثة قد لجأوا إلى السماع واتكأوا عليه في معالجة كثير من المسائل التي وقفوا عندها.

ومن الطرف الآخر بيّن موقف ثلاثة من المعاصرين من السماع وهم: فردنيان دي سوسير وإبراهيم مصطفى وعبد الله العلايلي؛ حيث بيّن أنّ هؤلاء قد ثاروا على السّماع، ونسبوا صعوبة قواعد اللغة إلى السّماع وختم هذا الفصل ببيان أثر السّماع في تقعيد اللغة. وجاءت الخاتمة لتمثل أهم النتائج التي توصل إليها الباحث من خلال دراسته.

وقد عملت خلال مدة عملي في هذه الدراسة والقراءة حول ما أوردته فيها جهداً لا يُقدّره حقّ قدره إلاّ من شغل نفسه بالتراث، وخبر صعوبة التعامل معه، فإن كنت قد وُفّقت فيما اجتهدت فيه فذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده، وإن لم أُوفق فحسبي أنّي حاولت. وما أنا إلاّ طالب علم، أصيب وأخطئ.

والحمد لله رب العالمين.

علي أحمد العبدي

كفرنجة، ١٩٩٦/١٢/٣١م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

مفهوم السّماع ونشأته.

أولاً:- *المفهوم.*

ثانياً:- *النشأة.*

١- دواعي النشأة.

٢- أثر فشو اللحن في النشأة

٣- دور الرواة في النشأة.

أ- الفراء، أبو زكريا يحي بن زياد (ت ٢٠٧هـ- ٨٢٢م)

ب- أبوعبيدة، مُعمَّر بن المثنَّى (ت ٢١١هـ- ٨٢٥م)

جـ- أبو زيد، سعيد بن أوس الأنصاري (ت ٢١٥هـ- ٨٣٠م)

د- الأصمعي، عبدالملك بن قريب (ت ٢١٦هـ-٨٣١م)

أولاً:- المفهوم.

يُعدُّ السماع اللغوي واحداً من أهم الأصول التي قام عليها النحو العربي، والسَماع لغةً هو ما لم تذكر له قاعدة كلية مشتملة على جزئياته[1] وقد اعتقد كثيرٌ من الباحثين أنَّ السَماع هو نفسه الرواية، ولكن الواقع غير هذا؛ حيث إنّ السَماع يعني أن يسمع الراوي بنفسه ما يرويه عن غيره، فإن كان هناك ما يفصل بين الراوي السامع والمرويّ عنه، كأن يكون هناك راوٍآخر أو كتابٌ مُؤلَّف فيُعدُّ ذلك رواية لاسماعاً.. فالسماع هو الأخذ المباشر للمادة اللغوية عن الناطقين بها.[2]

وقد عرّف ابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ) السَماع فقال: "النقل هو الكلام العربي الفصيح المنقول بالنقل الصحيح الخارج عن حدّ القلّة إلى حدّ الكثرة.[3] كما عرّفه السيوطي (ت ٩١١هـ) فقال: "..وأعني به ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته، فشمل كلام الله تعالى، وهو القرآن الكريم، وكلام نبيه ﷺ وكلام العرب قبل بعثته، وفي زمنه، وبعده، إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولّدين نظماً ونثراً عن مسلم أو كافر"[4]

ومع أنّ هذا التعريف لم يجمع عليه علماءُ اللغة، بسبب رفض بعضهم الاحتجاج بالحديث النبوي بحجة أنّه يروى أحياناً بالمعنى دون اللفظ.[5] إلاّ أن السَماع بهذه الحدود التي رسمها السيوطي يصلح فارقاً بين الأصل العلمي في الدراسة اللغوية ، إذ إنّ الرواية أقدم منه تاريخياً، بينما السَماع بهذه الحدود هو ما مارسه علماءُ العربية، ولم يتحقق وجوده إلاّ بعد أن فكر اللغويون والنحاة في وضع قواعد للغة.

وفي ظنّي أنّ المصطلحين الواردين عند الأنباري والسيوطي: (النقل) و (السماع) مترادفان، ولعل الأنباري أراد من تعريفه السابق لفت الانتباه إلى أنّ قواعد السَّماع تؤخذ من

---

(١) مصطفى، إبراهيم وحامد عبدالقادر وأحمد حسن ومحمد النجار: المعجم الوسيط، دار الدعوة، استانبول- تركيه، د.ت، ج١ ص٤٤٩ .

(٢) أبو المكارم، علي: أصول التفكير النحوي، منشورات الجامعة الليبية، بيروت ١٩٧٣م ص ٢١ ، وسيشار اليه فيما بعد بـ(أبو المكارم: أصول التفكير النحوي) .

(٣) الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن كمال الدين بن محمد(ت٥٧٧هـ-١١٨١م): لمع الأدلة في أصول النحو، تح سعيد الأفغاني، دار الفكر، دمشق، ط٢ (١٣٩١هـ-١٩٧١م) ص ٨١ وسيشار إليه فيما بعد بـ(الأنباري: لمع الأدلة).

(٤) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ-١٥٠٥م)، الاقتراح في علم أصول النحو، تقديم وضبط د. أحمد سليم الحمصي وزميله ط١، ١٩٨٨ ص ٣٦، وسيشار إليه فيما بعد بـ(السيوطي: الاقتراح)

(٥) البغدادي؛ عبدالقادر بن عمر (ت١٠٩٣هـ-١٦٨٢م): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح وشرح عبدالسلام هارون، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٩ ج١ ص٩، ١٠، ١١ ، وسيشار اليه فيما بعد بـ(البغدادي: خزانة الأدب) .

مصدرين مُهمَّين. **الأول:** مصادر منقوله، لجئ فيها إلى النقل مباشرة وتشمل القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وما نقل من كلام العرب شعرهم ونثرهم، حيث إنّ هذه المصادر التي أخذت منها قواعد اللغة متعلقة بالنقل دون تدخُّل للعقل فيه.

الثاني: مصادر معقوله، وهي المصادر التي تكون بإعمال العقل كالقياس، والعلّة، واستصحاب الحال.

وقد علّل الأنباري هذا الرأي في موطن آخر، فنراه يقول- وهو يوازن بين أُصول النحو، وأصول الفقه-: "لأنّ النحو معقول من منقول، كما أنّ الفقه معقولٌ من منقول، ويعلم حقيقة هذا أرباب المعرفة بهما."[1]

وقد اهتم علماءُ الأصول بالسَماع اهتماماً كبيرا، وها هم يضعون أحاديث رسول الله أمام أعينهم عندما يطلبون علم الحديث والسُنَن، ويؤكدون على وجوب إتقان ذلك وضبطه، وحفظه، ووعيه. وأتقانه لايتم إلا بسماعه مباشرة من أفواه أصحابه.. قال رسول الله ﷺ :**تسمعون ويُسمع منكم، ويُسمع ممن يَسمَع منكم.**"[2] وقال عليه السلام: "**حدّثوا عني كما سمعتم، ولا حرج، الا من افترى عليَ كاذباً متعمداً بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**"[3] وقال رسول الله ﷺ : "**نضَّر الله امرءاً سمع منّا حديثاً فحفظه حتى يُبلِّغه عنا كما سمعه؛ فربَّ حامِل فقهٍ غير فقيه!**"[4] .

فمفهوم "السماع" عند علماءِ أصول الحديث لا يختلف عن المفهوم الوارد عند علماءِ اللغة. بل هو نفسه "المشافهة والسماع المباشر على طريقة الرعيل الأوّل من الرواة".[5]

ونظراً لأهميَّة السماع فقد وضعه الأنباري في مقدمة (لمع الأدلة في أصول النحو) حيث قال: "أدلة النحو ثلاثة: نقل، وقياس، واستصحاب حال." [6] وكذلك فعل ابن جني في خصائصه: "أدلة النحو ثلاثة: السماع، والإجماع، والقياس."[7] . أما السيوطي فقد وضعه فيّ المرتبة الأولى

---

[1] الأنباري: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح د. عطية عمر، ستكهولم ١٩٦٣م، ص ٥٥ وسيشار اليه فيما بعد بـ(الأنباري: نزهة الألباء) .

[2] ابن الأشعث؛ السجستاني الأزدي، أبي داود سليمان (ت ٢٧٥هـ-٨٨٨م): سنن أبي داود، تح محمد محي الدين عبدالحميد، نشر دار إحياء السنة النبوية ج٣ ص ٣٢٢ .

[3] المصدر السابق ج٣ ص ٣٢٠ .

[4] المصدر السابق ج٣ ص ٣٢٢ .

[5] الصالح؛ صبحي: علوم الحديث ومصطلحه، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان ط١٧ أيار ١٩٨٨ ص ٨٨، وسيشار إليه فيما بعد بـ(الصالح: علوم الحديث).

[6] الأنباري: لمع الأدلة ص٨١ .

[7] السيوطي: الاقتراح ص٢١ .

كمن سبقه، ولكنه قام بجمع الأدلة. فقال في "الاقتراح": "أدلة النحو الغالبة أربعة[1] السّماع، والإجماع، والقياس، واستصحاب الحال.

وكيفما تحدث علماءُ اللغة يبقى السماع، أو النقل عن العرب هو الأساس أو الأصل الأوّل من أصول النحو. فقد ذكر الله -في محكم كتابه- السمع في صدر الحواس. فقال تعالى: "إنّ السمع والبصر والفؤاد، كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً."[2] وأنّ ما عداه (أي السماع) من الأدلة مُتفرّعٌ عنه، ويقوى بمدى قوة ارتباطه به.. وأنّ منطق اللغة وطبيعتها، واعتمادها على الحس والذوق يؤيد ذلك، ويجعل القياس المقبول ما كان قريباً من الفطرة، بعيداً عن تعقيد المناطقة ومتاهات الفلسفة. أي أنّ الأدلة الأخرى من "قياس" و"إجماع"، و"استصحاب الحال" لا تكون صحيحة إلاّ باستنادها إلى دليل مسموع[3] فعلى سبيل المثال "القياس" هو حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه. أي أنّ القياس متكئ على السّماع؛ لذا عُدّ السماع الأصل الأول، وما عداه مُتفرّع عنه.

---

[1] السيوطي: الاقتراح، ص٢١ .

[2] سورة الإسراء، آية ٣٦ .

[3] السيوطي: الاقتراح، طبعة دار المعارف بحلب سوريا /٤ .

ثانياً:- نشأة السماع

١ - دواعي السماع

عندما عقد علماءُ العربية الرأي على سماع اللغة من أفواه أصحابها الخُلَّص،أُولئك العرب الذين يسكنون البادية، كان لهذا الرأي أسبابه ودواعيه، هذه الأسباب هي التي جعلت علماء العربية يقومون برحلاتهم الطويلة، متحمّلين في سبيل ذلك مشاق السَّفر، والابتعاد عن الأهل والوطن، ولعل أوّل هذه الأسباب:

أ) حاجة العرب المسلمين إلى اللغة العربية خالصة بعيدة عن الشوائب.[١] ولتحقيق ذلك لا بُدَّ للعلماء من تجاوز المربد، والبصرة، والاتجاه إلى البادية العميقة التي لا يحتمل أن يدركها شوب او زيف، لبعدها عن الأطراف، وأمثال هؤلاء العرب سكنى الخيام، الذين لا يُطوِّع لسانهم على غير ما فطروا عليه، ولا يغريهم على الزيف من يطلب حكومتهم.

قال ياقوت الحموي حين عرَّف بالعكوتين: "...وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم، لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة في مناكحتهم، وهم أهل قرار، لا يضعنون عنه، ولا يخرجون منه، وأنّهم لا يسمحون للغريب أن يقيم عندهم أكثر من ثلاث ليالٍ خوفاً على لسانهم."[٢]

وإلى هذا أشار الدكتور عبدالله حمد الخثران؛ حيث قال حول دواعي نشأة السماع: "...خشية اللغويين والنحويين من أن تبتعد اللغة العربية عن خصائصها المعروفة عند نزول القرآن الكريم، مما يؤدي إلى ظهور لغة ثانية ذات خصائص مغايرة للغة الأولى.[٣]

ب) يُعَدُّ السماع هو الطريق الطبيعي لمعرفة كُنْه اللغة، وتبيين خصائصها. فاللغات نقلية، وأساس معرفتها، ومعرفة خصائصها هو السماع، ومحاكاة ما يصل إليه الإنسان عن طريق السماع من العرب الذين سلمت لغتهم، أو عن طريق ما يروى من الآثار الأدبية من شعر ونثر، وما جاء في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة.

---

[١] الشلقاني؛ عبدالحميد:الأعراب الرواة، دار المعارف، مصر ١٩٧٧م ص ١٥٥ ، وسيشار اليه فيما بعد بـ(الشلقاني: الأعراب الرواة).

[٢] ياقوت الحموي؛ شهاب الدين ياقوت أبو عبدالله الحموي الرومي (ت ٦٢٦هـ-١٢٢٩م): معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت ط ١٩٨٤م، ج٤ ص١٤٢، والعكوتان اسم جبلين مشرفين على زبيد باليمن، وأهلها باقون على اللغة الجاهلية إلى اليوم. (المصدر السابق ج٤ ص١٤٣)، وسيشار اليه فيما بعد بـ(ياقوت: معجم البلدان).

[٣] الخثران، عبدالله حمد: مراحل تطور الدرس النحوي، دار المعرفة الجامعية ط١٩٩٣م، ص ١٦٣ ، وسيشار اليه فيما بعد بـ(الخثران: مراحل تطور الدرس النحوي).

ولما خرج العرب من جزيرتهم، وانتشروا في أقطار مختلفة، واتسعت ميادين الحياة أمامهم، وانتقلوا من الصحراء والخيام إلى المدن والرياض، واختلط بهم غيرهم من الأعاجم، دبّ الانحراف إلى اللغة، وتطرق اللحن إلى الألسنة. فأصبح من الضروري الالتجاء إلى منبع أصفى لتُعرَف اللغة السليمة.

ولهذا لجأ العلماءُ إلى البوادي يستمعون من العرب الخُلّص، ويُقَيّدُون ما يظفرون به من شواهد يعتمدون عليها في ضبط اللغة، وتدوين قواعدها. أي أنّ الداعي لنشأة السّماع هو جمع الحقائق اللغوية والنحوية حتى تكون حجة دامغة على فصاحة اللغة.[1]

ج) أما السبب الثالث فهو مرتبط بالسبب الثاني؛ حيث إنّ اتساع الدولة العربية، وترامي أطرافها، وازدياد اختلاط العرب بغيرهم من العناصر غير العربية أدّى إلى التفكير في وضع قواعد تصون اللسان .. وكان ما وضعوه من ذلك في أوّل الأمر من تلك القواعد قليلاً، ولم يكن كافياً لصون القرآن الكريم من أن تزلّ في ضبطه الألسنة .. عندها اتجه العلماء إلى تنمية النحو وإكمال أبوابه وتفصيل مسائله[2] ، وهذا هو الذي أدّى بالعلماء الغيورين على اللغة إلى بذل جهدهم في البحث والتحقيق والتمحيص حتى نشأ السّماع، وأخذت اللغة من منابعها الأصلية.

---

[1] حسن، عبدالحميد: القواعد النحوية، مادتها وطريقتها، مطبعة العلوم، مكتبة الأنجلو المصرية ط٢/ ١٩٥٢م، ص ١٩١ وسيشار اليه فيما بعد بـ(حسن: القواعد النحوية).

[2] المرجع السابق ص ٧٢، ٧٣ .

هـ) ومن بين الأسباب التي أدت إلى نشوء السماع الخوف من دخول سيل عارم من الألفاظ الأعجمية إلى اللغة العربية؛ مما يبعدها عن خصائصها، وعروبتها.[١]

و) ولعل السبب الذي يرسخ في الذهن هو ما ذهب إليه المستشرق (بروكلمان)[٢] ، والذي يتلخص في أنّ الخلافات اللغوية بين لهجات القبائل العربية بعضها مع بعض من جانب، وبينها وبين لغة القرآن، والشعر من جانب آخر، وكذلك حاجة العناصر غير العربية التي دخلت في الإسلام، إلى تعلُّم لغة الكتاب، ولسان الحكومة الاسلامية من جانب ثالث .. كل ذلك بعث المسلمين -بادئ ذي بدء- إلى الملاحظات والأنظار اللغوية ..

وكيفما قيل حول دواعي نشأة السّماع فإنّني أعتقد أنّ اللغويين عندما قاموا بجمع اللغة من أفواه أصحابها كان هدفهم الأوّل والأخير هو وضع ضوابط وأحكام للغة العربية، وقد دفعهم إلى هذا عدد من العوامل منها:

١- الدافع الديني، فمن المعروف أنّ الجيل الأوّل من القراء كان قد مات، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وكان من بين الداخلين أمم من غير العرب، مما أدى إلى ظهور اللحن، وقد يتغاضى الناس عن هفوات لغوية عند قراءة الأدب بنوعيه الشعر والنثر، ولكنهم لا يغفرون زلّة من يخطئ في قراءة كلام الله. فللكتاب المقدس حرمته، وعندما نقول إنّ العربية مدينة للقرآن الكريم بحفظها وببقائها، فإنّ قولنا هذا صحيح بشهادة التاريخ.[٣]

٢- الدافع القومي: فبين ليلة وضحاها وجد العرب أنفسهم وارثين لحضارة الروم والفرس، ولهذه الأقوام التي ورثوها سياسياً وحضارياً كتبهم المقدسة، ولهذه الكتب المقدسة أحكام وقواعد لغوية، فلماذا لا يكون للغتهم التي يقدسونها أحكام وقواعد؟[٤] مما دفعهم إلى القيام برحلات متنوعة جمعوا اللغة من خلالها.

---

[١] أنظر الخثران: مراحل تطور الدرس النحوي، ص ١٦٣ .

[٢] بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية د.عبدالحليم النجار، دار المعارف، ط٥، ج٢ ص١٢٨، وسيشار اليه فيما بعد بـ(بروكلمان: تاريخ الأدب العربي).

[٣] فريحه؛ أنيس: نظريات في اللغة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط١/١٩٧٣م، ص٧٦ وسيشار اليه فيما بعد بـ(فريحه: نظريات في اللغة).

[٤] المرجع السابق ص ٧٧ .

٣- حرص الأعاجم والموالي على تعلُّم اللغة العربية ليقرأوا كلام الله، وإلى جانب حرص الأعاجم على تعلم العربية نذكر نشوء المدارس. فقد فرض الإسلام على كل مسلم القراءة والكتابة، فكيف يتسنَّى للأعجمي، أو للولد الصغير في الكُتّاب، أن يتقن لغة لا أحكام لها أو ضوابط؟[١] .

٢ - أثر فشو اللحن في النشأة.

كان العرب قبل الإسلام يتكلمون العربية على سجيتهم، بفطرة أصيلة، وملكة صافية، لُقّنوها عن آبائهم نقيّة سليمة، دون أن يؤثر فيهم مؤثر خارجي، كانوا ينطقون لغتهم بالسليقة التي جُبلوا عليها من غير حاجة إلى قواعد توجههم.

ولما سطع الإسلام، ودخل الناس في دين اللّه أفواجاً، ومنهم أولئك الذين لا يتكلمون العربية كالروم والفرس وغيرهم..وكان من الطبيعي هبوط العرب ومعهم عشائرهم إلى تلك الأمصار المفتوحة، وقدوم أهل تلك الأمصار إلى جزيرة العرب، حيث المدينة المنورة، وقبر رسول اللهﷺ، وصحابته، ومقرّ الحكام، ومكة المكرمة بما فيها من الأماكن الإسلامية كالكعبة المشرفه. وكان نتيجة هذا الاختلاط أن أخذ الأعاجم يقبلون على تعلُّم العربية، ويحاكونها دون مراس بأساليبها أو معرفة بنظمها، فأخذ الفساد يتسرّب إلى اللغة، وبدأ اللحن يظهر بين الناس، ويمتد تأثيره إلى العرب أنفسهم.[٢]

كان اللحن يسيراً في صدر الاسلام، ولكنه أخذ يتزايد مع مرور الزمن، واختلاط العرب بالأعاجم، يقول أبوبكر الزبيدي: "ولم تزل العرب في جاهليتها وصدرٍ من إسلامها تبرعُ في نطقها بالسَّجية، وتتكلم على السليقة حتى فتحت المدائن، ومُصِّرَت الأمصار ودُوِّنت الدواوين. فاختلط العربي بالنبطي، والتقى الحجازي بالفارسي، ودخل الدين أخلاط من الأمم،فوقع الخلل في الكلام، وبدأ اللحن في ألسنة العوام."[٣]

ويقول ابن خلدون في مقدمته: "فلما جاء الإسلام، وفارقوا الحجاز لطلب المُلك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم، تغيّرت تلك الملكة بما ألقي إليها السَّمع من المخالفات التي

---

[١] المرجع السابق ص ٧٦ .

[٢] أنظر الطنطاوي؛ محمد: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، تعليق عبدالعظيم الشناوي ومحمد عبدالرحمن الكردي، الطبعة الثانية ص ٧، ٨، وسيشار اليه فيما بعد بـ(الطنطاوي: نشأة النحو).

[٣] الزبيدي؛ أبو بكر محمد بن الحسن(٣٧٩هـ-٩٨٩م): لحن العوام، تحقيق د.عبدالعزيز مطر، الكويت ١٩٦٨ ، ص ٤٠، ٤١، وسيشار اليه فيما بعد بـ(الزبيدي: لحن العوام).

للمستعربين، والسمع أبو الملكات اللسانية. ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع..."[1]

وقد بدأ ظهور اللحن-والمقصود به الخطأ في الإعراب- أول ما ظهر في كلام الموالي والمتعربين منذ عهد الرسولﷺ ، فقد روي أن رجلاً أعجمياً لحن بحضرة رسول الله، فقالﷺ لمن كان حاضراً من المسلمين: "**أرشدوا أخاكم فقد ضلّ**"[2]

"كما روي عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه مر على قوم لا يُحسنون الرمي؛ فقرّعهم. فقالوا: "إنّا قومٌ متعلمين" فانصرف-رضي الله عنه- غاضباً وهو يقول: "**والله لخطؤكم في لسانكم أشدُّ علىّ من خطئكم في رميكم.**"[3] .

على أنّ الذي أفزع العرب هو تَسَرُّب اللحن إلى قراءة الناس في القرآن، وذلك بعد أن قرأ أحدهم قوله تعالى: "**إنّ الله برئ من المشركين ورسولُهُ**"[4] بالكسر. مما دفع ابن الخطاب إلى الأمر بأن لا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة خبير بها.[5]

وفي أيام الأمويين زاد اللحن باتساع الدولة، وكثرة اتصال العرب بالأعاجم، حتى صاروا يعُدُّون من لا يلحن، فقيل: "أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل: الشعبي وعبدالملك بن مروان، والحجاج بن يوسف، وابن القرّيّة، والحجاج أفصحهم."[6] .

وكان الحجاج يتحرز من اللحن، وينفر منه، ويحرص على تجنبه، ويخشى الوقوع منه. يروى أنّه سأل يحي بن يعمر الليثي: "أتسمعني ألحن على المنبر؟ قال: الأمير أفصح من ذلك. فألحّ عليه فقال: حرفاً. قال: أيّاً؟ قال: في القرآن. قال الحجاج: ذلك أشنع، فما هو؟ قال: تقول: **(قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم**... إلى قوله "أحبٌ"، وأنت تقرؤها "أحبِّ"، والوجه أن تقرأ بالنصب على خبر كان. قال: لا جرم، لا تسمع لي لحناً أبداً، فألحقه بخراسان..."[7] .

---

[1] ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد(ت ٨٠٨هـ-١٤٠٥م): المقدمة، دار الكتاب العربي، بيروت ص ٥٤٦، وسيشار اليه فيما بعد بـ(ابن خلدون: المقدمة).

[2] ابن جني؛ أبو الفتح عثمان(ت ٣٩٢هـ-١٠٠١م): الخصائص، تح محمد على النجار، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ١٩٥٢/ ج٢ ص٨ ، وسيشار اليه فيما بعد بـ(ابن جني: الخصائص).

[3] الزجاجي؛ ابو القاسم عبدالرحمن بن اسحق(ت ٣٣٧هـ-٩٤٩م): الإيضاح في علل النحو، تحقيق د.مازن المبارك، دار النفائس ط٤/١٤٠٢هـ-١٩٨٢م ص ٩٦، وانظر أيضاً ياقوت: معجم البلدان ٦٧/١ وسيشار اليه فيما بعد بـ(الزجاجي: الإيضاح).

[4] سورة التوبة آية ٣ .

[5] ابن جني: الخصائص ج٢ ص٨ .

[6] الزجاجي:الأمالي،تحقيق عبدالسلام هارون ط١،١٣٨٢هـ،ص ٢٠.والشعبي هوعامر بن شراحيل (ت ١٠٥هـ)

[7] الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٢/١٩٧٣م ص ٢٨، وسيشار اليه فيما بعد بـ(الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين).

وكذلك قصّة الكتاب المشهور الذي بعث به من العراق أبوموسى الأشعري ألى عمر بن الخطاب، وجاء فيه: "من أبوموسى الأشعري..." وما ردّ عليه عمر من قوله: "**اضرب كاتبك سوطا وأخّر عطاءَه سنة.**"[1]

ومنذ بداية القرن الثاني الهجري اتهم ... الخلفاء باللحن، فهذا يحي بن نوفل الحميري يُحقّر خالد بن عبدالله القسري والي العراق(ت١٢٦هـ-٧٤٤م) بقوله:

وألحنُ الناسِ كلّ الناسِ قاطبةً وكان يُولَعُ بالتشديقِ والخُطَبِ[2]

نخلص من الحديث السابق عن اللحن أن لحناً قد وقع في كلام الناس، ولكن -في ظنّي- لم يكن بهذه الكثرة التي تدعو إلى الشك. فالقصص والروايات التي نسمعها ونقرؤها بين صفحات الكتب مبالغ فيها، ولم توضع أبداً إلاّ لأغراض تعليمية، وإلاّ فكيف نُصدّق ان خليفة مثل عمر بن الخطاب يتصف بالعدل والتقوى والخوف من الله يطلب من واليه أبي موسى أن يضرب كاتبه سوطاً، ويمنع عطاءه سنة كاملة...

فاللحن دون أدنى شك قد وقع في كلام العرب وفي قراءة من قرأ القرآن الكريم من غير العرب، وهذا شيء طبيعي أن يخطئ القارئ لسبب أو لآخر، ولعله في رأيي هو الذي جعل المخلصين من الغيورين على اللغة العربية في العمل على وضع الضوابط والقوانين حفظاً لها من الفساد والذوبان في لغات الأمم الأخرى، ثم ضياعها ولا بُدّ لمن يروم وضع قواعد وضوابط للغة العربية من استقراء كلام أهلها، ليتمكن من كشف أسرارها، ومعرفة خصائصها وذلك عن طريق سماع هذه اللغة من الناطقين بها والنقل عنهم، لذلك اتخذ العلماء السّماع من العرب الفصحاء وسيلة لاستقرائها وجمع شواهدها."

فاللحن في اعتقادي هو *عامل* رئيسي في جعل علماء اللغة يفكرون في طريقة لحفظ اللغة، وصيانتها من كل خطر يهددها؛ لذلك استقر رأيهم على أن يقوموا برحلات إلى موطن القبائل العربية التي لم تتأثر بالأعاجم من أجل سماع اللغة النقية، حتى يضعوا قواعد للغة تحفظها من المؤثرات الخارجية كاللحن مثلاً.

---

[1] أبو الطيب اللغوي، عبدالواحد بن علي(ت ٣٥١هـ-٩٦٢م): مراتب النحويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي ط٢/١٣٩٤هـ-١٩٧٤م ص ٢٣، وسيشار اليه فيما بعد بـ(أبو الطيب: مراتب النحويين).

[2] الجاحظ، عمرو بن بحر (٢٥٥هـ-٨٦٩م): البيان والتبيين، تح.عبد السلام محمد هارون، دار الجيل-بيروت ١٩٩٠م، ج٢ ص ٢١٦، وخالد بن عبدالله القسري، أمير العراق من قبل هشام بن عبدالملك، قتل أيام الوليد بن يزيد (وفيات الأعيان، ١: ١٦٩-١٧٠)، ويحي بن نوفل شاعر من شعراء الدولة الأموية، ذكره الجاحظ في مواضع كثيرة من الحيوان والبيان، ج١ ص ٣٦٦.

٣- دور الرواة في النشأة.

بدأت رواية اللغة مع بداية القرن الثاني الهجري، وأخذت سمتها على أيدي عددٍ من أفذاذ العلماء، يُعَدُّون عصب الرواية، وهم:- الفرّاء أبو زكريا، يحي بن زياد(ت ٢٠٧هـ)، وأبو عبيدة مُعَمَّر بن المثنى(ت ٢١١هـ)، وأبو زيد، سعيد بن أوس الأنصاري(ت ٢١٥هـ)، والأصمعي، عبد الملك بن قريب(ت ٢١٦هـ).[١] . ولكي نقف على الدور الذي قام به هؤلاء العلماء في نشأة السماع لابُدَّ من تفصيل الحديث حول كل واحد منهم، لنرى مدى صلتهم بنشأة السماع.

أ) **الفراء:** هو أبو زكريا، يحي بن زياد بن عبدالله الفراء(ت ٢٠٧هـ-٨٢٢م)، كان أبرع الكوفيين في علمهم. ولد في مدينة الكوفة سنة ١٤٤هـ في عهد أبي جعفر المنصور، ونشأ بها، وتربى على شيوخها، وكانت الكوفة حافلة بالشيوخ في فروع العلم المعروفة في ذلك العصر، ومن شيوخه الكسائي وسفيان بن عُيَيْنه. ويُقال إنَّه أخذ علمه عن يونس بن حبيب البصري، كما أنَّه كان يلازم كتاب سيبويه.

وقد بلغ الفراء في العلم المكانة السامية والغاية التي ما بَعْدَها، كما كان زعيم الكوفيين بعد موت الكسائي، قال ثعلب: "لولا الفراء لما كانت عربيّة؛ لأنَّه خلَّصها، وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربيّة، لأنَّها كانت تتنازع، ويُدعيها كل من أراد، ويتكلم الناس فيها على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب."[٢] وفي (تاريخ بغداد): "وكان يقال: النحو الفرّاء، والفرّاء أمير المؤمنين في النحو."[٣] وفي *الفهرست* " كان أكثر مقامه ببغداد، كان يجمع طوال دهره، فإذا كان آخر السّنة خرج إلى الكوفة، وأقام بها أربعين يوماً في أهله يُفرّق فيهم ما جمعه ويبُرهم".[٤] هذا وقد اختلف في تاريخ وفاته، فقيل إنها كانت سنة ١٨٧هـ أو ٢٠٤هـ أو ٢٠٩هـ. والذي عليه أغلب المؤرخين أنه توفي سنة ٢٠٧هـ وهي رواية سليمة خالية من كل مغمز.[٥]

---

[١] أنظر الشلقاني: الأصمعي اللغوي، صورة عراقية في القرن الثاني الهجري، دار المعارف القاهرة، ص ٣، وسيشار اليه فيما بعد بـ(الشلقاني: الأصمعي اللغوي).

[٢] الفراء، أبوزكريا يحي بي زياد(ت ٢٠٧هـ-٨٢٢م): معاني القرآن ، تح. أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار ، دار السرور ، بيروت-لبنان، ج١ ص٨، ٩، (المقدمة)، وسيشار اليه فيما بعد بـ(الفراء: معاني القرآن).

[٣] الخطيب البغدادي، ابو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد(ت ٤٦٣هـ-١٠٧٠م): تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٣١م ج١٤ ص١٥٢، وسيشار اليه فيما بعد بـ(الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد).

[٤] أنظر ابن النديم، أبوالفرج، محمد بن اسحاق(ت ٤٣٨هـ-١٠٤٦م): الفهرست، دار المعرفة-بيروت/٩٩، وسيشار اليه فيما بعد بـ(ابن النديم: الفهرست).

[٥] انظر الأنصاري، أحمد مكي: أبوزكريا، الفراء، القاهرة، مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيه، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م ص ١٤٧ وما بعدها.

دور الفراء في سماع اللغة وروايتها:

أكثر أبو زكريا الفراء من الرواية اللغوية، وقد كان مهتماً منها بالجانب النحوي اهتماماً كبيراً، وقد جاءت روايته للغة بصيغ مختلفة ومتعددة، منسوبة إلى قائل معين وغير منسوبة، وغير المنسوبة منها، او غير المذكور اسم قائله هو الغالب الكثير، وهي نقول كثيرة عن أعراب عاصروا الفراء فوثق بهم، وأخذ عنهم وعن شعراء كثيرين سبقوه.

واتفق النحويون على الرواية لهم والاستشهاد بكلامهم، ولبيان ذلك أُقدم مجموعة من الأمثلة فيما يلي:-

١- يروي الفراء بصيغة "أنشدني، أو أنشد بعضهم"[١] كما يروي عن بعض القبائل فيقول: (أنشدني، أو "قال" "بعض بني أسد"[٢] و "بعض بني عقيل"[٣] و "بعض بني حنيفة"[٤] و "بعض بني عامر"[٥] و "بعض بني فقعس"[٦] و "بعض بني عبس"[٧] و "بعض بني كلاب"[٨] و "بعض بني باهلة"[٩] و "بعض بني دبير"[١٠] وهم فصحاء بني أسد"[١١]

كما يروي كثيراً بقوله: "أنشدني، أو أنشدنا بعض العرب"[١٢] وفي أحيان أخرى يضيف اسم منشده مثل "أنشدني بعض العرب وهو المفضل:

مَطَوْتُ بهم حتى تكِلَّ غُزَاتهم وحتى الجيادُ ما يُقَدْنَ بأرسانِ[١٣]

---

(١) أنظر الفراء: معاني القرآن، ج١ ص ٦٢، ٩١، ١٢٨، ١٦١، ١٧٣، ٣١١، ٣٨٨، ٤١٢، ج٢ ص١١، ١٧، ٢٧، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٢١٥، ٣٣٩. ج٣ ص ١٧، ٧٨، ٩٥، ١٢٦، ٢١٠، ٢١١.

(٢) أنظر المصدر السابق ج١ ص١٤، ٦٨، ج٢ ص١٧، ٩٢، ٤٢٢ .

(٣) المصدر السابق ج١ ص٤٠، ٦٧ . ج٢ ص٢٨٣، ٢٩٨، ٣٢١، ٣٨٣. ج٣ ص٢٣٤، ٢٤٣ .

(٤) المصدر السابق ج١ ص١٦١ .

(٥) المصدر السابق ج١ ص١٧٠، ج٢ ص٩٢، ٢٤٠ .

(٦) المصدر السابق ج١ ص١٧١، ج٢ ص١٩٦ .

(٧) المصدر السابق ج١ ص١٧١ .

(٨) المصدر السابق ج١ ص٤٢، ج٢ ص٩، ج٣ ص١٤٧، ٢٢٩ .

(٩) المصدر السابق ج٢ ص٢٢ .

(١٠) المصدر السابق ج٢ ص٣١١، ج٣ ص١٢٤، ٣١١ .

(١١) المصدر السابق ج٢ ص٣١١ .

(١٢) المصدر السابق ج١ ص٤٤، ٥١، ٥٢، ٧٢ ج٢ ص٢١، ١١١، ١٥٨، ٢٧٤، ٢٧٩، ٣١٠، ٤٠٧، ٤١٥، ج٣ ص٩، ٩٠، ٢٠٩ .

(١٣) المصدر السابق ج١ ص١٣٣ . والبيت لامرئ القيس. والمطو: الجد والنجاء في السير، والغزاة جمع غاز، وأراد بقوله: ما يقدن الخ أنّ الجياد بلغ بها الإعياء أشدّه فعجزت عن السير. (اللسان/ مادة مطا).

والبيت شاهد نحوي لنصب المضارع بـ (حتى)[1] ، ومثل قوله: "وانشدني بعض العرب وهو العُقَيلي:"

فقلنا، السلامُ فاتَّقت من أميرها فما كان إلا وَمْؤُها بالحواجب.

وهو شاهد نحوي لحكاية الكلام، إذ التقدير: فقلنا السلام عليكم[2] ، ويفعل ذلك -أيضاً- كما في الفقرة السابقه، مثل أنشدني بعضهم، وهو المفضل[3] وفي الفقرة التي تليها مثل: "وأنشدني بعض بني أسد وهو أبو القمقام.[4] ولم أره يكثر عنه في كتابه المعاني" وما رأيته هو سؤال الفراء اياه عن "سبخاء" بالخاء في قراءة من قرأ[5] بذلك في قوله تعالى: "**إنَّ لك في النهار سبحاً طويلاً**"[6] . قال: "حضر أبو زياد الكلابي مجلس الفراء في هذا اليوم، فسأله الفراء عن هذا الحرف. فقال: (أهل باديتنا يقولون: "اللهم سَبِّخ عنه للمريض والملسوع ونحوه[7] فالتسبيخ التخفيف كما يظهر من عبارة أبي زياد الكلابي وهومن معانيه كما في اللسان[8] وجاء فيه: "ابن الأعرابي من قرأ "سبحاً طويلاً" فمعناه اضطراباً ومعاشاً، ومن قرأ "سبخاً طويلاً" أراد: راحة وتخفيفاً للأبدان والنوم.)

نلحظ مما تقدَّم أنَّ الفراء كان على درجة كبيرة جداً من الاتصال بالأعراب، ومدى صلته بهم، وثقته فيهم، وأخذه عنهم. كما نلحظ أنَّ الفراء كان كثير السماع عن هؤلاء الأعراب سكان البادية، كما كان يعتمد عليهم في أحكامه اللغوية والنحوية. ويُعَدُّ هؤلاء الأعراب والنازلون بالحواضر والقرى والبادية مصادر هامة من مصادر الكوفيين الذين عُرفوا بالأخذ عنهم بدليل ما جاء في مناظرة سيبويه والكسائي عندما حكم فيها الأعرابُ والواقفون بالباب. "فقال الكسائي: هذه العرب قد جمعتهم من كل أوب، ووفدت عليك من كل صقع، وهم فصحاء الناس، وقد قنع بهم أهل المصرين، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم فيحضرون ويسألون فقال يحي وجعفر: قد

---

[1] الفراء: معاني القرآن، ج١ ص١٣٣ .

[2] المصدر السابق ج٣ ص١٢٤ .

[3] المصدر السابق ج١ ص١٦ .

[4] المصدر السابق ج٢ ص٢٨٣ .

[5] هم يحي بن يعمر وعكرمة وابن أبي عبلة. أنظر أبو حيان، أثير الدين محمد بن يوسف(ت ٧٤٥هـ-١٣٤٤م): البحر المحيط، تح. عادل أحمد عبدالموجود، دار الكتب العلمية، بيروت ج٨ ص٣٦٣، وسيشار اليه فيما بعد بـ(أبو حيان: البحر المحيط).

[6] الآية ٧ المزمّل .

[7] الفراء: معاني القرآن ج٣ ص١٩٧ .

[8] أنظر إبن منظور، أبو الفضل جمال الدين، محمد بن مكرم(ت ٧١١هـ-١٣١١م): لسان العرب، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٨، مادة (سبخ). وسيشار اليه فيما بعد بـ(ابن منظور : اللسان).

أنصفت، فأمر بإحضارهم: منهم أبو فقعس[1] وأبو دثار[2] وأبو الجراح، وأبو ثروان، فسئلوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبويه، فتابعوا الكسائي وقالوا بقوله. وقال يحي بن خالد بن برمك: هذا موضع مشكل حتى يُحكم بينكم. فقالوا: هؤلاء الأعراب على الباب فأُدخل أبو الجراح ومن وجد معه ممن كان يأخذ منه الكسائي وأصحابه. فقالوا: فإذا هو إياها[3] .

أما العلماء الذين سمع منهم الفراء مباشرة وروى عنهم فهم:

١- على بن حمزة الكسائي، فقد تكرر اسم الكسائي كثيراً في معاني الفراء، كما سمع منه كثيراً، وروى عنه بصيغ متعددة، والكسائي أحد القراء السبعة، وشيخ الفراء الذي يُجلُّه بالثقة فيه فيقول عنه: "وحدثني الكسائي وكان-والله- ما علمته إلاّ صدوقاً"[4] ولكنه يذكره بلقبه "الكسائي" ولا يصرح بإسمه كاملاً، وهو كما يروى عنه كلام العرب، ينقل عنه أقواله وتوجيهاته النحوية ويناقشه فيها، ويخالفه في آرائه كثيراً، فروايته عنه تتمثل في نقله عنه ما حفظه الكسائي وسمعه عن العرب، فيقول بكثرة: "أنشدني الكسائي"[5] ويشمل ذلك الشعر والنثر مثل: "أنشدني الكسائي":

ليت الشبابَ هو الرجيع على الفتى والشيبَ كان هو البدئُ الأوّلُ.

ومثل: "أنشدني الكسائي في بعض البيوت (لا ما إن رأيت مثلك) فجمع بين ثلاثة أحرف"[6] ، ومثل: "وسمع الكسائي بعضهم يقول: (فأصبحت نظرت إلى ذات التنانير، فإذا رأيت (فعل) بعد كان ففيها (قد) مضمرة إلاّ أن يكون مع (كان) جحد فلا تضمر فيها (قد) مع جحد لأنها توكيد والجحد لا يؤكد".[7]

وكما يحكي ما أنشده الكسائي إيّاه بهذه الصيغة ينقل عنه بصيغ أُخرى، فيقول: "قال الكسائي"[8] والمحكيّ بالقول قد يكون مقولاً سمعه الكسائي من العرب مثل: "قالَ الكسائي: سمعتُ العرب تقول: إنَّ البعير ليهرم حتى يجعل إذا شرب الماءَ مجّه[9].

---

[1] انظر الفراء: معاني القرآن ج٢ ص٤٢٢ .

[2] انظر المصدر السابق أبو دثار الفقعسي .

[3] الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ص٦٩ والإنصاف مسأله ٩٩، وانظر المخزومي، مهدي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، بغداد ١٢٧٤هـ-١٩٥٥م ص١٢٢ وسيشار اليه فيما بعد بـ(المخزومي: مدرسة الكوفة).

[4] الفراء: معاني القرآن ج٣ ص١٠٧ .

[5] المصدر السابق ج٢ ص٣٥٢ .

[6] المصدر السابق ج١ ص٢٦٢ .

[7] المصدر السابق ج١ ص٢٨٢ .

[8] المصدر السابق ج١ ص٢٣، ١٠٣، ١٣٤، ١٦٤، ٢١٢، ج٢ ص١٠٩، ٢٤٣ ج٣ ص١١١، ١١٢ .

[9] المصدر السابق ج١ ص١٣٤ .

ومثل (وقال الكسائي: "**تسقيكم مما في بطونه**"[1])، وقد تكون الصيغة: "كان الكسائي يقول"[2] أو "زعم الكسائي"[3] أو "وحدثني الكسائي".....[4]

وذلك كله يدل بشكل مؤكّد على كثرة نقله وسماعه عن أستاذه الكسائي، ومع ذلك فقد كان الفراء يخالف أستاذه في آرائه. ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

أ- لا يجيز الفراء العطف على اسم إنّ بالرفع قبل استكمال الخبر، إلاّ إذا كان هذا الاسم مبنياً لا يظهر إعرابه، بينما يجيز الكسائي ذلك دون هذا الشرط. فقال الفراء: "ولا أستحبُّ أن أقول: إنّ عبدالله وزيدٌ قائمان لتبيُّن الإعراب في عبدالله، وقد كان الكسائي يجيزه لضعف إنّ. وقد أنشدوا هذا البيت رفعاً ونصباً:

فمن يك أمسى بالمدينة رحلُه فإنّي وقياراً بها لغريبُ[5]

و "قيار" ليس بحجة للكسائي في إجازته "إنّ عمراً وزيد قائمان" لأنّ (قياراً) قد عطف على اسم مكنى عنه، والمكنى لا إعراب فيه فسهل ذلك فيه، كما سهل "الذين" إذا عطفتَ عليه (الصابئون) في قوله تعالى: "**إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى**"[6]

وهذا أقوى في الجواز من : (الصابئون)؛ لأن المكني لا يتبين فيه الرفع في حال و (الذين) قد يقال (اللذون) فيرفع في حال.

ب- يرى الفراء أنّ "مالـ" في مثل "**ومالنا ألا نقاتل**"[7] و "**مالكم لا تؤمنون بالله**"[8] وجه العربية فيه أن يكون بغير أنْ، والفعل في محل نصب، وأمّا إذا كانت فيه أنّ فهو بمعنى "ما منعك" مذهوباً به إلى المعنى ولا يستعمل في غير المستقبل، بينما يرى الكسائي أنه على تقدير (في) فيرد عليه الفراء، ولا يرضى قوله، يقول: "وأمّا إذا قال: "أنّ فإنه مما ذهب إلى المعنى

---

[1] الآية ٦٦ النحل .

[2] الفراء: معاني القرآن ج١ ص١٧٣، ٢٠٠ .

[3] المصدر السابق ج١ ص٢٣٢ ، ج٢ ص٨١ .

[4] المصدر السابق ج٣ ص١٠٧، ١٢٧ .

[5] هذا البيت لضابئ بن الحارث البرجمي، أنظر سيبويه، أبو عمرو بن عثمان(ت ١٨٠هـ-٧٩٧م): الكتاب، تح. وشرح عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة ط٣ /١٩٨٨؛ ج١ ص٣٨، وانظر الفراء: معاني القرآن ج١ ص٣١١ .

[6] الفراء: معاني القرآن ج١ ص٣١١ في تفسيره الآية ٦٩ من سورة المائدة.

[7] البقرة الآية ٢٤٦ .

[8] الحديد الآية ٨ .

الذي يتحمّل دخول (أن). ألا ترى أنّ قولك للرجل: مالك لا تصلي في الجماعة؟ بمعنى ما يمنعك أن تصلي فـادخلت "أن" فـي (مَالَكَ) إذ وافـق معناها معنـى المنـع. والدليـل علـى ذلـك قـول اللـه عزوجل: "**ما منعك ألاّ تسجدَ إذ أمرتك**"[1] ، وفي موضع آخر: "**مالك ألا تكون مع الساجدين**"[2].

٢- المفضل بن محمد الضبي(ت ١٧٨هـ-٧٩٥م) صاحب المفضليات[3]، الراويـة الـذي يُعدُ أوثق من روى الشعر من الكوفيين وأعلمهم بـه.[4] قـال ابـن سـلاّم: "وكـان الأصمعـي وأبـو عبيدة من أهل العلـم، وأعلـم مـن ورد علينـا مـن غيـر أهـل البصـرة المفضّلُ بـن محمـد الضبّـي الكوفي.[5] وكان مختصاً بالشعر، ولم يكن مبرزاً في غيره من علوم العربيّة، وقد روى[6]عنه أبو زيد من البصريين في نوادره، وقد أكثر الفراء من سماع المفضل الضبّي حيث تكـرر هذا كثيراً في كتابه "معاني القرآن" تحت عنوان: أنشدني المفضل، أو المفضل الضبيّ.[7] .

٣- ترددت أسماءُ مُعيّنة في كتاب الفراء "معاني القرآن" سمع من أصحابها وروى عنهـم مباشرة وهم:

أ) أبو ثروان العُكلي الذي كان يُعلّم في البادية،[8] حيـث سـمع منـه الفـراء كثيراً، ودليلنـا على ذلك ما ورد في "معاني القرآن" بأسلوب يدل على الأخذ عنه مباشرة وشدة الاتصال به، فقد أكثر الفراء من قوله: "أنشدني أبو ثروان"[9] أو يقول: "وقال أبو ثروان: إنّ بني نُمير ليس لحدّهـم مكذوبة"[10] وهو شاهد نحوي لمجئ المصدر على مفعول. أو "سمعت أبا ثروان يقول لرجـل مـن

---

[1] الأعراف الآية ١٢ .

[2] الحجر الآية ٣٢ .

[3] أنظر ترجمتة في مقدمة المفضليات/ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون، دار المعارف ط١٠ /١٩٩٢ ص ٢٤-٢٦.

[4] أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين ص١١٦ .

[5] الجمحي، محمد بن سلام (ت ٢٣١هـ-٨٤٦م): طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر ، مطبعة المدني، القاهرة ص ٢٢ ، وسيشار اليه فيما بعد بـ(الجمحي: طبقات فحول الشعراء).

[6] أنظر السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبدالله(ت ٣٦٨هـ-٩٧٩م): أخبار النحويين البصريين، تح. د.محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام ط١ ١٩٨٥ص ٧٢ ، وسيشار اليه فيما بعد بـ(السيرافي: أخبار النحويين البصريين.

[7] الفراء: معاني القرآن ج١ ص٣٨، ٦١، ١٣٠، ١٣٣، ١٨٥، ج٢ ص١٦، ٣٩، ١٤٦، ١٩١، ٣٩٧.

[8] أنظر ابن النديم: الفهرست، تحقيق رضا تجدد، مطبعة ايران ومكتبة خياط/بيروت ص ٥٢ .

[9] الفراء: معاني القرآن ج١ ص٤، ١٣٥، ١٣٩. ج٢ ص٣٤، ٣٧، ٣٣٦. ج٣ ص١٦، ٤١، ٧٨.

[10] المصدر السابق ج٢ ص ٣٨ .

ضبّة وكان عظيم العينين: هذا عينان قد جاء. جعله كالنعت به.[1] أو "قال أبو ثروان: بشّرني بوجه حسن"[2] .

ب) أبو الجراح العقيلي: تردد اسم هذا الأعرابي في روايات الفراء تردداً يدل على الاتصال به والأخذ عنه مباشرة، إذ يرد في "معاني القرآن" كثيراً في مواضع متنوعة منه، كقوله: "أنشدني أبو الجراح"[3] أو "أبو الجراح العقيلي"[4] أو "بعض العرب وهو العقيلي"[5] أو يقول: " قال أبو الجراح في كلامه: ما من قوم إلا وقد سمعنا لغاتهم"[6] أو "سمعت أبا الجراح يقول: ما رأيت كغدوة قط -يعني غداة يومه- وذلك أنها كانت باردة. ألا ترى أنّ العرب لا تضيفها، فكذلك لا تدخلها الألف واللام"[7]. والفراء بهذا السّماع من أبي الجراح خطّأ قراءة أبي عبدالرحمن السّلمي "**الغداوة والعشي**"[8] قائلا قبل هذا السّماع: "ولا أعلم أحداً قرأ غيره، والعرب لا تدخل الألف واللام في الغدوة؛ لأنها معرفة بغير ألف ولام"[9] . وقد قرأ ابن أبي عامر من السبعة وبعض القراء الآخرين[10] ومحاولة الفراء تخطئة هذه القراءة بسماعه من أبي الجراح -يدل دلالة قوية على منتهى الثقة به وبفصاحته -وهو ما يعنينا هنا- وقد نقل أبو حيان سماع الفراء السابق ومحاولته مثبتاً خطأه برواية الخليل وسيبويه تنكير غدوة[11] مما يجيز دخول الألف واللام عليها.

ج- ومن الذين أكثر الفراء السّماع منهم وأخذ لغتهم أبو القمقام. فقد وصفه الفراء بالفقعسي[12] وأخرى بالأسدي[13] وثالثة يقول: "وأنشدني بعض بني أسد وهو أبو القمقام"[14] .

---

[1] الفراء: معاني القرآن، ج١ ص ٢٠٩ .

[2] المصدر السابق ج١ ص ٢١٢ .

[3] المصدر السابق ج١ ص ١٤٠، ٤٢٧، ج٢ ص ٢٣، ٣٥، ٧٥، ٢٢٢، ج٣ ص ١٤٧ .

[4] المصدر السابق ج٣ ص ١٧٥، ج٢ ص ٧٥ .

[5] المصدر السابق ج٣ ص ١٢٤ .

[6] الفراء: معاني القرآن ج٢ ص ٩٣ .

[7] المصدر السابق ج٢ ص ٩٣ .

[8] الآية ٢٨ الكهف. وتمامها: "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا".

[9] الفراء: معاني القرآن، ج٢ ص ١٣٩ .

[10] المصدر السابق ج٢ ص ١٣٩ .

[11] أبو حيان: البحر المحيط ج٤ ص ١٣٦ .

[12] الفراء: معاني القرآن ج١ ص ٤٣٤، ٤٣٥ .

[13] المصدر السابق ج٢ ص٢٨٣ .

[14] ابن النديم: الفهرست ص ٧٣ وفيها أبو القمقام.

وقد عدّه ابن النديم من فصحاء الأعراب وقال: "أبو القمقام روى عن الكسائي"[1]، وقد اكتفى الفراء بكنيته ولم يذكر اسمه كما فعل في أبي ثروان العكلي وأبي الجراح العقيلي -فيما رأيت وعلمت- فشأنه فيهما كشأنه في أبي القمقام من حيث التعبير بالكنية والوصف بالنسبة مع تعدد النسبة فيه بنسبته إلى أسد مرة وفقعس أخرى، ولا تضارب في ذلك ففقعس حيّ من أحياء أسد[2].

د- أبو زياد الكلابي، يزيد بن عبدالله بن الحر، وهو أعرابي بدوي، قدم بغداد أيام المهدي، وأقام وبها مات.[3] وهو من الأعراب الذين سمعهم الفراء كثيراً، وأخذ عنهم أحكامه اللغوية.

لقد أكثر الفراء من السّماع وهذا واضح في كتابه "معاني القرآن" حيث يقول: "سمعت العرب تقول"[4] و "سمعت العرب تنشد"[5] و "سمعت بعض العرب ينشد"[6] و "سمعت بعض العرب يقول"[7] و "سمعت بعض بني عقيل يقول"[8] و "سمعت بعض بني أسد يقول"[9] و "سمعت بعض بني سليم يقول في كلامه"[10] و "قال لي بعض بني سليم: آتيك بموليّ فإنّه أروى مني"[11] وهو شاهد نحوي لجعل ياء المتكلم بعد الألف ياء مشددة بقلب الألف ياء وإدغامها في الياء، وهي لغة هذيل.[12]

بعد هذا العرض عن دور الفراء في السماع اللغوي، يتضح -كل الوضوح- أنّ قول أبي الطيب اللغوي: "وقد أخذ علمه -أي الفراء- عن الكسائي -وهو عمدته- ثم أخذ عن أعراب وثق بهم مثل أبي الجراح وأبي ثروان وغيرهما، وأخذ عن يونس.. وعن أبي زياد الكلابي.[13] هذا القول صحيح -كل الصحة- ودقيق دقة بالغة أيضاً وهو يمثل مصدر السّماع لدى الفراء.

---

[1] ابن منظور: اللسان، مادة (فقس).

[2] ابن النديم: الفهرست ص ٧٣.

[3] المصدر السابق ص ٦٧.

[4] الفراء: معاني القرآن ج١ ص ١٣٢.

[5] المصدر السابق ج٢ ص ٩٥.

[6] المصدر السابق ج٢ ص ٧٦، ج٣ ص ١٤، ١١١.

[7] المصدر السابق ج١ ص ٢١٧، ج٢ ص ١٥، ٢٤٧.

[8] المصدر السابق ج١ ص ٢١٦.

[9] المصدر السابق ج١ ص ٢١٥.

[10] المصدر السابق ج١ ص ٣٢٣.

[11] المصدر السابق ج٢ ص ٣٩.

[12] المصدر السابق ج٢ ص ٣٩.

[13] أبو الطيب: مراتب النحويين ص ١٤٤.

كما نلحظ أنَّ الفراء يكثر من الشواهد -كما رأينا- وكثير جداً منها لم يذكر قائله؛ حيث اكتفى بقوله: "أنشدني بعضهم..." أو "أنشدني فلان.." وما يشبهها -كما مرّ- وهو يشبه في هذا المسلك سيبويه الذي لم يُعْنَ بنسبة الشواهد إلى قائليها في الكتاب، وإنما حدثت نسبة أغلبها بعده. يقول البغدادي: "وهذا البيت وإن كان من شواهد سيبويه لا يعرف ما قبله ولا ما بعده، ولا قائله، فإنَّ سيبويه إذا استشهد ببيت لم يذكر ناظمه، وأمّا الأبيات المنسوبة في كتابه إلى قائليها، فالنسبة حادثة بعده، وقد اعتنى أبو عمر الجرمي بنسبتها. قال الجرمي: "نظرت في كتاب سيبويه، فإذا فيه ألف وخمسون بيتاً. فامّا الألف فعرفت أسماء قائليها فأثبتُّها، وأمّا الخمسون فلم أعرف قائليها.[1]

إضافة إلى ماسبق فإنَّ مسموعات الفراء -في رأيي- تُعَدُّ وثيقة لغوية؛ حيث خلَّد في مؤلفه أولئك الأعراب الذين سمع عنهم اللغة، كما أنَّه عكس لنا شخصيته من خلال نقْوله أو سماعه. فالمتتبع لأخبار الفراء يرى أنَّه عالم لغوي يكاد يُلمُّ بكل شاردة وواردة، وصدق ثعلب إذ قال: "ولولا الفراء لما كانت اللغة؛ لأنه خلَّصها وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربية؛ لأنَّها كانت تتنازع، ويَّدعيها كل من أراد، ويتكلم الناس على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب"[2] .

ومن جهة ثانية فإنَّ ثمرة مسموعات الفراء كانت كتابه المعروف "معاني القرآن" الذي يُعَدُّ مرجعاً نحوياً بمعناه الشامل فضلاً عن كونه كتاب إعراب وتوجيه نحوي. مع العلم بأنَّ هذا الكتاب أملاه بين سنتي (٢٠٢هـ-٢٠٤هـ)/ (٨١٧م-٨١٩م) ورواه عنه محمد بن الجهم، الذي ساق المرزباني أبياتاً له فمدح بها الفراء في معجم الشعراء، وكذلك كتاب (المقصور والممدود)، (والمذكر والمؤنث)، (والأيام والليالي)..[3]

كما نلحظ من خلال دراسة كتابه "معاني القرآن" أنَّه كان يوظف مسموعاته في صياغة قواعد نحوية شاملة لمسائل جزئية.

ومن الأمثلة على ذلك قول الفراء في دخول الباء الزائدة في فاعل أفعال المدح والذم وموضعه من الإعراب: "**كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا**"[4] وكل ما في القرآن من قوله: "وكفى بربك" "وكفى بنفسك" فلو ألقيت الباء كان الحرف مرفوعاً كما قال الشاعر[5]:

ويخبرني عن غائب المرء هَدْيُه كفى الهديُ عما غيَّب المرءُ مُخبِرا

---

[1] البغدادي: خزانة الأدب ج١ ص ٣٦٩ .

[2] الفراء: معاني القرآن ج١ ص ٩.

[3] بروكمان: تاريخ الأدب العربي ج٢ ص ٢٠٠ .

[4] الآية ١٤ الإسراء.

[5] هو زياد بن زيد العدوي أنظر ابن منظور : اللسان، مادة (هدى). وكذلك الفراء: معاني القرآن ج٢/١١٩

وإنما يجوز دخول الباء في المرفوع، إذا كان يمدح به صاحبه، ألا ترى أنك تقول: "كفاك به، ونهاك به، وأكرم به، وبئس به رجلاً، ونعم به رجلا، وطاب بطعامك طعاماً، وجاد بثوبك ثوباً، ولو لم يكن مدحاً أو ذماً لم يُجز دخولها، ألا ترى أنّ الذي يقول قام أخوك أو قعد أخوك، لا يجوز له أن يقول: قام بأخيك ولا قعد بأخيك إلاّ أن يريد قام به غيره وقعد به. فهو يجعل دخول الباء الزائدة قياساً في فاعل كل فعل دلّ على مدح أو ذم.

ويقول في ضبط قاعدة المضاف المكرر مع ذكر مضاف إليه واحد، وإنّ ذلك لا يجوز إلاّ إذا كان المضافان يصطحبان عادة. قال الفراء: "سمعت أبا ثروان العكلي يقول: **"قطع الله يَدَ ورِجْلَ من قاله"**؛ وإنما يجوز هذا في الشيئين يصطحبان مثل اليد والرّجل. ومثل قوله: عندي نصف أو ربع درهم، وجئتك قبل وبعد العصر، ولا يجوز في الشيئين يتباعدان مثل" الدار والغلام، فلا تجيزنّ اشتريت دار أو غلام زيد، ولكن عبد أو أمة زيد، وعين أو أذن، ويد أو رجل وما أشبه.[1]

وفي جواز إفراد أفعل التفضيل المضاف للمعرفة ومطابقته، يقول الفراء: "**إذ انبعث أشقاها**"[2] إنّهما كانا اثنين، فلان ابن دهر، والآخر قدار، ولم يقل: أشقياها، وذلك جائز لو أتى؛ لأن العرب إذا أضافت أفعل التي يمدحون بها، وتدخل فيها (من) إلى أسماء وحدّوها في موضع الاثنين والمؤنث والجمع، فيقولون للاثنين: هذا أفضل الناس، وهذان خير الناس، ويثنون أيضاً. وقد انشد أبو القمقام الأسدي:

ألا بكرَ الناعي بخيري بني أسَدْ بعمرو بن مسعُودٍ وبالسَّيد الصَّمَدْ[3]

والأمثلة على توظيف مسموعاته في صياغة قواعد نحوية كثيرة، لا مجال لذكرها في هذا العرض الموجز.

---

[1] الفراء: معاني القرآن ج٢ ص ٣٢٢ .

[2] الآية ١٢ الشمس .

[3] الفراء: معاني القرآن ج٣ ص ٢٦٨ . والمقصود بالسيّد الصمد: خالد بن نضلة، وكان هو وعمرو بن مسعود نديمين للمنذر بن ماء السماء، فراجعاه في بعض القول على سكره، فغضب، فأمر بقتلهما (الأغاني: ٨٨/١٩).

ب) أبو عُبَيْدة، مَعْمَر بن المثنى التيمي.

وُلد أبو عبيدة سنة (١١٠هـ-٧٢٨م) في البصرة، وكان مولى لتيم قريش، وأخذ في شبيبته عن أبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب. ولما عيب عليه نسبه من العجم لحق بفرقة الصُفرية من الخوارج، وحاول أن ينتقم لنفسه بتصنيف كتب في مثالب العرب على مذهب الشعوبية.[١] وفي سنة (١٨٨هـ-٨٠٣م) استقدمه الفضل بن الربيع الوزير إلى بغداد ليقرأ كتبه للرشيد. واختلف في تاريخ وفاته، فقيل توفي سنة (٢٠٩هـ-٨٢٤م)، وقيل سنة (٢٠٧هـ-٨٢٢م) أو (٢١٠هـ-٨٢٥م) أو (٢١٣هـ-٨٢٨م) وبلغ عمره نيفاً وتسعين سنة[٢] ولعلّ وفاته كانت سنة ٢٠٩هـ؛ لأن هذا القول يعضده ويقويه ثلاث روايات: أولاها عن أبي حاتم (تلميذ أبي عبيدة، وقد نقلها الزبيدي.[٣] وثانيتها عن الموصلي وقد حكاها عنه المرزباني[٤] والخطيب البغدادي[٥] والقفطي[٦] وابن حجر[٧]. وثالثتها عن المظفر بن يحي[٨] ت(٢٦٦-٣٤٨هـ) وقد أثبتها الخطيب[٩] وياقوت[١٠].

عُرف أبو عبيدة بسعة العلم، وبهذا يقول أبو الطيب اللغوي: "وكان في هذا العصر ثلاثة هم أئمة الناس في اللغة، والشعر، وعلوم العرب، لم ير مثلهم قبلهم ولا بعدهم. عنهم أُخذ جلُّ ما في أيدي الناس من هذا العلم، بل كله وهم أبو زيد، وأبوعبيدة، والأصمعي"[١١]، فأبو زيد يُقدَّم في النحو.[١٢]

---

[١] بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج٢ ص ١٤٢، ١٤٣ .

[٢] المصدر السابق ج٢ ص ١٤٢، ١٤٣ .

[٣] الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ص ١٩٣ .

[٤] المرزباني، أبو عبيدالله محمد بن عمران(ت٣٨٤هـ-٩٩٤م): نور القبس المختصر من المقتبس، تح. رودلف زلهايم، ١٩٦٤ ص ١٢٤ .

[٥] الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج١٣ ص ٢٥٧ .

[٦] القفطي، جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف(٦٤٦هـ-١٢٤٨م): إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية بالقاهرة(١٣٧٤هـ-١٩٥٥م) ج٣ ص ٢٨٠، وسيشار اليه فيما بعد بـ(القفطي: إنباه الرواة) .

[٧] العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢هـ-١٤٤٨م): تهذيب التهذيب ط الهند ١٣٢٥، ج١٠ ص٢٤٧، وسيشار اليه فيما بعد بـ(العسقلاني: تهذيب التهذيب) .

[٨] أنظر ترجمته في تاريخ بغداد ج١٣ ص ٢٥٢ .

[٩] المصدر السابق ج١٣ ص ٢٥٧ .

[١٠] ياقوت الحموي: معجم الأدباء، دار الفكر ط٣/ ١٩٨٠ ج١٩ ص ١٦٠ .

[١١] أبو الطيب: مراتب النحويين ص ٧٠ .

[١٢] البغدادي: تاريخ بغداد ج١٠ ص٤١٤، والمرزباني: نور القبس ص١٠٥ .

والأصمعي يُقدَّم في الشعر[1] ، وأبو عبيدة يُقدَّم في الأنساب والأخبار والأيام[2] فابن قتيبة يرى الغالب عليه الغريب، وأخبار العرب، وأيامها[3] . والجاحظ يرى أنَّه قد عُرِف في معرفة اللغات (اللهجات) والعلم بالأنساب.[4] ويراه ابن الأنباري من أعلم الناس باللغة، وأخبار العرب وأنسابها[5]

كان أبو عبيدة يلجأ إلى السَماع المباشر للغة من أفواه أصحابها، ونسوق أمثلة متعددة تبين انتهاج أبي عبيدة هذا النهج في تحصيل الأخبار القائمة -كما أسلفت- على السَماع المباشر .

أولاً:- قال أبو عبيدة: حدثني قيس بن غالب بن عبايه بن أسماء بن حصن بن حذيفة بن بدر بن عمر الفزاري (وفزارة من ذبيان) وشيخ علامة من بني قتيبة بن معن باهله، وأبو مرهب، تبيل الدبيري من بني أسد، وغير واحد من علماء قيس وبني أسد أنَّ يوم النسار كان بعد يوم جبله.[6] ويوم النسار قد كان بين بني أسد وذبيان وبين بني جُشم بن معاوية بن بكر بن هوازن. وها هو أبو عبيده يوقته بما سمع من القوم أصحاب اليوم أنفسهم (والقوم أعلم بحديثهم).

وقال أيضاً: وحدثني ابن شفاء المنافي من بني مناف بن دارم قال: إنَّما نَبَّه حاجب بن زراره بعد قتل لقيط (يعني لقيطاً أخاه).[7] . وحاجب هو ابن زرارة بن عدس بن زيد بن عبدالله بن دارم[8] ، وأبو عبيدة يروي بعض أمره عن دارمي مثله. ويقول: حدثني درواس أحد بني معبد بن زراره أنَّ حاجب بن زرارة كان يوم جبلة غلاماً له ذوابه[9] .

---

[1] انظر أبو الطيب: مراتب النحويين، ص ٨٠ ، والزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ١٨٨ .

[2] البغدادي: تاريخ بغداد ج١٠ ص ٤١٤ .

[3] السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، طبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ط١/١٩٦٥، ج٢ ص٢٩٥ ، وسيشار اليه فيما بعد بـ(السيوطي: بغية الوعاة).

[4] الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ-٨٦٩م): رسائل الجاحظ، تح. وشرح عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٦٥. ج٢ ص١٩٢، وسيشار اليه فيما بعد بـ(الجاحظ: الرسائل).

[5] الأنباري: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح إبراهيم السامرائي، نشر مكتبة الأندلس، بغداد ط٢/١٩٧٠ ص٨٥.

[6] أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين(ت ٣٥٦هـ-٩٦٧م): الأغاني، طبعة ساسي ج٣ ص ٢٣٨، وسيشار اليه فيما بعد بـ(الأصفهاني: الأغاني).

[7] المصدر السابق ج٣ ص ٢٣٩ .

[8] القلقشندي، أبو العباس أحمد(٨٢١هـ-١٤١٨م): نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح. إبراهيم الأبياري، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٧٠ ، وسيشار اليه فيما بعد بـ(القلقشندي: نهاية الأرب).

[9] الزهيري، محمود غناوي: نقائض جرير والفرزدق بغداد/١٩٥٤م ص ٢٣٩ .

وفي أخبار الشعراء سمع أبو عبيدة جملة من أخبار جرير والفرزدق ومبدأ التهاجي بينهما عن مسحل بن كسيب بن عمران بن عطية بن الخطفي[1].

لقد أفاد أبو عبيدة من وفود الأعراب القادمين من البادية، وتعلم منهم -فيما بلغنا- جَمْعٌ من بني جعفر بن كلاب كانت عُدَّتهم -فيما روى أبوعبيدة- أربعة وعشرين رجلاً وردوا إلى البصرة من البادية .. واختلف إليهم أبوعبيدة زمناً يسألهم ويكتب عنهم.[2]

وأخذ أبو عبيدة سماعه عن أعراب غير مُسَمَّين ... وما أكثر ما نجده يسائلهم ويسمع منهم.. وهو في كل ذلك لا يُعيِّنهم ويكتفي من الإشارة إليهم بمثل هذه الأسانيد: قلت لأعرابي .. سألت إعرابياً .. وهذا الذي سمعناه من العرب الفصحاء .. هكذا سمعتها من العرب ..

وهو كثيراً ما كان يسأل ببراعة .. فهو لا يسأل الأعرابي في قضايا العلم التي لا يعرفها، إنما يسأله عما يعرف، وعمّا يألف، وقد يسأله عن بعض حاله، وحال قومه، يستدرجه بذلك إلى الكلام، فيأخذ ما شاء الله أن يأخذ من كلامه، ويحتج بما يجد فيه وجهاً للاحتجاج، فهو -مثلاً- يسأل أعرابيا عن حروب كانت بينهم، فيجيبه الأعرابي: كانت بيننا حروب عون تفقأ فيها العيون مرَّة نجنق، وأخرى نرشق.. وقد استشهد بما ورد في كلام الأعرابي على دعواه فيما بعد، أنّ (الميم) في منجنيق زائدة؛ إذ استدلّ بأنّ قوله: "نجنق" دالّ على أنّ الميم زائدة، وأنها لو كانت أصيلة لقال: "تمنجق" .[3]

كما كان الأعراب مدرسةً تتلمذ لها شيوخ العصر يومذاك جميعاً .. وفيهم شيوخ أبي عبيدة الكبار، كأبي عمرو.. ويونس .. وكانت التلمذة لهؤلاء الأعراب قد اتخذت في بادئ الأمر شكل الرحلة؛ حيث يغدو طالب العلم إلى البادية، فيخالط الأعراب مخالطة عميقة، ويقيم ما شاء الله أن يقيم بين ظهرانيهم يسمع لغتهم، ويأخذ عنهم الغريب والأخبار في مهدها، ثم يعود بذاك إلى بلده .. ثم تنبه الأعراب إلى بضاعتهم من اللغة والغريب والأخبار والشعر، واستيقظوا على اهتمام الطلاب والعلماء من أهل الحواضر بها .. فصاروا يفدون من باديتهم إلى هذه الحواضر، ويجدون لها بين طلبة العلم في الأمصار سوقاً رائجة.

وأغلب الظن أنّ أبا عبيدة قد أخذ عن هؤلاء الأعراب: مَن أقام منهم بالبصرة، ومن وفد إليها، ولسنا نجد في أخبار الرجل ورواياته، ما يدلّ على أنّه سافر إليهم في باديتهم، أو أنه كانت له في ذلك رحلة .. ولذا تظل مقالة الأستاذ سعيد الأفغاني، أن أبا عبيدة ضرب في بوادي نجد

---

[1] المصدر السابق ج١ ص ١٢٦ .

[2] القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب(٢٣٠هـ-٨٤٤م): جمهرة أشعار العرب، بيروت ١٣٨٣هـ-١٩٦٣م، ص ٥٥ ، وسيشار اليه فيما بعد بـ(القرشي: جمهرة أشعار العرب).

[3] ابن دريد، أبوبكر محمد بن الحسن(ت ٣٢١هـ-٩٣٣م): جمهرة اللغة، الهند ١٣٤٥هـ ج٢ ص ١١٠، وسيشار اليه فيما بعد بـ(ابن دريد: جمهرة اللغة).

اهتمام الطلاب والعلماء من أهل الحواضر بها .. فصاروا يفدون من باديتهم إلى هذه الحواضر، ويجدون لها بين طلبة العلم في الأمصار سوقاً رائجة.

وأغلب الظن أنّ أبا عبيدة قد أخذ عن هؤلاء الأعراب: مَن أقام منهم بالبصرة، ومن وفد إليها، ولسنا نجد في أخبار الرجل ورواياته، ما يدلّ على أنّه سافر إليهم في باديتهم، أو أنه كانت له في ذلك رحلة .. ولذا تظل مقالة الأستاذ سعيد الأفغاني، أن أبا عبيدة ضرب في بوادي نجد والجزيرة يشافه الأعراب، ويسمع منهم[1] دعوى لا يسندها دليل فيما اطّلعت عليه. ولعل أبا عبيدة انصرف عن الرحلة إلى الأعراب في باديتهم؛ إذ وجد أنّ شيوخه الكبار وخاصة أبا عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، قد وعوا جُلّ ما كان لدى أولئك الأعراب .. فانتقل من أفواه الأعراب إلى حوافظ الشيوخ ودفاترهم، ثم كان يجد أنّ كثرة الفصحاء والثقات من الأعراب يقيمون في البصرة، يُعلّمون ويؤلفون .. ويجد طريقه إليهم مُيَسّرا قريباً .. ولعله قدّر إلى هذا أيضاً أنّ من كان يجد لديه بضاعة نادرة من هؤلاء الأعراب، فهو لابُدّ وافد بها إلى البصرة .. فاجتزأ لهذا كله من علم الأعراب بما أخذ عن شيوخه، وما أخذ عن مقيمي الأعراب ووافديهم.

ومن بين الذين سمع منهم أبو عبيدة:

- رؤبة بن العجاج: أعرابي من تميم، عارف باللغة وحشيّها وغريبها[2] . وفي أغلب الظن أنّ أبا عبيدة أخذ عنه غريب اللغة، إذ نجده يسأله كثيراً عن معاني ألفاظ من ألفاظ اللغة.[3] ويحكي عنه حدوداً وتعريفات لمفرداتها. كما نجده يسمع يونس بن حبيب يسأل رؤبة عن السانح والبارح، فقال: **السانح ما ولاّك ميامنه والبارح ما ولاك مياسره**[4] .

كما سمع من فصحاء الأعراب وثقاتهم وعلمائهم أبي سوار الغنوي[5] وكذلك أبيّ البيداء، واسمه أسعد بن عصمة[6] . أقام أيام عمره في البصرة يؤخذ عنه العلم، وكان شاعراً، وكذلك سمع من (أبو مالك عمرو بن كركرة، من بني نمير، ومولى بني سعد)[7] وكان أبو مالك عارفاً باللغة

---

[1] الأفغاني، سعيد: في أصول النحو، دار الفكر دمشق ١٩٦٣م، ص ١٨٩ .

[2] ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج١١ ص ١٤٩، ١٥٠ .

[3] ابن دريد: جمهرة اللغة ج٣ ص ٣٥ .

[4] ابن منظور: اللسان، مادة (سنح).

[5] ابن النديم: الفهرست، ص ٦٧ .

[6] المصدر السابق ص ٦٧ .

[7] السيوطي: المزهر في علوم اللغة وانواعها، تح. محمد جادالمولى وزميله، طبعة دار الفكر د.ت ج٢ ص٤٠١ وسيشار اليه فيما بعد بـ(السيوطي: المزهر).

والنوادر. وسمع أبا خيره، وهو أعرابي بدوي من بني عدي، كما أخذ عن أبي عمرو الهذلي[٨] الذي سمعه يقول في منطقه (كلامه) أكلوني البراغيث[٩]

عن كل هؤلاء وغيرهم، أخذ أبو عبيدة علمه، فقد سمع منهم اللغة التي كانوا وفدوا بها إلى الحواضر، وفرغوا لتعليمها والتأليف فيها .. ومع كل الذي قيل ويقال عن أبي عبيدة فإنّ مسموعاته لم تذهب أدراج الرياح، بل استفاد جداً من هذه المسموعات، وقد ظهر ذلك في كتابه مجاز القرآن. ففي ميدان الإبدال نجده يلتفت إلى ما يعتري حروف الألفاظ من التغيير بأن يُبْدل حرفاً بحرف، ودليله فيه ما تقوله العرب أو ما يرويه ..

أ) ففي شرحه "لسجِّيل" يقول: وبعضهم يحوّل اللام نوناً كقول النابغة:

بكل مُدَجَّجٍ كالليثِ يسمُو على أوصالِ ذيّالٍ رَفَنَّ

يريد رفلَ.[١]

ويقول: العرب تقلب حروف المضاعف إلى الياء فيقولون: تظنّيت، وإنما هو تظننت. قال العجاج: تقضي البازي إذا البازي كسر. وإنما هو تقضض من الانقضاض.[٢]

غير أننا إذا دققنا النظر في مسموعاته نجده يلتفت إلى أمور تعليلية سانغة لظواهر اللغة .. من ذلك أننا نجده يقف على ظاهرة (تسهيل الهمزة) في ألفاظ بأعيانها في لغة العرب، ويلتمس لذلك تعليلاً قريباً واضحاً .. يقول: "تركت العرب الهمزة في أربعة أشياء لكثرة الاستعمال: في الخابية وهي من خبأت، والبرية وهي من برأ الله الخلق، والنبي وهو من النبأ، والذرية وهي من ذرأ الله الخلق"[٣]

وفي مجال التعريب ينكر أبو عبيدة وجود المعرّب في القرآن .. فهُو يجدّ في التنزيل أنّ القرآن عربي،[٤] وأنّه نزل بلسان عربي مبين[٥] فيأخذ الآية بظاهر نصّها وينفي أن يكون في القرآن شيء من غير لغة العرب، وفي هذا يقول: "نزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أنّ فيه غير العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أنّ "طه" بالنبطية فقد أكبر، وأن لم يعلم ما هو، فهو

---

[٨] أبو عبيدة، مُعمّر بن المثنى(ت ٢٠٩هـ-٨٢٤م): مجاز القرآن، تحقيق د. محمد فؤاد سزكين، مطبعة السعادة، مصر ج١ ص ١٠١، وسيشار اليه فيما بعد بـ(أبو عبيدة: مجاز القرآن).

[٩] المصدر السابق ج٢ ص ٢٣ .

[١] المصدر السابق ج١ ص٢٩٦ .

[٢] السيوطي: المزهر ج١ ص ٤٦٨ .

[٣] السيوطي: المزهر ج٢ ص ٢٥٢ .

[٤] أنظر سورة يوسف: الآية ٢ ، وسورة طه الآية ١١٣، وسورة الزمر الآية ٢٨.

[٥] أنظر سورة النحل الآية ١٠٣، وسورة الشعراء الآية ١٩٥.

افتتاح كلام الله، وهو اسم للسورة وشعار لها، وقد يوافق اللفظ اللفظ ويقاربه، ومعناهما واحد، وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها .. ومن ذلك الاستبرق بالعربية وهو الغليظ من الديباج، والفرند وهو بالفارسية: "استبره" وكوز وهو بالعربية جوز، وأشباه هذا كثير"[٦] فذلك كله اتفاق بين نص القرآن العربي ولغات الأعاجم.

وفي مجال اللهجات يعمد أبوعبيدة إلى الحصر والوصف، ولا يكاد يتجاوزه إلى ما وراءه من تعليل ذلك وضبطه في قواعد أو أصول تنتظمه. يقول مثلاً:

"تميم من أهل نجد، يقولون: نهْيٌ للغدير، وغيرهم يقولون: نَهْيٌ"[١]

ويقول: أربعة أحرف تهمزها عقيل من بين جميع العرب. تقول: فأره، ومؤسى، وجؤنه،وحؤت"[٢]

ويقول في شرح الأجداث: واحدها جدث، وهي لغة أهل العالية، وأهل نجد يقولون:جدف[٣] .

وفي مجال التفسير نجده يوظّف مسموعاته لتفسير القرآن الكريم، ومن الأمثلة على ذلك:

ا) تفسيره لقوله تعالى:**(ثم استوى على العرش)**[٤] قال: "مجازه ظهر على العرش وعلا عليه، ويقال: "استويت على ظهر الفرس، وعلى ظهر البيت"[٥] وهذا دون شك تفسير لغوي ينسي فاعل الاستواء، وما يجب له من التنزيه عن الظهور والعلو الحسيين وهو وإن كنا نعتقد أنّ أبا عبيدة يقصد وصفه –سبحانه وتعالى– بهما تفسير عليه حمله على ذلك وظاهر فيه، مما جعل العلماء ينفرون من كتابه.

ب) تفسيره لقوله تعالى: "**وطلح منضود**"[٦] قال: "زعم المفسرون أنّه الموز، وأما العرب فالطلح عندهم، شجر عظيم الشوك، وقال الحادي:

بشَّرها دليلُها وقالا غداً تَرَيْنَ الطلح والحِبَالا.[٧]

---

[٦] أبو عبيدة: مجاز القرآن ج١ ص ١٨ .

[١] ابن السكّت، يعقوب بن اسحق(ت ٢٤٤هـ-٨٥٨م): إصلاح المنطق، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف بمصر، ط٢ (د. ت) / ٣٠، وسيشار اليه فيما بعد بـ(ابن السكيت: إصلاح المنطق).

[٢] الجاحظ: الحيوان، تح. عبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦، ج٥ ص ٣٠٧ .

[٣] أبو عبيدة: مجاز القرآن ج٢ ص ١٦٣، ج١ ص ٢٠٨، ج٢ ص٢٥٢ .

[٤] الآية ٣ يونس .

[٥] أبو عبيدة: مجاز القرآن ج١ ص ٢٧٣ .

[٦] الآية ٢٩ الواقعة .

[٧] أبو عبيدة: مجاز القرآن ج٢ ص ٢٥ .

علماً أنَّ كون الطلح هو الموز هو التفسير المروي،مما جعل الطبري يقول: "وأما الطلح فإنَّ مُعمر بن المثنى كان يقول: هو عن عرب شجر عظام كثير الشوك" وأنشد لبعض الحداة البيت السابق.

وأما أهل التأويل من الصحابة والتابعين، فانّهم يقولون: "إنَّه الموز"[٨] ، وقد روى الإمام الطبري في ذلك آثاراً وأقوالاً كثيرة، وعبارة أبي عبيدة تدل دلالة واضحة على مدى اعتزازه بمنهجه اللغوي.

وعلى الرغم من أنَّ أبا عبيدة يُعَدُّ من اللغويين الكبار فإنه لا يُعَدُّ من المقدَّمين في علم النحو. يقول أبو حيان: "وكان ضعيفاً في علم النحو[١] .

وبهذا كله يتضح لنا دور أبي عبيدة مُعَمَّر بن المثنى في سماع اللغة، ومنهجه المستقل في هذا السَماع. فالأخبار لم تشر -من قريب أو من بعيد- إلى أنَّ هذا الرجل رحل إلى البادية كما فعل غيره لجمع اللغة، لكنه أجهد نفسه وهو يسمع هذه اللغة من الأعراب الوافدين، وكان يعي ويُسَجِّل، ويحفظ كل ما يقال، ثم كان يروي ويُعَلِّم. وقد أثمرت جهوده فنهض السماع على يديه كما نهض على يدي غيره وكان من ثماره كتابه المعروف، الذي أثار ضجة في أوساط العلماء "مجاز القرآن" .

---

[٨] الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير(٣١٠هـ-٩٢٣م): تفسير الطبري ط/دار المعارف بمصر، ج٢٧ ص١٨١ وما بعدها وما قبلها.

[١] أبو حيان: تفسير البحر المحيط، ج٤ ص ٤٥٩ .

ج) أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري (ت ٢١٥هـ-٨٣٠م)

كان أبو زيد من تلاميذ أبي عمرو بن العلاء، كما كان أيضا من تلاميذ المفضّل الضبيّ الكوفي، وكان جدُّه من الصحابة الذين شهدوا غزوة أحد، وجمع نجوماً من القرآن على عهد الرسولﷺ . بالإضافة إلى ذلك فقد كان أبو زيد الأنصاري شديد العناية بجمع اللغات واللهجات. ولما استخلف المهديُّ سنة (١٥٨هـ-٧٧٤م) استقدمه مع كثير من العلماء إلى بغداد. وتوفي أبو زيد، وقد قارب المائة، وكان ذلك حوالي (٢١٥هـ-٨٣٠م). وقد ترك للمكتبة العربية مُصنفات عديدة منها على سبيل المثال كتاب (النوادر في اللغة)، وكتاب (اللبأ واللبن)، وكتاب (الهمز)...[١]

دور أبي زيد في سماع اللغة وروايتها.

أكثر أبو زيد سعيد بن أوس من السّماع، والأخذ عن سكان البادية، والرواية عن الأعراب الفصحاء في مواطنهم، والحوار معهم. وهو ينقل في نوادره يقول: "سمعت أعرابياً من بني تميم يقول: فلان كبّرة ولد أبيه إذا كان أكبرهم."[٢]

ويروي أبو زيد بعض اللغات عن قبائل قيس، وبني عامر. فقد روى عن قيس وبعض العرب، وإذا سئل الواحد منهم، هل بقي عندك من طعامك شيء ؟

يقول: همهام، أي نفد. حكاه أبو زيد عن قوم من قيس. وأكثر من يتكلم بذلك بنو عامر بن صعصعه. قال أبو زيد: سمعت عامرياً يقول: ما تقول إذا قيل لك: أبقي عندك شيء ؟ قال: همهام يا هذا، أي ما بقي شيء.[٣]

وقد عرف أبو زيد مواطن الفصاحة، والقبائل التي تتكلم اللغة السليمة الخالصة، فحددها حينما قال: "أفصح الناس سافلة العالية، وعالية السافلة، يعني عجز هوازن، وأهل العالية أهل المدينة ومن حولها، ومنْ يليها ودنا منها"[٤]

---

[١] أنظر بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج٢/ ١٤٥-١٤٦ .

[٢] السيوطي: المزهر ، ج١/ ١٧٠ .

[٣] السيوطي: المزهر ، ج٢/ ١٣٣ .

[٤] المصدر السابق ج٢/ ٤٨٣، وسافلة العالية وعالية السافلة هي المنطقة التي تمتد من غربي نجد عندما تأخذ هضبتها في الانحدار نحو الغرب، وبين سفوح جبال الحجاز عندما تأخذ في الارتفاع مكونة تلك السلسلة الجبلية في غربي الجزيرة .

وقد نص الأقدمون على أنّ أبا زيد كثير الرواية عن الأعراب، كثير السماع منهم.[1] وقد صرّح أبو زيد في أول كتاب (النوادر) "بأنّ ما كان فيه من اللغات، وأبواب الرجز فذلك سماعه عن العرب."[2]

والأمر الذي أراه أنّ هذا السماع كان قد وصل إليه بطريقين: الأول الرحلة إلى البادية، والآخر قدوم الأعراب إلى البصرة، وأخذ أبي زيد عنهم؛ لأن النصوص التي بين أيدينا تدل دلالة قاطعة على وجود الأعراب في حلقة أبي زيد في مسجد البصرة.

ويروى أنّ أعرابياً وقف على حلقة أبي زيد جادياً أي مستميحاً، فظن أبو زيد أنّه جاء ليسأل مسألة في النحو. فقال له أبو زيد: سل يا أعرابي ما بدا لك ؟ فقال الأعرابي على البديهة:[3]

لست للنحو جئتكم ... لا ولا فيه أرغبْ
أنا مالي ولامرئٍ ... أبدَ الدهرِ يُضْرَبْ
خلّ زيداً لشأنِه ... حيثُ ماشاءَ يَذْهَبْ
واستمع قولَ عاشقٍ ... قد شجاهُ التطرُّبْ
همُّه الدهر طَفْلةٌ ... فهو فيها يُشَبِّبْ

نتبيّن من هذا الخبر أنّ أبا زيد كان حريصاً على علوم العربية مقبلاً عليها، دائباً في الحصول عليها، فقد أخذ اللغة عن علماء البصرة والكوفة جميعهم ممن تقدموه. ولم يتحرج أن يروي عن أيّهم بصرياً كان أم كوفياً. فقد أخذ القراءة عن أبي عمرو بن العلاء، والمفضل الضبي عن عاصم، وأبي السمال قعنب البدوي، وأخذ الشعر عن أبي عمرو بن العلاء، وأبي الخطاب الأخفش، وأبي خيرة العدوي، ورؤبة بن العجاج، والمفضل الضبي، ويونس بن حبيب، وأخذ النحو عن عيسى بن عمر الثقفي ويونس بي حبيب.

ولعلّ من الملاحظ أنّ هؤلاء الشيوخ جميعهم قد أخذ عنهم أبو زيد مباشرة، وسمعهم؛ لأنّه عاصرهم ما عدا واحداً منهم، فلم يأخذ علمه عنه مباشرة، إنّما كان الواسطة بينه وبين علمه المفضل الضبيّ، حيث يروي أنّ أبا زيد أخذ قراءة عاصم بن أبي النجود (ت١٢٨هـ-٧٤٦م) عن المفضل الضبيّ، وهكذا كان دأبُ أبي زيد المتواصل وجدُّه في الأخذ والتحصيل والاكتساب ممن خالطه أو لازمه، وسمع به فطار إليه. واجتمع هذا الجهد الدائب إلى ذاكرة واعية، فكان كل ذلك كفيلا بأن يجعل منه عالماً بمعارف العصر، محيطاً بعلومه يبرز بين العلماء، ويجوز الشهرة بين المشهورين.

---

[1] السيرافي: أخبار النحويين البصريين، ص٦٨

[2] أبو زيد الأنصاري، سعيد بن أوس (ت٢١٥هـ-٨٣٠): النوادر في اللغة، تح ودراسة د. محمد عبد القادر أحمد ط١، منشورات جامعة الفاتح، ص١٤٤٢ وسيشار إليه فيما بعد بـ (ابو زيد الأنصاري: النوادر).

[3] السيرفي أخبار النحويين البصريين، ص٦٩.

ثمرة رحلة أبي زيد إلى البادية.

أكثر أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري من الرواية اللغوية. فقد كان -كما أسلفت سابقاً- يرحل إلى البادية، ويسمع حديث الأعراب، إضافة إلى ذلك كان يشافههم. ولعل هدفه أولاً وأخيراً هو أخذ اللغة والرجز. وهذه مجموعة من الأمثلة تدل على أنَّ أبا زيد كان يسمع من الأعراب:

أولاً:- صرح أبو زيد في أول كتابه (النوادر) بأنَّ ما كان فيه من شعر القصيدة فهو سماعي من المفضل بن محمد الضبيّ، وما كان من اللغات وأبواب الرجز فذلك سماعي من العرب.[1]

ويبدو من خلال اطّلاعي على مضمون كتابه (النوادر) أنَّ أبا زيد كان يكثر من سماع الرجز بدليل أنّه قد جعل معظم أبواب كتابه بمسموعات من الرجز. وفي رأيي أنَّ هذا ليس شأنه وحده، بل هذا شأن بقية مؤلفي كتب النوادر الذين يكثرون من الاستشهاد بالرجز، وذلك لميل الرجّاز إلى الغريب النادر من الألفاظ. وفي معظم أبواب الرجز نراه يُقدّم المقطوعة، وكثيراً ما كان لا يصرح باسم قائلها، وقد يعزوها إلى أحد بني فلان، ويكتفي في غالب الأحيان بعبارة "قال الراجز" و "قال الآخر".

ثانياً:- ذكر أبو زيد في كتابه "النوادر" أسماء من نقل عنهم من الأعراب من القبائل العربية .. ففي "نوادره" حدّد قبيلة بني كلاب، وأشار إلى أولئك الأعراب الذين سمع منهم مثل: الحجاج الكلابي، وأبي مُرّة الكلابي، والنمر، كما نقل عن بني عقيل رجالها ونسائها، وبني تميم، وبني أسد، وبني سعد، وبني عبس، وبني كعب بن عبدالله بن أبي بكر، وبني ضَبّة، وبني الهجيم. وسمع من قبائل بكر بن وائل، كما سمع عن الطائيين والعنبريين والقيسيين والهلاليين.[2]

ثالثاً:- كان أبو زيد يُسَمّي الأعراب الذين يسمع منهم مباشرة، وتارة أخرى لا يُسَمّيهم ويكتفي بقوله (وسمعت رجلاً من الأعراب يقول...). أو يقول: (أنشدني أعرابي).

وقد يحدد منطقة الأعرابي الذي روى عنه فيقول: (سمعت أعرابياً من أهل العالية يقول: ".. ومن هؤلاء الذين روى عنهم أبو زيد، وذكر أسماءهم؛ العكلي، وأعرابي يقال له العلاء، والحرمازي، وأبو العامرية النميري، وأبو محرز وأبو الصقر ..[3]

---

[1] أبو زيد الأنصاري: النوادر، ص ١٤١ .

[2] أبو زيد الأنصاري: النوادر، ص ١٥٣، ١٦٨، ١٨٠، ٢٠٢، ٢٢٤، ٢٣٩، ٢٦٤، ٣٣٠، ٣٣٨، ٤٠٣، ٤٤٥، ٤٨٢، ٥٠٥، ٥١٠، ٥٩٦، ٦٠١ .

[3] المصدر السابق، ٣٠٩، ٣٢٥، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٩، ٤٠٤، ٤٧٩، ٥١١، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٣١، ٥٣٢.

وفي ظني أنَّ الشعر الذي سمعه أبو زيد واستشهد به في كتابه نظر إليه على أنَّه مادة للصناعة اللغوية لا على أنَّه وسيلة من وسائل التذوق الأدبي والاستماع الفني. وهذا يبدو واضحاً من خلال الأشعار التي وردت في كتاب "النوادر" التي تدل على أنَّه عنى بعصور الاستشهاد اللغوي كلها. وبالفصحاء من الشعراء على اختلاف مراتبهم واتجاهاتهم. فقد روى أبياتاً من الشعر الجاهلي: بعضها من إنشاد كبار شعراء الجاهلية من أصحاب المعلقات، ومن هو في مرتبتهم مثل: امرئ القيس، والأعشى، والحارث بن حلِّزة، وزهير، والنابغة وطرفة ... الخ[1] ولكنه لم يرو لواحد من الشعراء العباسيين. وقد يكون هذا شيئاً طبيعياً؛ فإنَّ النحويين من أمثاله عدُّوا هؤلاء الشعراء مولَّدين، ومنعوا الاستشهاد بأقوالهم، ولم يعترفوا بفصاحتهم التي لا ترقى إلى فصاحة أهل السليقة.

ونستطيع أنْ نُصنِّف بعض الظواهر اللغوية من مسموعات أبي زيد التي عنى بها ورصدها في نوادره على النحو الآتي:-

١- **الإبدال:** ومعناه إبدال حرف مكان حرف.

فقد تتبادل التاء والسين مكانيهما، وأورد أبو زيد قول علباء بن أرقم[2] :

يا قبَّحَ اللهُ بني السَّعْلاتِ عمرَو بنَ يربوعٍ شرارَ النات

غيرَ أعفَّاءٍ ولا أكْيَاتِ.

فقوله (النات) أراد بها (الناس) و (أكيات) أراد بها (أكياس).

وعلَّق أبو الحسن الأخفش بأنَّ هذا من قبيح البدل؛ وإنَّما أبدل التاء من السين لأنَّ في السين صفيراً، فاستثقله، فأبدل منها التاء وهو من قبيح الضرورة.

وروى الأصمعي قال: "أنشدني الخليل بن أحمد قول السمؤأل[3] :

ينفع الطِّيْبُ القليلُ من الرِّزْقِ ولا ينفعُ الكثيرُ الخَبيثُ

ولكلٌ مِنْ رزْقِه ما قضى اللهُ وَلَوْحَكَّ أنْفَهُ المُسْتَمِيْتُ.

فقال لي: ما الخبيث ؟ فقلت : أراد "الخبيث" وهذه لغة لليهود يبدلون من الثاء تاء.

قال: فلم لم يقل الكثير، فلم يكن عندي فيه شيء. ورأينا في المثال السابق بجانب تبادل التاء والسين، تبادل التاء والثاء أيضاً في لغة اليهود.

---

[1] المصدر السابق، ص(١٥٦، ١٨٧، ١٨٨، ٢١٣، ٢٦٥)،(١٧٥، ١٩٥، ٢١٩، ٢٣٥، ٢٥٢، ٥٣٢)،(١٥٤)، (١٤٤)،(٥٣٥)،(١٥٧، ١٦٥، ٢٣٥) .

[2] أبوزيد الأنصاري: النوادر، ص٣٤٥ .

[3] المصدر السابق، ص ٣٤٦ .

٢- **الإضمار**:- والإضمار في التراكيب العربية يُسلّم إلى الإعراب، ويدخل التراكيب في دائرة النوادر، ويتضح لنا ذلك من الأبيات التي أنشدها أبو زيد لرافع بن هريم وتعليقه عليها[١]:

أَلَسْتُمْ أَقلَّ الحيِّ عندَ لوائـهمْ وأكْثرهُمْ عند الغنيمـةِ والقِدْرِ

وأمْشَاهُ بالشيء المحقَّرِ بينهُمْ وألأمَهُمْ عند الجَسِيْم من الأمْرِ.

قوله (وأمشاه) الأصل: (وأمشاهم)، ولكن أضمر (من)، وأراد: أمشى من ثم فحمله على لفظ (من)، ويقال: أعقل الفتيان وأظرفه، أي وأظرف من ثم .

والأصل وأظرفهم، وكذلك قال: (وألأمهم) حمله على الأصل كما قال في البيت الأوّل (وأكثرهم).

٣- **إضافة الشيء إلى نعته**: واستشهد على ذلك بقول الراجز[٢]:

يَحْجُلُ فيها مِقْلَزُ الحَجُولِ بَغْياً على شِقَّيْهِ كالمَشْكُولِ

يَخْطُّ لامَ ألفٍ موصُولِ والزَّايَ والرَّاء أيَّما تَهْلِيلِ.

خطَّ يدِ المستطرق المسؤول

ف (مقلز) و(مقزل) واحد كأنه مقلوب، والقزل أسوأ العرج، ولا وجه لهذه الإضافة عند أهل العربية؛ لأن (المقلز) هو الحجول، ولا يضاف الشيء إلى نعته لأنه هو.

٤- **تقديم بعض الحروف كالهمزة**. فبعض العرب يقدمونها في الكلمات كما في (مسئيا) بدل (مسينا) و (رأني) بدل (رآني)، و (دأعاني) بدل (دعاني)[٣].

٥- **الاختلاف في شكل الكلمات سواءً كانت أفعالاً أم أسماء مثل:-**

"إصْبَع و إصْبُع" لغتان[٤]. و (يُحرق ويحْرِق)[٥] و (إثْرَة وإثْرٌ وأُثْرَة وأُثَرٌ). وأنشد أبو زيد بيت الحطيئة على الوجهين وهما صواب:

مَا آثروك بِهَا إذْ قَدَّمُوكَ لها لكِنْ بِكَ استأثَرُوا إذْ كانت الإثرُ.[٦]

---

[١] المصدر السابق، ص١٨٦، ١٨٧ .

[٢] أبو زيد الأنصاري: النوادر، ص٤٦٣ .

[٣] المصدر السابق، ص ١٢٧ .

[٤] المصدر السابق، ص ٢٥ .

[٥] المصدر السابق، ص ٣١٤ .

[٦] المصدر السابق، ص ٥٥٧ .

٦- ويعني أبو زيد في نوادره باللهجات العربية، ولغات القبائل التي سمعها. فنجده يقول:- تميم تقول: سماءُ البيت، وقيس تقول: هي سماوة البيت[١] . وقال: ينس وييأس، وحسِب يحسب في لغة عُليا مُضر، وسفلاها يقولون: ييأس وحسِب يحسبُ.[٢]

لكن الجدير بالتسجيل أنَّ غالبية اللغات التي سمعها وسجّلها أبو زيد في نوادره لم ينص على نسبتها إلى قبائلها، وقد فوّت علينا فرصة عظيمة عندما لم ينسب بعض الشعر والرجز - الذي في كتابه- إلى قائليه. خاصة إذ تبيّن بالشرح بعد ذلك، أنَّ هذه الشواهد تحتوي على لغات القبائل العربية، فلو عرفنا الشعراء والرجّاز وقبائلهم لأمكننا التعرف على السّمات الأساسية للغات القبائل العربية.

ويمس أبو زيد النحو والصرف مسّاً خفيفاً، فكتابه (النوادر) كتاب لغة، والتركيز مُنصبٌ على اللغة ونوادرها وغريبها، وقد يأتي النحو عرضاً كما أنشد لجرير:

يا تيمَ تيمَ عديٍّ لا أبا لكم لا يَلْقِينكُم في سوءَةٍ عمرُ.[٣]

فجعل الثاني بمنزلة الأوّل كأنه توكيد أو بدل، وقد سمّى سيبويه هذا النوع (باب ما يكرر فيه الاسم في حال الإضافة، ويكون الأوّل بمنزلة الآخر).

---

[١] المصدر السابق، ص ٥٥٧ .

[٢] المصدر السابق، ص ٥٩٦ .

[٣] سيبويه: الكتاب، ج٢ ص ٢٠٥، وأبو زيد الأنصاري: النوادر، ص ٤١١ .

د) الأصمعي أبو سعيد عبدالملك بن قريب (ت ٢١٦هـ-٨٣١م)

ولد الأصمعي سنة (١٢٣هـ-٧٤١م) في مدينة البصرة، وتشير الأخبار إلى أنّه كان مُحباً للعلم منذ نعومة أظفاره، وكان من تلاميذ أبي عمرو بن العلاء، كما أخذ عن خلف الأحمر وروى عنه شعر جرير.[١]

وكان الأصمعي في شبيبته يعيش في فقر مدقع، فأشار محمد بن سليمان على الرشيد أن يجعله مؤدباً لبنيه، ولكنّ إسحق الموصلي طارده من حظوة الرشيد، لمخالفة إسحق إياه بتفضيل أبي نواس.[٢] .. ومع كل الذي قيل عن الأصمعي فقد كان مثال المسلم الواعي الدقيق في درسه، فكان لا ينشد ولا يُفسّر ما فيه ذكر الأنواء، لأنّ رسول الله ﷺ نهى عن ذكرها لتعلقها بأديان الجاهلية.[٣] وتوفي أبو سعيد بمرو سنة (٢١٦هـ-٨٣١م) .

دور الأصمعي في سماع اللغة.

قال القفطي في "إنباه الرواة على أنباه النحاة"[٤] : "كان أبو زيد أعلم من الأصمعي في النحو، وكان أبوعبيدة أعلم من الأصمعي بالأنساب والأخبار، وكان الأصمعي بحراً في اللغة، لا يعرف مثله فيها وفي كثرة الرواية، وكان دون أبي زيد في النحو.[٥]

وقال ابن رشيق القيرواني[٦] "كان الأصمعي يتكلم في ثلث اللغة، لأنّه كان يُضيّق ولا يجيز إلاّ أصحّ اللغات، ويلحّ في دفع ما سواه؛ ذلك أنّ بعض علماء اللغة قد وقفوا عند حدّ السّماع يلتزمون به، ولا يجيزون غير اللغة التي وعتها أسماعهم، وكان على رأس هؤلاء أبو عمرو بن العلاء أستاذ الأصمعي. فقد كان أشدّ تسليماً للعرب وأكثر اطمئناناً إلى القدامى منهم، عبّر عن ذلك الأصمعي فقال: "جلستُ إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج، ما سمعته يحتج ببيت إسلامي ويتردد أمام المحدّثين وإن أُعجب بشعرهم وكان يَعُدّهم مُولّدين بالإضافة إلى القدامى"[٧] .

---

[١] أنظر الشلقاني: الأصمعي اللغوي ص ٢٥-٣٤ .

[٢] بروكمان: تاريخ الأدب العربي ج٢ ص ١٤٧ .

[٣] أنظر المبرد، محمد بن يزيد(ت ٢٥٨هـ-٨٩٨م): الكامل، تحقيق أبي الفضل ورفيقه، مطبعة نهضة مصر-القاهرة ج٤ ص ٦٩، وسيشار اليه فيما بعد بـ(المبرد: الكامل).

[٤] الأنباري: نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص ١٠٠ .

[٥] القفطي: إنباه الرواه، ج٢ ص ٢٠١ .

[٦] القيرواني، الحسن بن علي بن رشيق(٤٥٦هـ-١٠٦٤م): العمدة في صناعة الشعر ونقده، تح. محمد محي الدين عبدالحميد، بيروت /١٩٧٢، ج٢ ص ٥٧، وسيشار إليه فيما بعد بـ(القيرواني: العمدة) .

[٧] الجمحي: طبقات فحول الشعراء، ص ١٥ .

كانت الدراسة اللغوية تجري بأقصى نشاطها عند أصحاب القياس، والأصمعي قانعٌ برأيه، وبالالتزام بالسّماع عن العرب، وكأنه أراد بطالب العلم أن يعرف مفرداتها وصيغها عن طريق السّماع وحده.

وقد عبّر ابن جنيّ في خصائصه عن تفضيل الأصمعي السّماع على غيره. فقال: "وكان أبو عمرو يرى أنّ الأصل في الرواية السّماع عن العرب، ولا ينساق إلى ما ذهب إليه الآخرون من الالتجاء ألى القياس، منذ نادى ابن أبي إسحق الحضرمي، وكذلك كان الأصمعي لا ينشط للمقاييس، ولا لحكاية التعليل، وانّما يتوفّر على ما يروي ويحفظ[1] .

ولهذا هاجم ابن جنيّ طريقة أبي عمرو بن العلاء والأصمعي، واختار لهذا الهجوم حديثاً لأبي عمرو بن العلاء برواية الأصمعي، يقول أبو عمرو: "سمعت رجلاً من اليمن يقول: فلانٌ لغوب، جاءته كتابي فاحتقرها. فقلت له: أتقول: جاءته كتابي ؟ قال: نعم، أليس بصحيفة."[2] وعقّب ابن جني على هذا الخبر بقوله: "أفتراك تريد من أبي عمرو وطبقته، وقد نظروا وتدّربوا، وقاسوا وتصرفوا أن يسمعوا أعرابياً جافياً غفلاً يُعلّل هذا الموضع بهذه العلّة ويحتج لتأنيث المذكر بما ذكره، فلا يهتاجوا لمثله، ولا يسلكوا فيه طريقته فيقولون: فعلوا كذا وكذا، وصنعوا كذا وكذا، وقد شرع لهم العربي ذلك ووقفهم على سَمْتِه وأمّه"[3] .

وتشير الأخبار المبثوثة هنا وهناك في بطون الكتب اللغوية إلى أنّ الأصمعي كان قد أمضى جزءاً كبيراً من وقته في أحضان البادية، يسمع حديث أهلها ويُسَجّله. فقد أورد (معجم الأدباء) الخبر التالي على لسان الأصمعي: "خرجت من مكة فلزمت هذيلاً في البادية، أتعلم كلامها، وآخذ طبعها، وكانت أفصح العرب، فبقيتُ فيهم سبع عشرَة سنة أرحل برحيلهم، وأنزل بنزولهم، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار، وأذكر الأدب والأخبار، وأيام العرب. فمرّ بي رجل من الزبيريّن من بني عمّي، فقال لي:- يا أبا عبدالله، عزّ عليّ ألاّ يكون مع هذه اللغة، وهذه الفصاحة والذكاء فقه.[4] وقال: "أقمتُ في بطون العرب عشرين سنة آخذ أشعارها ولغاتها.."[5]

ويذهب إلى الحجاز يؤدي فريضة الحج، فلا يفوته أن يفيد من رحلته، ولا يكتفي بسماع اللغة والشعر، وإنما يتجاوز هذا إلى معرفة أحوالهم ومعاشهم، وهو يحكي هذا فيقول: "رأيت أعرابيةً ذات جمال تسأل عني، فقلت لها: يا أمة الله، تسألين ولك هذا الجمال؟! قالت: قدرُ الله

---

[1] ابن جني: الخصائص، ج١ ص ٣٦١ .

[2] المصدر السابق، ج١ ص ٢٤٩ .

[3] المصدر السابق، ج١ ص ٢٤٩ .

[4] انظر ياقوت الحموي: معجم الأدباء، دار المأمون، ج١٧ ص ٢٨٦ .

[5] البغدادي: خزانة الأدب، مطبعة السعادة، ١٩٣١م ، ج٢ ص ٦٣ .

فما أصنع؟ قلت: فمن أين معاشكم؟ قالت: هذا الحُجّاج نسقيهم ونغسلُ ثيابهم. قلت: وإذا ذهب الحاج فمن أين؟ فنظرت إليّ وقالت: يا صلْت الجبين، ولو كنا نعيش من حيث نعلم ما عشنا."[1]

كانت رحلات الأصمعي إلى البادية مدرسة أمدّته بمعالم الحياة فيها. فاستعان بذلك على فهم الشعر واللغة، وتصحيح الأخبار، وردّ كل قول إلى قائله استناداً إلى ما عرفه من طبيعة هذه الأماكن، ومن طبائع ساكنيها، أنظره يقول[2] :

قرأت على أبي عمرو بن العلاء شعر المخبّل السعدي، فلما بلغت إلى قصيدته التي أولها ذكر الرباب وذكرها سقم... مرّ فيها، فلما وصل إلى قوله:

وأرى لها داراً بأَغْدِرَ ... ةَ السيدان لم يُدْرس لها رسْمُ.

فقال أبو عمرو بن العلاء: قد رابني هذا، وكيف يكون المخبّل وأغدرة السيدان وراء كاظمة؟!

وهذه ديار بكر بن وائل، ما أرى الشعر إلاّ لطرفة! قال الأصمعي : فلم يزل ذلك في نفسي حتى رأيت أعرابياً، فصيحاً من بكر بن وائل ينشد من هذه القصيدة أبياتاً منها:

وتقولُ عاذلتي وليس لها ... بغدٍ ولا ما بعدَهُ علمُ
إنّ الثراءَ هو الخلودُ وإنّ ... المرء يكرب يومَه العدمُ
ولئن بنيتُ إلى المشقّر في ... هضبٍ تقصُر دون العِصْمُ
لتنقّبن عني المنيّة إنَ ... الله ليس كحكمهِ حكمُ[3]

وسمع أبا عبيدة ينشد هذا البيت وينسبه إلى حاجب بن زرارة.

شتان هذا والعناقُ والنومُ ... والمشربُ الدائمُ في ظلّ الدّوم

فلم يرق له هذا؛ لأن (حاجباً) نجدي، والدوم شجر ينبت بالحجاز. وفسّر الدوّم-بالدائم[4] .

إنّ من يدقّق النظر في مسموعات الأصمعي يجد أنّ هذه المسموعات هي مما استخلصه الأصمعي من شعر العرب، وما سمعه من الأعراب، وكان هذا في مقدمة ما اشتهر به، يثبت ذلك النظر في عناوين الكتب التي وصلتنا منسوبة إليه. فأكبر طائفة منها كانت مصنفات تستهدف جمع اللغة بحسب الموضوعات: ككتاب (خلق الإنسان)، و(الخيل)، و(الوحوش)، و(الإبل) و(الشاة)، و(الأنواء) إلى غير ذلك من الكتب التي رأيناها فيما بعد مدوّنة في مجموعات.

---

[1] ابن عبدربه، احمد بن محمد(ت ٣٢٧هـ-٩٣٨م): العقد الفريد طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠، وأخرى طبعة الاستقامة، ج٣ ص ٢١٠ .

[2] ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١ ص ٢٩٤. والمُخبّل السعدي هو يزيد بن ربيعة بن مالك بن عوف من بني أنف الناقة من تميم، شاعر مخضرم عاش في الجاهلية، والإسلام.

[3] المصدر السابق ج١ ص٢٩٤.

[4] ابن النديم: الفهرس ص٤٢ مطبعة الرحمانية. د.ت

بعد ذلك نرى كتباً عامة يتبين منها أنّ الأصمعي لم يعمل كسامع للغة أو راوٍ وحسب وإنّما استفاد من هذا الذي سمعه ونقله وسجّله فهو بمكانة المصنّف والباحث اللغوي.

ومن هذه الكتب: كتاب (المقصور والممدود)، و(الهمز)، و(المذكر والمؤنث)، و(القلب والإبدال)...الخ

وهناك فائدة أخرى نلمسها ونحن نراجع أو نستعرض ما نسب إلى الأصمعي من مؤلفات، حيث وجدنا الأصمعي يطرق اللغة والغريب كما وردت في نصوص مكتوبة مستقرة في صميم التراث الأدبي للعرب. ومن هذه الكتب: كتاب (معاني الشعر)، و(القصائد الست)، و(الأراجيز).. ثم مجاميع الشعر التي عرفت فيما بعد باسم (الأصمعيات).

نخلص من كل ما تقدم حول دور الرواة في سماع اللغة إلى ما يلي:

أولاً: عندما كان اللغوي العربي يذهب إلى البادية لجمع اللغة إنما كان يسجّل ما يتلفظ به العربي البدوي دون وجود وساطة بينه وبين الذي يسمع حديثه وهذا يعني:

١) أنّ الدور الذي قام به اللغويون الرواة لم يكن سهلاً ويسيراً، فقد بذلوا جهوداً كبيرة في الانتقال من مكان سكنهم إلى الرقعة المكانية المحددة عندهم. حيث تسكن القبائل العربية الفصيحة. وهذا الانتقال لم يتم في ساعة أو يوم، بل أخذ وقتاً طويلاً -امتد سنوات- ابتعد فيه هؤلاء اللغويون عن الأهل والوطن، وصادفوا الكثير من قسوة الحياة، وهذا كله كان دافعه الأول والأخير هو المحافظة على اللغة. وعلينا أن لا نستغرب ذلك لأن ترجمة حياة أولئك الرواة تدلّ على أنهم كانوا من الثقات الذين لم يتعرضوا لغمز غامز. فقد عُرفوا بالتقوى وعرفوا بحبهم للغة. وغيرتهم عليها.

٢) إنّ سماع اللغة من أفواه أصحابها المتكلمين بها أو الناطقين بها يُعدّ في رأيي من أصعب الأمور على الإنسان. والسبب في ذلك -كما أرى- أن اللغة المنطوقة ذات قوانين ونظام معين يراعيها المتكلم بدقة، ويصدر عنها في كلامه، ولكنه لا يشعر بعناء ذلك لانها لا تزيد على عادات اعتادها منذ أن تعلم اللغة من المحيط الذي يعيش فيه. وعمل اللغوي السامع أن يكشف عن تلك القوانين المرعيّة وأن يوضّح القواعد التي يتقيد بها المتكلم الأصيل.

ولا بدّ إزاء هذه المهمّة وهذا الدور المسند إلى اللغوي من أن يكون اللغوي السامع دقيق الملاحظة، ثاقب النظر، متصفاً بالصبر والأناة، حتى ينفذ إلى ما وراء الظواهر الصوتية المنطوقة، ويقف على الحقائق اللغوية الموجودة فيها.

وعلى هذا يكون السَماعُ عملية صعبة جداً؛ لأنه -أي السّماع- مجموعة من الأعمال تبدأ بالتأملات وتنتهي بالكشف عن القواعد، ويقوم بين البدء والانتهاء بالتصنيف والتقسيم والاستقراء.

فالاستقراء الذي كانت ثمرته مجموعة كبيرة من المصنفات التي ما زالت -رغم تقدم الدراسات والعلوم- مرجعاً ومصدراً ينهل منه الدارسون. وهذه المصادر التي جاءت بفعل السماع ورحلات اللغويين تدل -بعد التدقيق في مضمونها- على سلامة الدراسات اللغوية التي قام بها اللغويون، كما تدل على وجه كبير من وجوه الشبه بين مناهج القدامى من اللغويين ومناهج المعاصرين الذين يجدون في اللغة المنطوقة مصدرهم المهم. ويجعلون اللغة المدونة ثانوية أو مساعدة ليس إلاّ.

فالسّماع قام -دون شك- على أكتاف اللغويين الرّحالة الذين طوّفوا في البلاد ما بين شرقها وغربها يسمعون اللغة ويسجلونها بأمانة كما وردت على لسان الناطقين بها.

وعليه نستطيع القول إنّ اللغويين العرب كانوا أسبق من غيرهم في سماع اللغة واستقرائها.. وما الدراسات اللغوية المعاصرة التي نراها تقوم هنا وهناك ما هي إلاّ صدى لتلك الدراسات اللغوية القديمة والتي كان قصبُ السبق فيها للغويين العرب.

ثانيا: إنّني على درجة اليقين أنّ اللغويين العرب الذين مرّ ذكرهم وعلى كواهلهم قام السّماع -قد قاموا برحلات هنا وهناك غايتهم جمع اللغة من أفواه أصحابها الخلّص، ولكنّ الذي استوقفني هو طول تلك الرحلات زمنياً.. فإنّني أرى أنه من غير المعقول أن تستمر الرحلة خمس عشرة سنة أو عشرين سنة كاملة -كما أورد الأصمعي- دون أن يعود إلى الأهل والوطن.. إنّ في هذا الخبر -كما أعتقد- مبالغة كبيرة؛ إذ كيف كان يعيش أهل هذا اللغوي، والطبيعة الإنسانية تفرض على الإنسان السّوي الشوق إلى الأهل والولد.. فإذا لم يكن هذا اللغوي أو ذاك ممن يحرصون على عائلاتهم وُسم بالظلم.. واللغة في ظني لا تؤخذ عمن لا يكون حريصاً على أهله وولده.

ثم أين كانوا يضعون هذا الذي كانوا يسمعونه، ألم يتلف طيلة سنوات السماع التي مكثوها في تلك الديار.. إنّني أحاول أن أرغّب نفسي بمثل هذه الأخبار وأحاول أن أقنعها ولكن بلا فائدة.. ففي السنوات العشرين التي أوردها الأصمعي -اللغوي الثقة، الصادق، غير المطعون بأخلاقه- تتغير أحوال وأحوال، حتى اللغة التي سجّلها أمس تتغير وتتطور اليوم.. فماذا كان يفعل هذا اللغوي حيالها..! .

ثالثاً: إنّ السّماع يُعدّ عملاً عظيماً؛ لأنّ ثمرته كانت مصنفات ومجاميع لغوية ورسائل تعدّ في الوقت الحاضر في ظنّي سجلاً وثائقياً؛ لأنّها تصوّر لنا الحياة اللغوية على حقيقتها كما تصوّر لنا الحياة الاجتماعية.. مع العلم أنّ الدراسات المعاصرة الغربية بالذات ما زالت تقتات وتتطفّل على تلك الدراسات وتلك الجهود.. وهذا مؤشر على صدق تلك الدراسات؛ لأنّها دراسة واقعية سماعية حيّة. ولكن هيهات للغربيين من اللغويين المعاصرين ومن سار في فلكهم من اللغويين العرب أن يعترفوا بهذه الحقيقة الراسخة رسوخ الشمس.

رابعاً: إنّ سماع اللغويين الرواة كان من قبائل عُدّت فصيحة، وكانت ثمار ذلك السماع ما لا يعدّ ولا يحصى من المصنفات.. فماذا لو تجاوز اللغويون الرقعة المكانية المحددة..!! في ظني لجاءنا خير وفير.. ولتجاوزنا الكثير من المسائل المشكلة أو الصعوبات القائمة في قواعد وضوابط لغتنا.

خامساً: ولعلّ سائلاً يسأل: ما الذي دفع اللغويين إلى التمسّك بالسماع والقيام بتلك الرحلات الشاقة والمكوث سنين متواصلة يجمعون اللغة ويسجلونها ويحافظون عليها كل هذه المحافظة؟

(أ) إنّ الإجابة على ذلك لن تكون صعبة. فلعلّ السبب الذي حدا بكثير من قدامى اللغويين كالفراء والاصمعي..الخ إلى التمسك بالسّماع هو تأثرهم بنظرية التوقيف.. التي آمن بها علماء الأصول فضلاً عن -شدة حرصهم على تراثهم الديني والأدبي.[1]

ونظرية التوقيف هي من أكثر النظريات شيوعاً في الأوساط اللغوية، وهي أنّ اللغة (توقيف)، أو كما يعبّر عنه أيضاً: (وحي). ومعنى ذلك أنّها من عند الله تعالى، وليست من وضع البشر. وأكثر الذين ذهبوا إلى هذا الرأي كانوا من أهل السّنّة.

وإنّني إذ أميل إلى هذا الرأي؛ لما فيه من قرب من الفطرة الإنسانية، والأدلة النقلية والعقلية ليست بعيدة عن الواقع، بل هي من صلب الواقع الذي نعيش.. فالرواة اللغويون مسلمون على صلة وثيقة بقرآنهم دستور حياتهم دفعهم إيمانهم العميق بهذا الدستور الخالد إلى الخروج، وجمع اللغة سماعاً ومشافهة قبل أن يطغى اللحن على كل شيء..

ولكن هذا الإيمان بنظرية التوقيف حدّ من التوسع في القياس، ومن ثمّ في اشتقاق الألفاظ وتوليدها.. فإذا دققنا النظر في القياس نرى أنه يدور في إطار السّماع.. ففي الوقت الذي نستطيع فيه أن نصوغ من الناحية النظرية جميع المشتقات القياسية من كل فعل، لا نستطيع في الواقع استعمال كل ما صغنا من الناحية العملية. ولعله لو أطلق لنا القياس في هذا الصدد لا نفتح أمامنا مجال واسع لإغناء اللغة، ولاستطعنا أن نستفيد من هذا المجال في وضع كثير من المصطلحات لكثير من المعاني التي نحن في أمسّ الحاجة إلى ألفاظ تعبّر عنها.

(ب) كما أعتقد أنّ الصراع بين العرب والأعاجم والمخاض الحضاري، وتصادم شعبين، والتقاء حضارتين أمور كانت وراء فكرة القداسة التي خلعها اللغويون القدامى على المادة المسموعة.. ومن ثمّ نظروا إليها نظرة تقديس. حتى قيل أنّ الأعاجم كانوا أكثر حرصاً على عربية معينة، يتعامل بها بعض قبائل البادية، واعتزوا بها، وأنزلوها منزلة سامية[2].

---

[1] أنظر ابن جني: الخصائص ج١ ص٤٧.

[2] أنظر، طحان، ريمون وزميله: فنون التقعيد وعلوم الألسنية، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة/١٩٨٥م ص١٩.

ولهذا نجد العرب في الجاهلية، وفي الإسلام يحرصون على إرسال أبنائهم إلى البادية وإلى قبائل معيّنة بسبب نظرتهم أولاً إلى هذه القبيلة القوية ذات النفوذ، وبسبب نظرتهم ثانياً إلى أنّ هذه اللغة هي الكنز الذي عزّ نظيره.

أمّا السبب الذي دفع اللغويين إلى القيام بتلك الرحلات لسماع اللغة وتسجليها فهو تأثرهم بعلماء رجال الحديث. فقد رأى اللغويون "أنّ أهل الحديث يرحلون في طلب الأثر، ويقطعون ظهور الإبل إلى المرامي البعيدة، وإلى كل شرق وصقع يعلمون أنّ فيه من مصادر الحديث أحداً[1] . فرحلوا إلى البادية وهي مصدر اللغة يطلبون الأعراب، ويأخذون عن القبائل التي بعُدت عن الأطراف" [2] .

وقد أكّدَ أحمد أمين اقتداء أهل اللغة بأهل الحديث في أصل التفكير في جمع اللغة فقال: "كما اتجه المحدّثون إلى الحديث يجمعونه، والفقهاء إلى الحديث، وفتاوى الصحابة والتابعين يدونونها، اتّجه قوم إلى اللغة.. يجمعونها. وكانت مهمّتهم جمع الكلمات التي نطق بها العرب، وتحديد معانيها. فرحل العلماء إلى البادية بمدادهم وصحفهم يسمعون ويكتبون"[3]

---

[1] الرافعي ، مصطفى صادق: تاريخ آداب العرب، محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة/ ط٣. (١٣٧٣هـ-١٩٥٣م)، ج١ ص ٣٤٢-٣٤٣، وسيشار إليه فيما بعد بـ (الرافعي: تاريخ آداب العرب).

[2] المصدر نفسه، ج١ ص٣٤٣.

[3] أمين، أحمد: ضحى الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ط/١٩٦٤، ج٢ ص ٢٥، وسيشار إليه فيما بعد بـ (أمين: ضحى الإسلام).

الفصل الثاني

وثيقة أبي نصر الفارابي في السّماع اللغوي

أولاً: تحقيق شخصية أبي نصر صاحب كتاب "الألفاظ والحروف"

١ - تحقيق شخصية أبي نصر.

٢ - حقيقة كتاب "الألفاظ والحروف".

ثانياً: مضمون الوثيقة.

١ - نص الوثيقة

٢ - فصاحة قريش.

٣ - القبائل التي سمعت منها اللغة.

٤ - القبائل التي لم تسمع منها اللغة.

ثالثاً: أثر الوثيقة في علماء العربية

أولاً: تحقيق شخصية أبي نصر صاحب كتاب "الألفاظ والحروف".

١) تحقيق شخصية أبي نصر.

تُعَدّ شخصية أبي نصر الفارابي واحدة من الشخصيات التي أثارت انتباه العلماء القدامى والمحدثين، وأدت إلى وقوعهم في خلط كبير. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنّ هناك ثلاثةً من العلماء المشهورين، عُرف كل واحدٍ منهم بكنية "أبي نصر"، ونسب إلى "فاراب" . وهؤلاء العلماء هم:

- أبو نصر، محمد بن محمد بن طرخان الفارابي الفيلسوف.
- أبو نصر، إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، "صاحب الصحاح".
- أبو إبراهيم، إسحق بن إبراهيم الفارابي صاحب "ديوان الأدب".

وقد ورد ذكر هؤلاء جميعاً في (معجم البلدان) أثناء الحديث عن "فاراب" حيث قال: "...وخرج منها جماعة من الفضلاء منهم: "إسماعيل بن حمّاد الجوهري، مصنّف "الصحاح في اللغة"، وخاله أبو إبراهيم اسحق بن إبراهيم صاحب ديوان "الأدب في اللغة" وغيرهما. وإليها يُنْسب أبو نصر محمد بن محمد الفارابي الفيلسوف صاحب التصانيف في فنون الفلسفة..."(١) ولعلّ الذي أوقع الباحثين في عدم معرفة صاحب الوثيقة الحقيقي هو المعلومات الواردة عنهم، والتي تدور حول زمن ولادتهم، ووفاتهم من جهة، وتشابههم في النسب والكنية من جهة ثانية: فالفيلسوف مجهول تاريخ الولادة، ولكن وفاته كانت سنة (٣٣٩هـ-٩٥٠م)، كما ذكر المسعودي (ت ٣٤٥هـ-٩٥٦م)(٢) والذي يُعدّ أول من ترجم له وذكر تاريخ وفاته.

أما صاحب ديوان الأدب فلا يعرف تاريخ وفاته على وجه الدّقة. فمن قائل أنّه توفي سنة (٣٥٠هـ-٩٦١م) (٣) وآخر سنة (٣٩٨هـ-١٠٠٧م)(٤)، وهذا هو نفسه تاريخ وفاة الجوهري صاحب الصحاح؛ إذ توفي سنة (٣٩٨هـ-١٠٠٧م) (٥) فلو صدق أنّ الجوهري، وأبا إبراهيم توفيا في العام نفسه لكان ذلك جديراً بالذكر من معاصريهم من المؤلفين على الأقل.

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، باب الفاء.

(٢) المسعودي، أبو الحسن بن الحسين بن علي (ت٣٤٦هـ-٩٥٧م): التنبيه والإشراف، طبعة مصر ١٩٣٨م ص١٠٦ حيث قال: كانت وفاته -أي الفارابي- بدمشق، في رجب سنة ٣٣٩هـ.

(٣) أنظر الفارابي، أبو إبراهيم إسحق بن إبراهيم (ت٣٥٠هـ-٩٦١م): ديوان الأدب، تحقيق أحمد مختار عمر ومراجعة إبراهيم أنيس، القاهرة ١٩٧٤ ص ٣-٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٣.

(٥) عطار، أحمد عبدالغفور: مقدمة الصحاح، دار العلم للملايين، بيروت ط٢/ ١٩٧٩م ص١١٠.

والغموض الثاني في سيرة هؤلاء الفارابيين يأتي من جهة الكنية والنسب، فقد وردت كنية "أبو نصر" لكل من الفيلسوف، والجوهري(١) وصاحب ديوان الأدب(٢).

والغموض الثالث يأتي من نسبة كتاب "الألفاظ والحروف" إلى غير من عُرف بـه. فقد نسبه من المحدثين د.صبحي الصالح إلى الجوهري بدلاً من الفيلسوف؛ حيث قال أثناء الحديث عن الجوهري "..هو اللغوي المشهور، صاحب الصحاح، المطبوع في أربع مجلدات، واسمه اسماعيل بن حمّاد المعروف بالجوهري، أصله من (فاراب) وإليها ينسب فيقال: "الفارابي" وله كتاب في العروض و"مقدمة في النحو"، ونقل السيوطي من كتابه (الألفاظ والحروف) في "المزهر" و "الاقتراح."(٣).

وأمام هذا التشابه في الكنية والنسب، وقلّة المعلومات الدقيقة عنهم كان لا بدّ من الوقوف على ترجمة لعلها تساعد في الكشف عن شخصية صاحب الوثيقة.

(أ) أبو نصر، إسماعيل بن حمّاد الجوهري صاحب الصحاح: كان من أعاجيب الزمان ذكاءً وفطنة، وأهله من بلاد الترك من "فاراب"، وهو أمام في علم اللغة والأدب. درس على يد شيخين عظيمين هما: أبو علي الفارسي (ت ٣٥٦هـ-٩٦٧م)، وأبو سعيد السيرافي (ت ٣٦٨هـ-٩٧٨م). وقد كان إماماً في لغة العرب، ومن فرسان الكلام في الأصول. دخل العراق، وسافر إلى أرض الحجاز، واقتبس من علماء الشام، وله من المؤلفات "كتاب الصحاح" وكتاب "عروض الورقة" وكتاب "المقدمة في النحو" ويذكر الجوهري في "مقدمة صحاحه"، أنه جعل معجمه في (٢٨ باباً)، في كل باب (٢٨فصلاً) على عدد حروف المعجم، وترتيبها بعد تحصيلها بالعراق رواية وإتقانها دراية، بعد مشافهة العرب العاربة في (ديارهم البادية).(٤)

(ب) الفارابي الفيلسوف، محمد بن محمد بن طرخان، فهو يكنّى بأبي نصر، واشتهر بمؤلفاته التي تدور في مجال الفلسفة والمنطق. ولكن لم يصل إلينا ما يوحي بأنّه عالم لغوي مختص بلغات القبائل العربية. وقد وصل إلى بغداد ما بين (٣٠٦هـ-٣٠٨هـ)-(٩١٨م-٩٢٠م) وكان عمره حوالي (٥٠عاماً). درس الفلسفة على يد يوحنا بن جيلان، وهذا يعني أنّه قضى في بغداد ما لا يقل عن ثلاثين عاماً. وقد ذكر بعض مترجميه أبياتاً من الشعر له، إلاّ أن بعضهم نسبها

---

(١) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ-١٣٦٢م): الوافي بالوفيات، باعتناء يوسف فان ط٢/١٩٨٢. ج٢ ص١١١.

(٢) الأنباري: نزهة الألباء ٢٥٢الحاشية.

(٣) الصالح: دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦،١٩٧٦م-الحاشية ص١١٢.

(٤) أنظر: عطار: مقدمة الصحاح، ص١٠٨،١٠٩.

لغيره(١) ولكن الغريب أن نجد د.أحمد مختار عمر ينسب كتاب "ديوان الأدب" إلى الفارابي الفيلسوف.(٢).

(ج) أبو إبراهيم، إسحق بن إبراهيم، الفارابي صاحب "ديوان الأدب"، والذي يكنّى بـ "أبي إبراهيم". وقد أورد (الأنباري) في "نزهة الألباء" أنّ كنية (أبي إبراهيم) هي "أبو نصر"(٣). وقد انتقل إلى اليمن، وأقام (بزبيد)، وحذق العربية، وهو أديب، ألّف كتاباً مهماً في اللغة العربية سماه "ديوان الأدب". وهو كما وصفه صاحبه، "ميزان اللغة ومعيار الكلام"(٤).

مما سبق نلحظ أنّ العلماء الثلاثة نسبوا إلى فاراب وأنّ الثلاثة أيضاً كنُّوا "بأبي نصر" كما نلحظ غموضاً في نسبة "كتاب الالفاظ والحروف"، وكذلك نجد انّ احتمال علاقة الجوهري وصاحب ديوان "الأدب بالألفاظ والحروف" أكبر من الفيلسوف.

ومن هنا وأمام هذا التمازج الغريب والتداخل بين هؤلاء الفارابيين الثلاثة، وأمام هذه المعلومات التي توفّرت بين أيدينا، فإنّنا نقف أمام احتمالين: إما أن يكون الفارابي اللغوي صاحب ديوان الأدب هو مؤلف هذا الكتاب، ويكون عندها أبو حيان الأندلسي والسيوطي قد أخطآا في كنيته، وإمّا ان يكون مؤلفه فارابياً آخر يكنّى بأبي نصر.

ولعلّ الذي دفعني إلى استبعاد الفيلسوف من نسبة الكتاب إليه هو طبيعة الفيلسوف الذي يمضي حياته متأملاً وعلاقته الكبيرة بالمنطق والفلسفة. أمّا الموضوع الآخر الذي دفعني إلى استبعاده هو أنّ أوّل من ترجم لحياة الفيلسوف كان المسعودي (ت٣٤٥هـ-٩٥٦م) الذي لم يتطرق لذكر مصنفاته،(٥) ثم جاء بعده ابن حوقل (ت٣٦٧هـ-٩٧٧م) (٦) ولم يشر إلى مؤلفاته. وبعدهما جاء ابن النديم (ت٣٨٥هـ-٩٩٥م) (٧) حيث كان أول من ذكر مصنفاته، ولم يكن (الألفاظ والحروف) من بينها.

---

(١) أنظر الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١ ص ١٠٦،١١٣.

(٢) أنظر عمر، أحمد مختار: الفارابي الفيلسوف واضع أول معجم جامع لديوان الأدب العربي: مقال في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد السابع ١٩٦١، ص ١١١-١١٦.

(٣) الأنباري: نزهة الألباء، ص٢٥٢. الحاشية.

(٤) أنظر عمر، أحمد مختار: ديوان الأدب: مقدمته (٣-٥). وكذلك أنظر الفارابي والحضارة الإنسانية، مطابع دار الحرية، بغداد (١٩٧٥-١٩٧٦م)، وزارة الإعلام، العراق، ص ٤٦٢.

(٥) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ١٢١.

(٦) ابن حوقل، أبو القاسم، محمد بن حوقل (ت٣٦٧هـ-٩٧٧م): صورة الأرض، دار مكتبة الحياة-بيروت ص١٢٠، وسيشار إليه فيما بعد بـ (ابن حوقل: صورة الأرض).

(٧) ابن النديم: الفهرست، ص٣٦٨.

أمّا أوّل من ذكر الكتاب ونسبه للفيلسوف فقد كان ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ-١٢٦٩م) (١) ثم صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ-١٣٦٢م).(٢) غير أنا نلحظ الفارق الزمني بين تأليف الكتاب ووجوده من مصنفات الفيلسوف. فهناك فترة لا تقلّ عن ثلاثمائة سنة على أقل تقدير. من هنا أرى أنّ نسبة "الألفاظ والحروف" إلى الفيلسوف قليلة.

أمّا الفارابي الذي يكنّى "بابي نصر" وهو "الجوهري" فنلحظ من خلال ترجمة حياته أنّه ذكي فطن، ومن أعاجيب الزمان، وقد تلقّى الكلام من أفواه العرب العاربة بالرواية، وهذا يُقوّي علاقة هذا الفارابي بالوثيقة، ولكن الذي يجعلنا نتراجع عن رأينا أن الجوهري قد عُرف من خلال مؤلفاته "بالجوهري".

ولم يبق أمامنا سوى الفارابي اللغوي المكنّى بأبي إبراهيم صاحب ديوان الأدب. فهذا العالم معروف بأنّه لغوي، وقد حذق العربية في زبيد باليمن قبل مجيئه العراق. ولكن الذي يقف في طريق نسبة الكتاب إليه هو كنيته الأكثر شهرة وهي "أبو إبراهيم" بينما تنسب الوثيقة إلى "أبي نصر".ولكن علينا أن نلحظ ما ذكره الأنباري في (نزهة الألباء) عن أبي إبراهيم أنه (أبو نصر)، فلو أخذنا بهذا القول ونحن على جانب كبير من الحذر، فيكون للفارابي اللغوي حظ كبير من نسبة الكتاب إليه، ولكنّا لا نجزم ولن نجزم بنسبة الكتاب إليه.

٣) حقيقة كتاب "الألفاظ والحروف".

أشار العلماء الذين أوردوا نص وثيقة الفارابي إلى أنّ الوثيقة قد وردت في كتاب "الألفاظ والحروف". وعلى وجه الدقة في أوّله -أي وردت الوثيقة في أوّل كتاب (الألفاظ والحروف). فقد قال أبو حيان(٣): وُجد بخط أبي نصر محمد بن محمد الفارابي كتاب صنعه، وسماه "الألفاظ والحروف". وكان أوّله: "كانت قريش أجود العرب انتقاءً للافصح من الألفاظ.." وقال السيوطي أثناء حديثه عما يحتج به من كلام العرب: قال ابو نصر الفارابي في أوّل كتابه المسمى "الألفاظ والحروف": كانت قريش...(٤).

وبعد البحث في المصادر التي وصلت إلينا وجدت كتابين: "الأول موسوم بـ "الألفاظ المستعملة في المنطق" والثاني: كتاب (الحروف). فأما الأول (الألفاظ..) فقد ذكره القفطي في

---

(١) أنظر ابن أبي اصيبعة: أبو العباس أحمد بن القاسم (ت٦٦٨هـ-١٢٦٩م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الفكر-بيروت ج٣ ص٢٢٣-٢٣٣. وسيشار إليه فيما بعد بـ(ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء).

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ج١ ص ١٠٩.

(٣) أنظر أبو حيان الأندلسي: محمد بن يوسف الغرناطي (ت٧٤٥هـ-١٣٤٤م): تذكرة النحاة، تحقيق د. عفيف عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة، ط١/١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص٥٧٣،٥٧٤ وسيشار إليه فيما بعد بـ (أبو حيان الأندلسي: تذكرة النحاة).

(٤) أنظر السيوطي الاقتراح ص٤٤، والمزهر ج١ ص ٢١١.

(أخبار الحكماء)(١) وابن أبي أصيبعة في كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء)(٢) وأمّا الكتاب الثاني "الحروف" فقد ذكره صاحب كتاب "إخبار العلماء بأخبار الحكماء"(٣) والكتابان موجودان في المكتبة العربية. أما ما يسمى بـ "كتاب الألفاظ والحروف" فهو غير موجود البتة.. وهذا مؤثر على انّ الذين نقلوا نص الوثيقة أخطأوا، أو أنّ الكتاب قد ضاع أو وصلت إليه يد العابثين.

ولا بدّ من الإشارة في هذا الموطن إلى انّ كتاب "الحروف" قد صدر عن دار المشرق في مطلع عام ١٩٦٦م. بتحقيق الدكتور محسن مهدي أستاذ الدراسات العربية في جامعة (هارفرد) في ذلك الوقت، وهو كتاب وصفه محققه بأنه "من أكبر المصنفات لأبي نصر.. وأعظمها غناءً للمهتمين بدراسة الفكر العربي عامّة، والفلسفة الإسلامية وفقه اللغة العربية خاصة".(٤) وكان الدكتور محسن مهدي قد قام بتحقيق كتاب "الألفاظ" المنسوب إلى أبي نصر، ونشره سنة ١٩٦٨م. وهذان الكتابان يؤلفان معاً في مفهومنا وحدة فلسفية متكاملة، ويتناولان موضوعات متقاربة تبرّر ما عمد إليه بعض المؤرخين كابن أبي أصيبعة من إدراجهما في مصنّفٍ واحد هو كتاب "الألفاظ والحروف" ومع أنّ بينهما اختلافاً في المادة فإنهما متفقان في الغرض وهو شرح الألفاظ المستعملة في المنطق من جهة، وفي "ما بعد الطبيعة" من جهة ثانية. وهذا وحده كافٍ للجمع بينهما.

وقد أشار د.مهدي إلى هذا التقارب بقوله: "إنّ المواضيع التي يبحث فيها الكتابان تُلخّص عادة في كتاب "الألفاظ" وتشرح في كتاب "الحروف"(٥) وهو قول يؤيد وجود صلة بين الكتابين. ولا يؤيد ما حاول الدكتور مهدي إثباته من أنّ كتاب "الحروف" تفسير لكتاب "ما بعد الطبيعة" لأرسطو طاليس."(٦) ولعل السبب في ذلك هو خلو كتاب "الحروف" من المباحث التي ظهرت في كتاب أرسطو "ما بعد الطبيعة".

ولقد اشتمل كتاب (الحروف) على موضوعات عديدة، لعل من أطرفها فصل عنوانه(٧) : "حدوث الألفاظ والفلسفة والملّة" وفصل آخر عنوانه: "حدوث حروف الأمة"(٨) عمد فيه إلى

---

(١) أنظر القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة القاهرة/١٣٢٦هـ، ص١٨٢-١٨٤.

(٢) أنظر ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء ج٣ ص٢٢٣-٢٣٣.

(٣) أنظر القفطي: إخبار العلماء، ص١٨٢-١٨٤.

(٤) أبو نصر الفارابي، محمد بن محمد بن طرخان الفيلسوف (ت٣٣٩هـ-١٩٥١م) الحروف، تحقيق مهدي مُحسن، دار المشرق، بيروت. ١٩٧٠. ص٢٧، وسيشار إليه فيما بعد (أبو نصر الفارابي: الحروف).

(٥) أنظر أبو نصر الفارابي: الحروف ص٣٥.

(٦) المصدر السابق، ص٢٧.

(٧) أنظر المصدر السابق، ص ١٣١-١٣٤.

(٨) أنظر المصدر السابق، ص١٣٤-١٣٧.

عرض تاريخي لظهور العلوم الفلسفية، وما يلحق بها من جهة، ولتطور المصطلحات المستعملة في هذه العلوم عند مختلف الأمم من جهة ثانية. والنتيجة التي ينتهي إليها في الباب الأول هي أن السفسطة أو (الفلسفة المموهة) -كما يدعوها هنا- وفي "إحصاء العلوم" قد سبقت الفلسفة البرهانية في ظهورها، وعلوم الملّة بما فيها الفقه والكلام قد تأخرت عنها.

أمّا في الباب الثاني(١)، فيذهب الفارابي إلى انّ اللغة إنّما تبدأ بالإشارة التي يليها التصويت. فالاصطلاح أو التواضع على إطلاق ألفاظ بعينها، ابتداءً بالمحسوس، وانتهاء بالمعقول. ويتطرق عن ذلك إلى حدوث الصنائع العامّية". وكيف تحدث "الصنائع القياسية" كالخطابة والشعر لقربهما إلى طبائع الأمم البدائية، ثم علوم اللسان، فعلوم التعاليم فعلم الطبيعة فالعلوم المدنية فعلوم الملّة التي يضبطها جميعاً علم المنطق. وعلى الرغم من سكوته عن ظهور علم ما وراء الطبيعة، فتدل القرائن المتعددة على أنّه يعتبر ظهور هذا العلم لاحقاً لظهور علم الرياضيات وعلم الطبيعة، على غرار أرسطو.

وتأتي أهمية كتاب "الحروف" من كونه يُعدّ من أكبر مصنفات أبي نصر الفارابي، وأعظمها غناءً للمهتمين بدراسة الفكر العربي عامة والفلسفة الإسلامية خاصّة. كتبه إمام المنطقيين في عصر بلغ فيه الفكر العربي أوجه في تفهم أمور العلم واللغة، وضرورة التعبير الصحيح عن ما ينظر إليه الإنسان فيه ويعقله. فلا يستغني عن قراءته من يشتغل في تاريخ الفلسفة واللغة.

وتأتي أهميته كذلك من الشروح الوافية لمعاني المصطلح العلمي الفلسفي في العربية ولغات أخرى غير العربية، والتعريف بما عمله المترجمون عند نقلهم هذا المصطلح من اليونانية والسريانية؛ وتفسير المعاني العامّية وصلتها بالمعاني العلمية، ثم البحث في أصل اللغة واكتمالها وعلاقتها بالفلسفة والملّة.

ومع ذلك فموضوع الكتاب ليس اللغة والمصطلح العلمي وحسب، فالكتاب -كما يقول محقق الكتاب- تفسير لكتاب "ما بعد الطبيعة" المنسوب لأرسطو طاليس.

وقد سمّى الفارابي كتابه "الحروف" لأنه قائم على الحروف؛ حيث يتحدث عن طبائعها وخواصّها التي انتشرت في القرنين الثالث والرابع من الهجرة (وهو عصر جابر بن حيان وإخوان الصفا). والحروف تُعدّ من أقسام القول والألفاظ، وهي التي يسميها نحويّو اليونان (الأدوات)، ونحويّو العرب "حروف المعاني" أو "الحروف التي وضعت للدلالة على معنى".(٢) فسيبويه مثلاً يقول في باب علم "ما الكلم في العربية" فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل...(٣) وأما ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل فنحو ثمّ، وسوف، "وواو القسم" ولام

---

(١) المصدر السابق، ص١١٦.

(٢) أبو نصر الفارابي: الحروف، ص٤٣ س٩.

(٣) سيبويه: الكتاب ج١ ص ١٢.

الإضافة ونحو هذا. والفارابي يقبل هذه القسمة وإن اختلفت الأسماء عنده. فما يسميه سيبويه (الكلم) يسميه الفارابي "الألفاظ الدالة". وما يسميه سيبويه ونحويّو العرب (الأفعال) يسميه الفارابي (الكلم). أمّا "الاسم" و "الحرف" فتتفق فيهما التسمية عند سيبويه والفارابي(١)، ومحتويات كتاب "الحروف" تبيّن أنه يبحث أكثر ما يبحث في الحروف بهذا المعنى، وأنّ الأمور الأخرى التي يبحث فيها لواحقِ وأشياء لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بهذه الحروف.

ونظراً لأهمية الفقرات الآتية فإنني سأنقلها هنا كما وردت في كتاب (الحروف): "ولما كان سكان البَرِيَّة في بيوت الشعر أو الصوف والخيام والأُحْبِية من كل أمة أجفى وأبعد من أن يُتْرَكوا ما قد تمكن بالعادة فيهم، وأحرىأن يُحصنُوا نفوسهم عن تخيُّل حروف سائر الأمم وألفاظهم وألسنتهم عن النطق بها وأحرى بهم ألا يخالطهم غيرهم من الأمم للتوحش والجفاء الذي فيهم. وكان سكان المدن وبيوت المدر منهم أطبع وكانت نفوسهم أشدّ انقياداً لتفهّم ما لم يتعودوه، ولتصوره وتخيّله وألسنتهم للنطق بما لم يتعودوه، كان الأفضل أنْ تؤخذ لغات الأمة عن سكان البراري منهم متى كانت الأمم فيهم هاتان الطائفتان. ويُتحرّى منهم من كان في أوسط بلادهم. فإنّ من كان في الأطراف منهم أحرى أنْ يخالطوا مجاوريهم من الأمم، فتختلط لغاتهم بلغات أولئك. وأن يتخيّلوا عجمة من يجاورهم فإنهم اذا عاملوهم احتاج أولئك أن يتكلموا لغة عُرِيّة عن ألسنتهم، فلا تطاوعهم على كثير من حروف هؤلاء فيلتجئوا إلى أنْ يُعبّروا بما يتأتى لهم ويتركوا ما يعسر عليهم. فتكون الفاظهم عسيرة قبيحة، وتوجد فيها لكنة وعجمة مأخوذة من لغات أولئك. فإذا كثر سماع هؤلاء ممن جاورهم من هذه الأمم للخطأ وتعوّدوا أن يفهموه على انّه من الصواب لم يُؤمن تغيّر عادتهم، فلذلك ليس ينبغي أن تؤخذ عنهم اللغة، ومن لم يكن فيهم سكان البراري أخذت عن أوسطهم مسكناً.

ويتابع الفارابي حديثه في كتاب (الحروف): "..وأنت تتبين ذلك متى تأمّلت أمر العرب في هذه الأشياء فإنّ فيهم سكان البراري وفيهم سكان الأمصار، وأكثر ما تشاغلوا بذلك من سنة تسعين إلى سنة مائتين. وكان الذي تولى ذلك من بين أمصارهم أهل البصرة والكوفة، والبصرة من أهل العراق. فتعلّموا لغتهم والفصيح منها من سكان البراري منهم دون أهل الحضر. ثم من سكان البراري من كان في أوسط بلادهم ومن أشدّهم توحشاً وجفاءً وأبعدهم إذعاناً وانقياداً وهم: "قيس، وتميم و أسد، وطيء ثم هذيل. **فإنّ هؤلاء هم معظم من نُقل عنه لسان العرب، والباقون فلم يُؤخذ عنهم شيء، لأنهم كانوا في أطراف بلادهم، مخالطين لغيرهم من الأمم مطبوعين على**

---

(١) أنظر ابو نصر الفارابي: الألفاظ المستعملة في المنطق، تحقيق محسن مهدي، ص٤١-٤٢، وسيشار إليه فيما بعد بـ (أبو نصر الفارابي: الالفاظ).

سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة والهند والفرس والسريانيين وأهل الشام وأهل مصر.."(١).

إنّني اعتقد أنّ هذا النص المأخوذ من كتاب (الحروف) يمثل روح الوثيقة، فالفارابي يشير في هذا النص إلى أنّ سكان البرّية (الذين يعيشون في البرّ منقطعين عن الحضارة) أكثر توحشاً وجفاءً من غيرهم، وأنّ اللغة يجب أن تؤخذ عنهم. إضافة إلى أنّ ألسنة سكان المدن أكثر انقياداً وتأثراً بما حولهم.

والأمر المهم في هذه الوثيقة هو الإشارة الواضحة إلى القبائل التي تؤخذ عنها اللغة وهي: قيس، وتميم و أسد، وطيء وهذيل. أمّا القبائل التي لم تؤخذ عنها اللغة فهي الواقعة على الأطراف المخالطين لغيرهم.

كما نلحظ إشارة واضحة إلى أهل البصرة والكوفة الذين قاموا بنقل اللغة ووضعوها في كتاب وصيّروها علماً.

فإذا دققنا النظر في هذه الوثيقة نجد أنّ واضعها قد استبعد قبيلة كنانة من بين القبائل التي لم تؤخذ عنها اللغة، وأنّ اللغة تؤخذ عن كل قبيلة طيء وليس عن جزء منها كما ورد في الوثيقة التي نقلها أبو حيان الأندلسي عن الفارابي.

لكنّ الوثيقة أشارت إلى الأجناس غير العربية التي تحيط بأطراف شبه جزيرة العرب كالأحباش، والهنود، والفرس والسريان وأهل الشام وأهل مصر ولم تشر إلى القبائل العربية التي تقع على الأطراف وكانت مجاورة لتلك الأمم.

ولكن إذا سلّمنا جدلاً أنّ هذه هي الوثيقة التي نقل منها أبو حيان، والسيوطي فيبقى موقع الوثيقة، إذ أشار أبو حيان إلى أنّها في أول كتاب "الألفاظ والحروف" وليست هنا كما قيل.. بل هي تقترب من نهاية الكتاب.

إذن يبقى الشك قائماً حول حقيقة هذه الوثيقة، ولعل الأيام تكشف حقيقتها فيزول الشك وتثبت الحقيقة.

---

(١) أبو نصر الفارابي: الحروف، ص١٤٦،١٤٧.

ثانياً: مضمون الوثيقة.

لن نستطيع أنْ نتعرف على مضمون الوثيقة ما لم نقف على النص الكامل لها.. ولهذا وجدت أنّه قبل بدء الحديث عن الوثيقة وتحليل مضمونها، يجدر بنا أن نقف على الوثيقة حتى نعود إليها كلما وجدنا ذلك لازماً.

١) نص الوثيقة.

قال أبو نصر الفارابي(١): كانت قريش أجودَ العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانةً عما في النفس، والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : "**قيس، وتميم و أسد، فإنّ هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ، ومعظمه، وعليهم أتكل في الغريب، وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة، وبعض الطائيين**".

ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فإنّه **لم يؤخذ عن حضري قط، ولا من سكان البراري**، ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم. فإنّه لم **يؤخذ لا من لخم، ولا من جذام، ولا من مصر والقبط، ولا من قضاعة، ولا من غسان، ولا من إياد**. فإنّ هؤلاء كانوا مجاورين لأهل الشام ومخالطين لهم، وكان أكثرهم نصارى يقرأون في صلواتهم بغير العربية. **ولا من تغلب والنمر**، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية، وكانوا أيضاً نصارى، **ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس، ومخالطين لهم. ولا من عبد القيس**؛ لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند والفرس، **ولا من أزد عُمان** لمخالطتهم للفرس بعد أنْ لحق هؤلاء أنهم فيهم، **ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وسكان الطائف** لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم. **ولا من حاضرة الحجاز**؛ لأنّ الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم، وفسدت ألسنتهم. والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء، واثبتها في كتاب وصيّرها علماً وصناعة هم أهل الكوفة والبصرة فقط بين أمصار العرب. وكانت صنائع هؤلاء التي بها يعيشون الرعاية والصيد واللصوصية، وكانوا أقواهم نفوساً وأقساهم قلوباً، وأشدهم توحشاً وسبعية، وأمنعهم جانباً، وأشدهم حميَّة وأحبَهم لأن يَغلبوا، وأن لا يُغلبوا، وأعسرهم انقياداً للملوك، وأجفاهم أخلاقاً وأقلّهم احتمالاً للضيم والذلّة"

---

(١) ابو حيان الأندلسي: تذكرة النحاة، ص ٥٧٤، ٥٧٥. وكذلك السيوطي: المزهر ص ٢١١ والإقتراح ص٤٤، ٤٥.

٢) فصاحة قريش.

يحسُن بنا ونحن نقف عند فصاحة قريش أنْ نتعرف على مفهوم الفصاحة لغةً واصطلاحاً؛ حتى نحاول أن نعرف أين تقف قريش من هذا المفهوم. فقد ذهب ابن فارس(١) (ت ٣٩٥هـ-١٠٠٥م) إلى أنّ "الفاء والصاد والحاء" أصل يدلّ على خلوصٍ في الشيء، ونقاء من الشوب ثم استخدمت الكلمة لتدل على اللسان فقيل:- أفصحَ الرجل إذا تكلم بالعربيّة.

وهذا يدلّ دلالة واضحة على أن الفصاحة هي خلوص عربيّة المتكلم من الخطأ واللحن والعجمة وغيرها مما قد يشوبها أو يشينها، بالإضافة إلى طلاقة اللسان وسلامة النطق. وقيل أيضاً: فصُح بمعنى جادت لغته حتى لا يلحن(٢) وفي هذا دلالة أخرى على جودة كلام المرء لما تقتضيه من خلوص ونقاء...

فإذا انتقلنا إلى المعنى الاصطلاحي نجد هذا المعنى يتعلق بالإبانة والوضوح والظهور. ولتحقيق الوضوح اشترط خلوص المفردة من تنافر الحروف، ومخالفة القياس الصّرفي، ومن الغرابة، كما اشترط خلوص الكلام من ذلك، ومن مخالفة القواعد النحوية المستقرة، ومن التعقيد اللفظي والمعنوي...(٣) .

والسؤال هنا هل كانت قريش فصيحة، وهل هي أفصح القبائل العربية؟ وللإجابة على ذلك لا بدّ من استعراض الأقوال التي أشارت إلى ذلك. فقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "أنا افصح العرب بيد أنّي من قريش وأنّي نشأت في بني سعد بن بكر."(٤) وقال ابن فارس في (فقه اللغة) تحت باب القول في أفصح العرب: أخبرني أبو الحسن أحمد بن محمد مولى بني هاشم بقزوين، قال: حدّثنا أبو الحسن المشكي، قال: وأيامهم ومجالسهم أنّ قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغةً؛ وذلك أنّ الله اختارهم من جميع العرب، واختار منهم محمداً -صلى الله عليه وسلم-.(٥) .

وكانت قريش مع فصاحتها وحُسن لغاتها ورقة ألسنتها. إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى

---

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٠-١٠٠٠م): مقاييس اللغة، تح عبدالسلام هارون، مطبعة الحلبي-القاهرة ط٢/١٩٦٩م، مادة فَصُحَ. وأنظر فياض، محمد جابر: الفصاحة لغة واصطلاحاً، بحث في مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ٣٦، ج١ /آذار/١٩٨٥م.

(٢) ابن فارس: مقاييس اللغة، مادة فصُحَ.

(٣) مطلوب، أحمد وكامل البصير: البلاغة والتطبيق. ط٢/١٩٩٠ ص ٣٦، ٣٧.

(٤) السيوطي: المزهر ج١ ص ٢١٠.

(٥) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها. تح د. عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف-بيروت ص٥٥، وسيشار إليه فيما بعد بـ (ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة).

سلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب، ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفية قيس ولا كشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة ولا كسر أسد وقيس.(١) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:- لا يملين في مصاحفنا إلاّ غلمان قريش وثقيف(٢) وقال عثمان بن عفان: "اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف(٣) وعن ابن مسعود أنّه كان يستحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر.(٤) وقال الرازي في كتاب (الزينة): "لغة القرآن هي لغة قريش."(٥).

وعلماء اللغة العربية يرون الفصاحة في غير قريش. والأمثلة على ذلك كثيرة منها: أنّ "جرماً" فصحاء العرب.(٦) وقد ساق المبرد لها قصّة تؤيد أنّها أفصح الناس(٧) وعن الخليل بن أحمد: أفصح العرب نصر قعين أو قعين نصر.(٨) أما ما رواه أبو عمرو بن العلاء عن أفصح الشعراء فقد بيّن أنّ أفصح الشعراء ألسناً وأعربهم -أهل السروات-، وهنّ ثلاث وهي الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن فأوّلها هذيل.. ثم سراة الأزد، أزد شنوءة(٩).

وقيل أيضاً إنّ أفصح الناس عليا تميم وسفلى قيس(١٠) وقيل ايضاً: أفصح الناس سافلة العالية وعالية السافلة، يعني عجز هوازن(١١) كما قيل: إنّ أعرب الناس خزاعة(١٢)، بينما يرى المقدسي

---

(١) المصدر السابق ص٥٥،٥٦، وتعني العنعنة قلب الهمزة عيناً، والكشكشة إبدال الكاف شيناً، والكسكسة إبدال الكاف سيناً، وكسر أسد وقيس وهي تعني نطق حرف المضارعة مكسوراً، (المزهر ج١ ص٢٢١).

(٢) السيوطي: المزهر ج١ ص ٢١١.

(٣) المصدر السابق ج١ ص٢١١.

(٤) المصدر السابق ج١ ص٢١١.

(٥) الطعان، هاشم: الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة، منشورات وزارة الثقافة والفنون الجمهورية العراقية ١٩٧٨، ص٩٥، وسيشار إليه فيما بعد بـ (الطعان: الأدب الجاهلي).

(٦) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (٥٣٨هـ-١١٤٣م): الفائق في غريب الحديث، تحقيق أبي الفضل والبجاوي، القاهرة ط٢-١٩٧١ ص ٤٩٥ .

(٧) المبرد: الكامل، ج٢ ص٢٢٣.

(٨) ابن منظور: لسان العرب، ج١٧ ص٣٦٥.

(٩) السيوطي: المزهر ج٢ ص٤٨٣.

(١٠) المصدر السابق ج٢ ص٤٨٣. وعالية السافلة (نجد) وأهم من سكنها تميم، وقبائل من ربيعة وسافلة العالية (المدينة) وهي قبائل عرفت بالفصاحة وبعُدت عن التخوم وعلى رأسهم أظآر النبي. (الشلقاني: الأعراب الرواة، دار المعارف ١٩٧٧م ص ١٥٨).

(١١) المصدر السابق ج٢ ص٤٨٣.

(١٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة عرب.

"أنّ هذيلاً" أفصح لغات العرب"(١) ولعل مثل هذا الخلاف الشديد في أيّ القبائل أفصح لا يطمئننا على وثيقة الفارابي؛ لأنها تتعارض مع هذه الروايات، على أنّ وثيقة الفارابي تحمل في ثناياها تعصباً للقبائل المشهورة ذائعة الصيت في المجتمع العربي بدليل أنّ القبائل المغمورة والتي لم ترزق حظاً من الشهرة لم يأخذوا عنها، والدنيا إذا أقبلت على قوم أعطتهم محاسن غيرهم.

فإذا عدنا إلي ما قيل حول الفصاحة وأيُّها أفصح، ودققنا فيها النظر فإننا سوف نخرج بما يلي:

(أ) إنّ اغلبية الروايات الواردة تشير إلى أنّ قريشاً أفصح العرب، وأشرفهم لغة.

(ب) كثرة التناقضات بين تلك النصوص لا تجعلنا نخرج بحجة ثابتة على أنّ قريشاً هي أفصح العرب.

(ج) يشير حديث رسول الله : "أنا أفصح العرب ...." إلى أنّ بني سعد قبيلة عربية فصيحة، وهذا يعني أنّ قبيلة قريش لا تستأثر عندئذ بالفصاحة وحدها دون غيرها، ولا سيما إذا اعتبرنا من يقول بالفصاحة لهوازن وهي القبائل العربية التي حاربت قريشاً في عكاظ ودخلت الإسلام بعد وقعة حنين سنة ٦٣٠م.

(د) أورد السيوطي تعليلاً لغوياً وحيداً برّر فيه منزلة قريش من الفصاحة؛ وذلك عندما ذكر قول ابن فارس "لأنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم"... وقول ثعلب "ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم.. وتضجع قريش وعجرفية ضبّة"

هذان القولان لا يثبتان الفصاحة لقريش؛ لأن هذه التي وصفت بأنّها عيوب ليست إلا خصائص لهجية، لا تعني بالضرورة أنّها عيوب نطقية تشين أو تفسد هذه اللهجة أو تلك. ثم من قال إنّ لغة قريش تخلو من العيوب -إذا صحّ لنا أن نسميها عيوباً- إذ أنّ من الروايات ما يُقرُّ لقريش عيباً مثل غيرها وذلك ما عُبّر عنه بالتضجّع.

(هـ) هناك اضطراب يلحق نسبة هذه الصفات إلى القبائل العربية، فلقد نسبت رواية ابن فارس (العجرفية) لقيس و(الكشكشة) لأسد، بينما جاء في رواية ثعلب أنّ (الكشكشة) لهوازن و(العجرفية) لضبّة، مما يشكك في مثل هذه الأقوال.

(و) نخلص من كل التناقضات التي وجدناها في الأقوال المبثوثة هنا وهناك حول أيّ القبائل أفصح، إلى أنّ القرآن الكريم لم ينزل بلغة قريش وحسب - وإن كان لها أكبر نصيب فيه- بل نزل بلسان قبائل كثيرة، ولو نزل بلغة قريش وحدها، لما ورد فيه الهمز؛ لأنّ قريشاً لا تهمز، وينبغي ألاّ نفهم من هذا الكلام أننا لا نقرّ بالفصاحة لقريش، بل إنّ قريشاً قبيلة عربية فصيحة،

---

(١) المقدسي، شمس الدين ابو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري(ت ٣٨٧هـ-٩٩٧م): أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم بريل، ليدن ط٢/١٩٦٧م ج١ ص٩٧.

ولكني لست مقتنعاً أنّها أفصح العرب، ولكن قريشاً توفّرت لها ظروف لم تتوفر لسواها جعلت القدماء يقولون بأنها أفصح العرب. وهذه الظروف هي:

أ. العامل الديني: إذ كانت مكة تضم البيت الحرام. الذي كانت العرب تعظمه وتحجّ البيت في جاهليتها وتزور أصنامها فيه وتقدّم إليه النذور والقرابين..(١)

ب. العامل الإقتصادي: من حيث أنّ مكة مركز تجاري مهم؛ إذ كان قدرٌ كبير من التجارة بيد أهلها -قريش- ورحلتهم في الصيف إلى الشام وفي الشتاء إلى اليمن لغرض التجارة معروفة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الرحلة، وهذا الازدهار التجاري جعل لمكة موقعاً مهماً بين قبائل العرب المتنوعة، فكانوا يفدون إليها للعبادة والاتّجار. وقوله تعالى: "**فليعبدوا ربَّ هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**". في نهاية سورة قريش يشعرنا بما كانت مكة تتسم به من أمن واستقرار نفسي(٢) .

ج. العامل السياسي: إذ كانت القبائل العربية تدين لمكة بالسيادة، والمكانة الرفيعة ولأهلها بالإكرام والتبجيل. وكان أهل مكة يعرفون ذلك لأنفسهم، يدل عليه قول أبي بكر للأنصار: "لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش فلا تَنفَسُوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله(٣).

د. غزارة لهجة قريش من حيث ثروتها اللغوية ومادتها، وعذوبة جرسها، ورقّة أسلوبها وانتقائها الأفصح من الألفاظ. وزاد من ثروتها احتكاكها بالقبائل العربية المتعددة التي كانت تفد إلى مكة.(٤) ومن هنا كانت لهجة قريش أقوى اللهجات أثراً في تكوين اللغة العربية الفصحى التي كان يكتب بها الأدب.

هـ. تقديس الناس في أكثر بقاع الأرض للقديم بحيث يملأ قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، فيحيطونه بهالة من التقديس؛ وذلك كان موقف العرب من لهجة قريش، فقد تقادم عهدها، وهم يعظمونها ويعظمون أهلها ويعرفون لهم فضلهم(٥) .

٣- القبائل التي سمعت منها اللغة.

يظل أمر سماع اللغة من قبائل عربية دون أخرى شيئاً يحيطه شيء من الحذر وعدم الاطمئنان؛ وليس سبب ذلك سوى التحديد المكاني القاطع لهذه القبيلة أو تلك ضمن ضوابط ومعايير قد تكون صائبة. فقد جاء قبول الأخذ عن قبائل دون أخرى بسبب بُعدها عن الحاضرة،

---

(١) الزيدي: كاصد ياسر : فقه اللغة العربية، جامعة الموصل، ط/ ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م ص١١٦.

(٢) المرجع السابق، ص١١٦.

(٣) المرجع السابق، ص١١٧.

(٤) وافي، علي عبد الواحد: فقه اللغة، دار نهضة مصر ، القاهرة ط٧/ (د.ت) ص١١٤،١١٥.

(٥) الصالح: دراسات في فقه اللغة، ص١١١.

حيث أكسبها هذا الابتعاد عدم الاختلاط بالأمم الأخرى مما جعلها تحافظ على سلامة لغتها من الفساد والاختلال والدخيل.

ولكن يبقى أمر تحديد نطاق هذه القبائل أمراً صعباً. فقد يَصْدق هذا التحديد على معظم القبيلة، ولكن من الصعوبة بمكان أن ينطبق على كل القبيلة، وذلك بسبب طبيعة القبائل التي ليست مستقرة في مكان معين.

وللوقوف على حقيقة هذه القبائل الواردة في الوثيقة والتي سمعت اللغة عن بعضها ولم تُسْمع عن البعض الآخر. فإنه لا بدّ من دراسةٍ لحقيقة هذه القبائل..(١) فقد أشارت الوثيقة إلى أنّ القبائل التي سمعت عنها اللغة هي:

قيس، وأسد، وتميم، وهذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين. والضابط الذي دفع اللغويين إلى الأخذ عن هذه القبائل هو بُعدها عن أماكن الحضارة وسلامة لسانها من اللحن.

وقد حدّد أبو عمرو بن العلاء خريطةً لهذه القبائل بقوله: "أفصح الناس أهل السّروات والسُّروات ثلاثة: الجبال المطلّة على تهامة مما يلي اليمن، أوّلها هذيل وهي التي تلي السهل من تهامة ثم بجيلة، وهي السراة الوسطى. وقد شركتهم ثقيف من ناحية منها، ثم سراة الأزد -أزد شنوءة- وهم بنو كعب الحارث بن كعب".(٢) .

وبلغة اخرى نستطيع تحديد المنطقة التي أخذت منها اللغة بأنها المنطقة التي تمتدّ من **غرب نجد عندما تأخذ هضبتها في الانحدار نحو الغرب، وبين سفوح جبال الحجاز عندما تأخذ في الارتفاع مكونة تلك السلسلة الجبلية في غرب الجزيرة**. وهذه المنطقة هي التي تسمّى عالية السافلة وسافلة العالية.(٣).

ولتوضيح حقيقة هذه القبائل فإنه يحسُن بنا الوقوف مع كل قبيلة:

١. قبيلة قيس:

تُعدّ قبيلة قيس عيلان من القبائل العربية الكبيرة المنتشرة في منطقة نجد، فهي تتكون من فروع عديدة منها:

أ. **عدوان**: كانت منازلهم بالطائف من أرض نجد، وكانوا قد غلبوا عليها قبيلة اياد: فلما غلبتهم عليها ثقيف خرجوا إلى تهامة.(٤).

---

(١) أنظر الخريطة المرفقة.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ج١ ص٣٩٧.

(٣) أنظر أحمد، محمد عبدالقادر: أبو زيد الأنصاري ونوادر اللغة، مكتبة النهضة المصرية ط١٩٨٠ ص١٤٣.

(٤) عبد الحميد، سعد زغلول: تاريخ العرب قبل الاسلام، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٦م، ص٢٦٥.

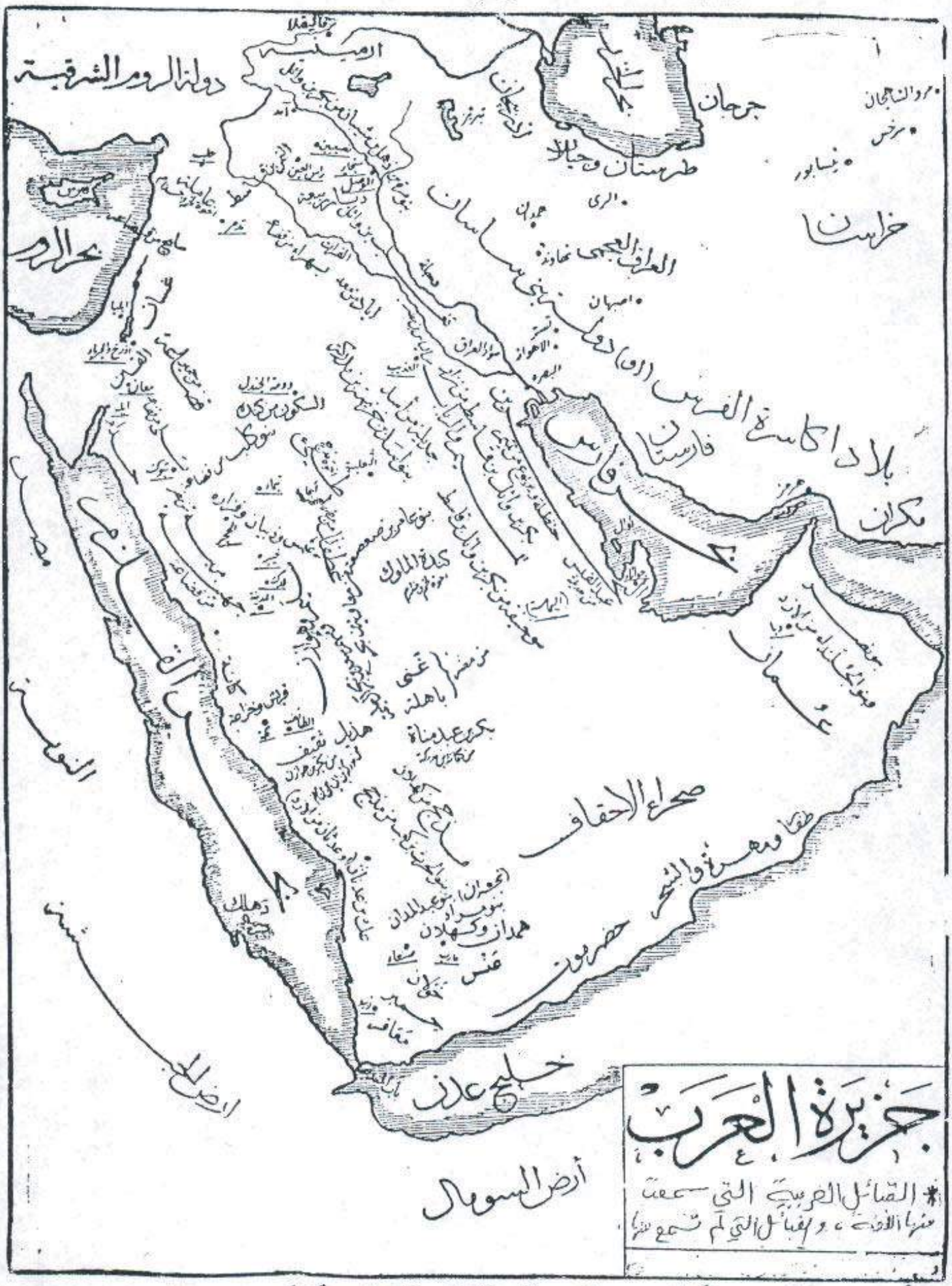

* أنيس إبراهيم : في اللهجات العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ط٦ / ١٩٨٤م ص ٢٢٥ .

ب. **غطفان وعبس**: كانت منازل غطفان في منطقة نجد مما يلي وادي القرى وجبل طيء. ثم دخلوا الأمصار بعد الفتوحات الاسلامية فاستولت عليها طيء وأشجع بن غطفان وكانوا عرب المدينة بيثرب.(١).

ج. **ذبيان**: كانت منازلهم بنجد. ثم رحلوا إلى "أبرق الحنان وأبنا" من وادي القرى.(٢)

د. **زغبة**: هم من سُليم من غطفان كانوا بين مكة والمدينة.(٣).

هـ. **رواحة وفزارة**: من غطفان، كانوا في أعالي نجد بالغرب، وخيبر، وأعطوا هناك لبعض المواضع من بلادهم أسماءَهم مثل: حرّة بني سُليم وحرّة النار بين وادي القرى وتيماء(٤).

و. **ثقيف**: كانت بالطائف وما حولها غير بعيد من مكة، وتعدّ الطائف من نجد لارتفاعها، وبها سوق عكاظ، ومنهم الحجاج بن يوسف، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه، وهوازن من ثقيف ولها قبائل عدة في نجد والحجاز(٥)

ز. **الهلالية**: كلاب. أما بنو ربيعة من الهلالية ومنهم بنو عامر، كلاب، وكعب، فكانت بلادهم نجد من الأرض الموالية لتهامة بالمدينة وأرض الشام.(٦)

ح. **عقيل بن كعب**: ومنهم خفاجة بن عمرو بن عقيل. ساروا للعراق والحجاز، وكونوا لهم ببادية العراق دولة بينما سكن إخوانهم من بني عامر بن عقيل جهات البصرة، وملكوا البحرين واليمامة(٧).

ط. ومن **قبائل قيس** "**باهلة**" وكانوا يقطنون اليمامة.(٨)

٢. **قبيلة تميم**: كانت منازل تميم في المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية بأرض نجد وقد وُصفت بأنّها مفاوز وصحاري لا يهتدي لمشاكلها. وماؤها من الآبار(٩) لكنّا لا نجد تحديداً دقيقاً لمواضع منازلهم في كتب البلدان والتاريخ. فقد ورد أنّ بلادهم بأرض نجد دائرةٌ من هنالك على

---

(١) عبد الحميد، سعد زغلول: تاريخ العرب قبل الاسلام، ص٢٦٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢٦٥.

(٣) المرجع السابق، ص٢٦٦.

(٤) المرجع السابق، ص٢٦٦.

(٥) المرجع السابق، ص٢٦٦.

(٦) المرجع السابق، ص٢٦٦.

(٧) المرجع السابق، ص٢٦٦، ٢٦٧.

(٨) كحالة، عمر رضا، معجم قبائل العرب، المطبعة الهاشمية -دمشق- ١٣٦٨هـ-١٩٤٩م ج١ ص٦٠. وسيشار إليه فيما بعد بـ (كحالة: معجم قبائل العرب).

(٩) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ١٩٥٧م ج٢ ص١٦٩.

البصرة واليمامة، وامتدت لتصل العُذيب من ارض الكوفة(١) ثم مضوا حتى خالطوا أطراف هجر، ونزلوا ما بينها وبين اليمامة،(٢) ثم ذهبت طائفة منهم إلى عُمان(٣) وخالطوا عامر بن عبد القيس في بلادهم، فطرد منها(٤) وامتدت منازلهم إلى البحرين فالأحساء(٥)

فلما جاء الإسلام كانت تميم كلها في اليمامة.(٦) واليمامة مُعدّة في أرض نجد(٧). وقد وصف ابن حزم تميماً بأنّها من أكبر قواعد العرب (٨) ولعل ذلك راجع إلى كونها من أوفر القبائل العربية عدداً. فقد امتلأت بهم البلاد(٩) وأنه ونظراً لكثرة عددها فقد افترقت إلى قبائل عديدة منها: كعب بن زيد وحنظلة بن مالك بن زيد مناة وهم البراجم وبنو دارم وبنو زرارة بن عدس وبنو أُسيد(١٠) وعمرو بن تميم. وقد كانت فيهم المنعة والعدد والبأس، والنجدة والشعر والفصاحة.(١١)

ولعل أعظم المنازل التي سكنها تميم هي: الدّهناء، والحَزْن، ويبرين، والدوّ والصمّان، وفَلْج والسّيدان، والوشم.(١٢) وبعض نواحي اليمامة. كما يكوّن تميم عدد من البطون هي:

بطن سعد بن زيد مناة، وتمتد منازلهم من سفْوان إلى يَبْرين وذلك أكثر من مسيرة شهر كما تمتد عرضاً من البحرين إلى الدّهناء مسيرة عشر ليال تقريباً(١٣)

---

(١) القلقشندي صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، المؤسسة المصرية العامة للكتاب. القاهرة د.ت ج١ ص٣٤٧.

(٢) البكري، أبو عبيد، عبدالله بن عبد العزيز : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تح مصطفى السقا، عالم الكتب/بيروت ج١ ص٨٨.

(٣) المصدر السابق، ج١ ص٨٨.

(٤) المصدر السابق، ج١ ص٨٨.

(٥) الهمداني، أبو محمد، الحسن بن أحمد بن يعقوب، المعروف بابن الحائك (٣٤٣هـ-٩٥٥م): صفة جزيرة العرب/ تح محمد بن علي الأكوع، منشورات دار اليمامة -الرياض- ١٩٧٤م، ص٣٣٥.

(٦) البكري: معجم ما استعجم ج١ ص٩٠.

(٧) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٥ ص٤٤٢ يمامة.

(٨) ابن حزم، ابو محمد علي بن سعيد (ت٤٥٦هـ-١٠٦٤م): جمهرة أنساب العرب، تح عبد السلام محمد هارون، دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٢م، ص٢٠٧.

(٩) المطلبي، غالب فاضل: لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، منشورات وزارة الثقافة والفنون/العراق ١٩٨٧، ص٩، وسيشار إليه فيما بعد بـ (المطلبي:لهجة تميم).

(١٠) المصدر السابق، ص٩ .

(١١) المصدر السابق، ص٩ .

(١٢) البكري: معجم ما استعجم، ص٦٦٧،٦٥٥.

(١٣) أبو علي الأصفهاني، الحسن بن عبدالله: بلاد العرب، تح حمد الجاسر و صالح العلي/ الرياض ١٩٦٨ ص٣٥.

ومن بطونهم بطن امرئ القيس بن زيد مناة، وقد انتشرت منازلهم بالوَشْم والسِّتار وبعض نواحي اليمامة.(١) وكذلك بطن بني عمرو بن تميم وقد سكنوا السَمينة بين البصرة والنُبَّاج(٢) وذو أضَم قرب السَمينة والحناظل(٣) وبطن بني حنظلة وقد انتشرت منازلهم في الصَمَّان والدهناء والحزن(٤) ، ومن بطونهم بطن بني دارم ومن مساكنهم أسْبَذ قرية بالبحرين سكنها بنو عبد الله بن دارم فنسبوا إليها..(٥).

أما عن علاقات تميم مع غيرها من القبائل العربية فقد كانت مليئة بالصراع. ومن بين تلك القبائل بكر بن وائل التي تضاهي قبيلة تميم عدداً، وكان الصراع قائماً في الجاهلية إلى أن جاء الإسلام، فخفّت حدّته –وإن لم ينقطع– بسبب انشغال العرب بالدعوة الجديدة والفتوحات. ولعلّ الأسباب التي زادت في هذه العداوة أنّ بلاد بكر بن وائل مجاورة لبلاد بني تميم؛ إذ تمتد من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة فأطراف سواد العراق فالإبالة فهيت(٦) وكذلك كانت العلاقة مع قبيلة قيس المجاورة لتميم؛ حيث كانت مليئة بالحروب، ليس مع قيس فقط، بل مع تغلب، وطيء وأسد وإياد وبلحارث بن كعب.(٧) .

نخلصُ من الحديث عن قبيلة تميم إلى القول أنّ قبيلة تميم لم تكن منعزلة على نفسها كما هو معلوم ومعروف لدى كثير من الباحثين، بل وجدنا أنّ هذه القبيلة تتكون من عدد كبير من البطون، وهذه البطون امتدت أراضيها خارج المنطقة المحددة لأخذ اللغة منها، إضافة إلى ذلك فقد كانت تتعامل مع قبائل لم تؤخذ عنها اللغة كقبيلة تغلب وإياد، وهذا يعني أنّ هذه العلاقة مهما كانت لا بُدّ أن يكون واحداً من نتائجها التأثر والتأثير وهذا يعني أنّ هذه القبيلة كتغلب التي فسدت لغتها لا بدّ من أن تؤثر في لغة تميم فتفسد عليها لغتها.

والأمر الآخر هو أنّ امتداد حدود هذه القبيلة يثبت أنّ القبائل العربية ليست ثابتة الحدود بل هي في تغير مستمر وحسب القوة والضعف.. وهذا يعني صعوبة السفر والرحلة إلى هذه القبيلة بأفخاذها وأقسامها.

---

(١) أبو علي الأصفهاني، الحسن بن عبدالله: بلاد العرب، ص ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٥٥.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص ٤١٦-٤١٧.

(٥) المصدر السابق، ج١ ص٢٣٧.

(٦) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ١٦٢.

(٧) المطلبي: لهجة تميم، ص ٢٢، ٢٣.

٣- **قبيلة أسد.**

تُعدّ قبيلة أسد واحدة من القبائل العدنانية المتسعة البطون، وهي على صلة بقريش، إذ تلتقي معها في خزيمة بن مدركة. كما تلتقي مع هذيل في مدركة بن الياس بن مضر(١). وقد حفلت كتب الأنساب بذكر بطون هذه القبيلة وفروعها. غير أنّ أشهر تلك البطون ممن نقل عنها اللغويون نصوصاً تمثل لغتهم بنو مالك، وبنو فقعس وبنو دُبير، وبنو غَنْم بن دَوْاده. وذكر بعض المؤرخين وجود صلة نسب بين أسد بن خزيمة، وبين جذام ولخم، كما ذكر أنهم انتشروا في اليمن.(٢) أما عن المكان الذي استوطنه الأسديون فقد اشارت المصادر إلى أنّ قبيلة أسد كانت تنتشر في أرجاء واسعة من وسط الجزيرة العربية باتجاه العراق. فهي تجاور بيئة الحجاز من جهة الغرب، وبيئة تميم من جهة الشرق. وامتد نشاطها من وادي الرمة جنوباً إلى أطراف الكوفة شمالاً.(٣)

وقد جاورت قبيلة أسد عدد من القبائل العربية كقبيلة طيء، وقيس، وبطونها وطائفة من تميم. إضافة إلى ذلك فقد كانت أكثر قرباً إلى الحجاز من تميم، وغيرها من قبائل شرق الجزيرة(٤).

كما تحالف بنو أسد مع ملوك الحيرة ضد غسان واشتركوا في حروب انتصر في بعضها الجيش الغساني، كما أنهم تحالفوا مع ذبيان، واشتركوا معهم في حروب ضد غسان(٥).

نخلص من هذا إلى أنّ قبيلة أسد لم تكن تعيش منزلة متقوقعة على نفسها، بل كانت تختلط بغيرها من القبائل العربية، كما أنّ مكانها لم يكن ثابتاً، بل كانت ترتحل حيث الماء والكلأ. وهذا يعني انّ حدودها لم تكن معروفة أو محدّدة. وهذا بالتالي يجعل رحلة اللغويين في غاية الصعوبة.

٤- **قبيلة هذيل:** عُدّت هذه القبيلة من القبائل الكبيرة، فهي تتكون من عدد كبير من الأفخاذ والأقسام، فقد سكن قسم من هذه الأفخاذ (ضرعاء) وهي قرية بها قصور ومنابر وحصون، وسكن قسم آخر من الهذليين في قريتي (رهاط) و(الحديبية)، كما سكن قسم ثالث في "مرّ الظهران" وهي قرية في واديها عيون كثيرة ونخيل وجُميّز.(٦)

---

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص١١.

(٢) غالب، علي ناصر : لهجة قبيلة اسد، دار الشؤون الثقافية العامة/بغداد، ط١،١٩٨٩ ص١١.

(٣) البكري: معجم ما استعجم، ج١ ص١٣.

(٤) المصدر السابق، ج١ ص٩٠.

(٥) غالب لهجة قبيلة أسد، ص٢٢ .

(٦) الأسد، ناصر الدين: مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر ط٤/١٩٦٩م ص٧.

٥- **قبيلة كنانة:** تتكون قبيلة كنانة من عدد من الفروع والبطون. وهي اسم لأكثر من بطن من العرب. منها: بطن من تغلب من القحطانية، وكنانة من خزيمة، وهي قبيلة عظيمة من العدنانية.(١) ولتفرّع قبيلة (كنانة) وكثرة أقسامها أسوق المثال الآتي مما أورده البحتري في إحدى قصائده حيث يقول:(٢)

سماءٌ على أهل "السماوةِ" تَغْتَدِي بسُقْيا الخليط المستقلِّ المُزايِلِ

فتنهَلُّ في جوٍّ تَرُبُّ ظِباؤه كنانةَ كلبٍ لا كنانةَ وائلِ

أمّا بطون كنانة فهم: بنو النضر بن كنانة وهم "قريش" وبقي من كنانة من ليسوا من قريش وهم بنو مالك بن كنانة، وبنو ملْكان بن كنانة، وبنو عبد مناة بن كنانة.(٣) وقريش هم ولد النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركه، وسائر ولد كنانة ينتمون إلى كنانة أبيهم وليسوا قريشاً.(٤)

٦- **بعض الطائيين.**

أما قبيلة طيء فإنها من ولد جلْهمة بن أدد بن زيد كهلان، ويذكر الإخباريون أنها كانت باليمن، ثم خرجت على أثر الأزد إلى الحجاز، ونزلوا (سميراً) و(فيداً) في جوار (بني أسد)، ثم استولوا على (أجا) و(سلمى) وهما جبلان من بلاد اسد، فأقاموا في الجبلين حتى عرفا بجبلي طيء(٥).

وتفرقت طيء إلى بطون عديدة، يُرجع أصولها النسّابون كعادتهم إلى آباء وأجداد، ومن هؤلاء جديلة، وتيم الله، وحيش والأسعد، ونبونبهان وبنو ثعلبة.(٦) وبحتر ومعن وهما بطنان ضخمان وجرول بن ثعلب. وربيعة بن جرول، وهو بطن ضخم.(٧)

وقد أخذت بطون قضاعة مواطن طيء في الشمال لا سيما بعد أن بلغت طيء جبلي سلمى وأجاً وقد نسب اللغويون التلتلة إلى لغة طيء كما نسبت التلتلة إلى قبيلة قضاعة عندما احتلت مكانهم(٨).

---

(١) الزبير، محمد: معجم أسماء العرب، جامعة السلطان قابوس، مكتبة الشباب، المجلد الثاني.

(٢) البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبد الطائي (ت٢٨٤هـ-٨٩٧م) الديوان، تح حسن كامل الصيرفي دار المعارف -مصر - ١٩٦٤ ج٣ قصيدة رقم ٧٣٥ ص١٩٠١.

(٣) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٤٦٥.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٤٧٩.

(٥) علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة-بغداد/ ط٢، ١٩٧٧م، ج٤ ص٤٥٠.

(٦) المرجع السابق، ص٤٥٠.

(٧) المرجع السابق، ص٤٥٢.

(٨) المرجع السابق، ص٤٥١.

ونستطيع القول أنّ قبيلة طيء كانت ذات مكانة خطيرة، بدليل إطلاق اسمها عند بعض الكتبة الكلاسيكيين، وعند الفرس والسريان وعند يهود بابل على جميع العرب، ولو لم تكن طيء قوية كثيرة العدد ممعنة في الغزو ومهاجمة الحدود حتى صار في روع السريان أنّها اقوى العرب.(١)

ومن ناحية ثانية فقد كانت هناك علاقات غير طيبة بين طيء وعبس، وبين طيء وتلك الحيرة هذه العلاقات كانت مليئة بالحروب.. بالإضافة إلى غزو عمرو بن الهند لمواطن الطائيين.(٢)

وما ينطبق على القبائل السابقة ينطبق على طيء، فبطونها كثيرة وقوية وهي تختلط بغيرها من القبائل وهذا الاختلاط لا بدّ فيه من التأثر والتأثير.. والسؤال هو كيف يؤخذ عن نصف طيء ويترك النصف الثاني وكيف يمكن بيان هذا النصف..؟!!

بعد هذا العرض للقبائل العربية التي سمعت منها اللغة نخلص إلى النتائج الأتية:

أولاً:- لم يكن للقبائل العربية الست موقع ثابت، له حدوده المعروفة لكل الناس. فالقبائل حدودها متداخلة بعضها مع بعض في المرعى والماء، وعدم استقرارها في مكان واحد، يجعلنا نميل إلى أنّ الحدود الجغرافية أمر لا سبيل إليه في الجزيرة العربية؛ لأنّنا لا نستطيع أن نحدّد جغرافية قبيلة واحدة. إذ أنّها في الصباح لها حدود، وفي المساء لها حدود تختلف عن حدود الصباح؛ لأنّ الحدود الحقيقية ترجع إلى اختلاف قوة القبيلة، وقدرتها على عقد الأحلاف للاستعانة بغيرها لدفع الأذى عنها. وإذا عجزنا عن تحديد قبيلة واحدة فكيف نقوم بتحديد جغرافي لغوي بين شرق الجزيرة وغربها.

وبناءً على هذا فإنّني أعتقد أنّ كثيراً من الرّحلات التي كان هدفها زيارة القبائل من أجل سماع اللغة منها هي مثار شك؛ والسبب يعود من جهة ثانية إلى فهم البادية. فالمفهوم الذي يؤديه مصطلح (بادية) يعني المكان الذي يقع على أطراف المدينة أوالقرية .. وحسبُنا أن نشير إلى ما روي عن السيّدة عائشة -رضي الله عنها- قالت: "لما قدمنا المدينة نهانا رسول الله أن نقبل هديّة من أعرابي، فجاءت أمُّ سنبلة الأسلمية بلبن، فدخلت به علينا فأبينا نقبله؛ فنحن على ذلك إلى أنْ جاءَ رسول الله معه أبو بكر فقال: ما هذا ؟ فقلت: يا رسول الله، هذه أمُّ سنبلة أهدت لنا لبناً، وكنت نهيتنا أن نقبل من أحدٍ من الأعراب شيئاً. فقال رسول الله ﷺ :"**خذوها فإنّ أسْلمَ ليسوا**

---

(١) المرجع السابق، ص٤٥٢.

(٢) المرجع السابق، ص٤٥٣.

بأعراب، وهم أهل باديتنا، ونحن أهل قاريتهم، إذا دعوناهم أجابوا، وإن استنصرناهم نصرونا."(١)

وثمة نصان لا يقلان عن هذا النص وضوحاً وقيمة، **أولهما:** ماذكره عرّام بن الأصبغ في حديثه عن السُوارقية قال: "قرية غنّاء كثيرة الأهل" ثم قال: كان لبني سُليم فيها "مزارع ونخيل كثيرة وفواكه، من موز وتين ورمان وعنب وسفرجل وخوخ، ولهم خيل وإبل وشاه كثيرة، وهم بادية إلاّ من ولد فيها، فإنّهم ثابتون بها، والآخرون بادون حواليها، ويميرون طريق الحجاز ونجد في طريق الحاج."(٢)

وثانيهما: ما ذكره عرّام أيضاً في حديثه عن قرية (خَيْف سلاّم) قال: "... وفيه منبر وناس كثير من خزاعة، ومياهها فُقُرٌ أيضاً، وباديتها قليلة، وهي جُشَم، وخزاعة، وهُذَيل."(٣) وقد علّق الدكتور ناصر الدين الأسد على ما جاء في النصّين قال: "فنحن نفهم من هذه النصوص الثلاثة المتقدمة أنّ المقصود بالبادية إنّما هو ظاهر القرية، أو ضاحيتها، وما أحاط بها، وإنّ كثيراً من القبائل العربية كانوا يقطنون في هذه البوادي قريبين من الحواضر مُطيفين بها، مُتّصلين بسكانها؛ فهُم إذن غير تلك القبائل الموغلة في الصحراء، الضاربة في الفيافي البعيدة عن العمران، الذين قست قلوبهم وغلظت أكبادهم؛ حيث وصفهم القرآن بالشدة والكفر والنّفاق. هؤلاء هم الأعراب. أمّا القبائل القريبة من القرى المطيفة بها فليسوا بأعراب، هم أهل باديتنا، وهم أهل قاريتنا."(٤)

أمّا عن الرحلة إلى البادية لتلقّي اللغة وسماعها، فلا يوجد أدلة كافية تثبت ذلك إلاّ ما قيل عن أبي عمرو الشيباني من أنّه "دخل البادية ومعه دستيجان من حبر، فما خرج حتى أفناهما يكتب سماعه عن العرب."(٥)

وما قيل أيضاً عن الكسائي والذي أمره الخليل بن أحمد الفراهيدي أن يذهب إلى البادية ليقضي بها سنين عددا، فيحذق عن أعرابها اللغة الفصيحة.(٦) وقيل أنّه أنفق عشرات الدستيجانات من الحبر في جمع اللغة، وربّ قائل يقول: وما البادية ؟ وهل يمكن أن تكون بادية البصرة وسواد الكوفة هي المعنية بالذات، ذلك "أنّه لم يكن من السهل بالكوفة ملاقاة العرب

---

(١) ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع الأزهري(ت ٢٣٠هـ-٨٤٥م): كتاب الطبقات الكبير- بريل، ليدن ١٣٢٢هـ، ج٨ ص٢١٥، والقارية: الحاضرة الجامعة.

(٢) الأُصبغ السلمي، عرّام.(القرن الثالث): كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها، تح. عبدالسلام هارون، ١٣٧٣هـ، مطبعة أمين عبدالرحمن، القاهرة ص ٦٤، ٦٥ .

(٣) المصدر السابق: ص٣٥ ، والفُقُر : قنى الماء، واحدها فقير .

(٤) الأسد، ناصر الدين: مصادر الشعر الجاهلي، ص٨، ٩ .

(٥) المصدر السابق، ص١٩٣.

(٦) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج١ ص١٩٨.

الرُحّل من وسط الجزيرة أو شرقيها أو سؤالهم، كما كان ذلك مُيسراً لأهل البصرة"(١) فكيف سيكون ذلك مُيسَّراً لهم الرحيل إلى وسط نجد أو جنوبها أو إلى تهامة، وكيف سيحملون أدوات الكتابة التي لا يُتصوَّر أنّها ستكون كدفاترنا اليوم، أو كاقلامنا. ويدعم هذا قولهم: إنَّ أبا عبيدة لم يقطع البادية بحثاً عن الشعر كما فعل الأصمعي وغيره، إلاّ أنّنا نجده يلتمس الأعراب الوافدين من البادية يسألهم عن الشعر.(٢)

وربّما كان القول بالرحلة إلى البادية ابتداعاً؛ ليثبت اللغويون أنَّ ما بحوزتهم نقيٌ ويحتج به، وعودة ألى توجُه أبى عمرو الشيباني الكوفي إلى البادية، ترينا مدى المبالغة في الخبر؛ إذ يحكي ابنه عمر "لما جمع أبي أشعار العرب كانت نيّفاً وثمانين قبيلة، فكان كلما عمل منها قبيلة، وأخرجها إلى الناس كتب مُصحفاً، وجعله في مسجد الكوفة، حتى كتب نيّفاً وثمانين مُصحفاً بخطه.(٣) إذ من الصعب الذهاب في أعماق الجزيرة العربية، وكتابة هذا الكم الهائل من الشعر، ثم حمله إلى الكوفة، وكتابته، وما يتبع ذلك من كتابة قرآن لكل ديوان.

ثم إنَّ البادية التي عناها الفارابي في وثيقته جاءت غامضة الدلالة، وربما كان المعني سواد الكوفة خاصة، وأنَّ هناك إشارات لأخذ العلماء عن الأعراب عن الذين يأتون إليهم لهذا الغرض، أو من رواة الشعر من أشباه المتوطّنين من قبائل سواد الكوفة.(٤)

وربّما كان لطعن البصريين على الكوفيين الأخذ عن هؤلاء الذين لا يعترفون بلغتهم على أنّها أصل للاحتجاج، أثر في دفع هؤلاء هذا الربط بين الرحلة إلى البادية والكسائي والشيباني باعتبارهما كوفيين.

وربما أوحت مسألة الأخذ عن هؤلاء الأعراب المقيمين بأمر التشدّد في مبدأ تنقية اللغة العربية، والذي انعكس على النحو فيما بعد، والذي لا يقيم وزناً إلاّ للمادة اللغويّة الموجودة في شعر البدو من الأعراب.(٥) ولذا افتخرت البصرة في أنّ تقدمها على منافستها الكوفة يرجع إلى أنَّ البصريين أخذوا اللغة عن البدو الخُلّص حرشة الضباب، وأكلة اليرابيع، على حين استمد الكوفيون لغتهم من أنصاف الأعراب من أهل السواد، وأصحاب الكواميخ وأكلة الشوارز.(٦)

---

(١) فك، يوهان: العربية، دراسة في اللغة واللهجات، ترجمة د. رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي بمصر ١٩٨٠م ص٦٩.

(٢) الشلقاني، عبدالحميد: مصادر اللغة، جامعة الرياض ط١-١٩٨٠م ص١٠٣.

(٣) المصدر السابق، ص١٠٣.

(٤) فك: العربية، ص٦٩.

(٥) المرجع السابق: ص١٧٢.

(٦) ابن النديم: الفهرست ص٨٦.

ثانياً: إنّ القبائل التي أخذت منها اللغة هي قبائل معروفة بقوتها وسطوتها، وهذه القبائل تُعدّ من جمرات العرب الكبرى، وهنّ من ذوات النزعة العصبيّة الجديدة في بلاد الفتح، وهل يجرؤ أحدهم على تركها، ولا يغفل حقيقة أنّ بعض ما تبقى من هذه القبائل ظلّ منعزلاً على أطراف نجد، وبطاح مكة، فاحتفظت هذه القبائل بنماذج لغوية راقية تمثلت في شعرها. ومع هذا فلا يحقّ للفارابي حصر أخذ اللغة بهذه القبائل وحصر السماع منها؛ لأن اللغة للعرب جميعاً، فأسباب الأخذ عن هذه القبائل -كما قلت- سياسية على الأغلب ولنيل الشرف.

ثالثاً: أشارت الوثيقة إلى أنّ الأخذ قد تمّ عن بعض الطائيين وبعض كنانة، وأنا أتساءل: كيف يؤخذ عن نصف القبيلة ويترك النصف الآخر؟ ألا يوجد علاقات اجتماعية بين نصفي القبيلة، ألا يوجد مصاهرات ونسب وقرابة بين هؤلاء وهؤلاء؟ ثم مَن هم هؤلاء النصف؟ قد يقول قائل: إنهم سكان البادية، ولكن ما المقياس الذي اعتمده الفارابي للتمييز بين هؤلاء وأولئك علماً أنّ قبيلة كنانة -على سبيل المثال- تتكون من بطون كثيرة.. فأيّ هذه البطون كانت مجالاً للدراسة والأخذ؟

والحقيقة القاسية أنّ اهتمام اللغويين بالحجاز وتميم وبقية القبائل ضيّع علينا أكثر من نصف اللغة. وما جاءنا من اللغة غير لغة القبائل السابقة -أضاعوه وشرّدوه- تارة مهمل العزو، وأخرى تحت الشذوذ، وأحياناً باسم الندور (الندرة) وطوراً بين المسموع الذي يسمع ولا يقاس عليه! حتى جاءتنا بقية اللغات العربية وليدة مشوهة الخِلقة، مبتورة اليدين والقدمين، محرومة من النسب، ومصداق ذلك ما حكاه الصَّغَاني من أنّ في (هيهات)(١) ستاً وثلاثين لغة، ثم لا يعزو منها إلا صيغتين: واحدة لتميم، والأخرى للحجاز دون غيرهما. والمسؤولية تقع أحياناً على السماع وعلى جامعي اللغة حيناً آخر.

رابعاً: إن اعتماد اللغويين في أخذهم اللغة على قبائل معدودة هو اعتماد جانَبَه الصواب؛ لأنها لا تمثّل العربية تمثيلاً كاملاً، وإلاّ فأين هي من العرب المنتشرة في أرجاء الجزيرة العربية؟ قد تكون حجتهم الحرص الشديد على سلامة اللغة، وخوفهم من تسرّب اللحن إليها، ولكن يقف في سبيل ذلك أنّ اللحن وُجد بين قبائل العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. ثم إنّنا إذا اعتبرنا كل تعبير لهجي عن اللغة المتكلمة لحناً -فما أكثر اللحن الذي دخل على العربية الفصحى قبل الإسلام وبعده؛ لأن العرب وإن كان لهم قبل الإسلام لغة أدبية مُوحّدة- فقد كانت لهم لهجات للتخاطب، ومن العبث أنّ يظن أنّ الفصحى ظلت بعيدة عن آثار هذه اللهجات، فهي مختلطة بها مؤثرة ومتأثره، آخذة منها ومعطية. ولهذا خانهم التوفيق عندما بتروا هذه اللهجات بحجة أنّها لهجات سوقية، ومع أنّها كثيراً ما تفيدنا في حل مشكلات الفصحى، وتساعدنا في فهم العربيّة.

---

(١) الشيخ خالد الأزهري: التصريح على التوضيح، دار إحياء الكتب العربية ج٢، ص١٩٦،١٩٧.

وعندما حددوا الأخْذ عن قبائل معينه كان استقراؤهم محصوراً في نطاق ضيّق، وملاحظاتهم في فهم العربية محدودة، ولو أنّهم وسّعوا الأخذ عن القبائل العربية لتفتّحت أمامنا طرق جديدة في تاريخ عربيتنا، ولكان منهجهم منهجاً تسجيلياً يُسجّل كل الظواهر اللغوية المتنوعة.

وإذا كان أحد أئمة اللغة العربية(١) يعترف صراحة في أنّ الذي وصلنا من العربيّة النزر اليسير "وما انتهى إليكم مما قالته العرب إلاّ أقلّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير"(٢) فماذا يبقى من هذه العربية إذن بعد أنْ عزلوا وبتروا جميع القبائل التي رفضوا الأخذ عنها.

قد تكون حجتهم أنّ لهجات تلك القبائل غير فصيحة؛ لأنّهم كانوا يجاورون الأمم حولهم، فهم مختلطون بالأجانب، ولكن يقف في سبيلهم أيضاً أنّهم عدُّوا "أنّ قريشاً أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانة عما في النفس."(٣) كما يرى ابن فارس "أنّ قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة."(٤) مع أنّ قريشاً كانت لها جولات خارجية اتصلت فيها بالقبائل المتنوعة وبالأمم الأجنبيّة. يدل على ذلك رحلاتهم التجارية في الصيف والشتاء كما ورد في القرآن . فاتّصال قريش بالأمم المجاورة لم يمنع أنْ تكون لهجتها فصيحة بل أفصح العرب كما يقولون.

---

(١) هو أبو عمرو بن العلاء المازني التميمي،أحد القراء السبعة(ت ١٥٤هـ-٧٧١م) طبقات القراء، ج١ ص٢٨٨.

(٢) السيوطي: الاقتراح ص٢٣ .

(٣) السيوطي: المزهر ج١ ص٢١١، الاقتراح ص١٩.

(٤) ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة، ص٢٣ وانظر المزهر ج١ ص٢١٠ .

(٤) القبائل التي لم تسمع منها اللغة.

نقل أبو حيان الأندلسي عن الفارابي ما يفيد أنّ الرواة لم يأخذوا في الاعتبار لغات قبائل كثيرة، ثم أخذ يُعدّد القبائل فيقول[١]: وبالجملة فإنّه لم يؤخذ عن حضريّ قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم. فإنّه لم يؤخذ عن:-

١- لخم ولا من جذام، لأنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط.

٢- ولا من قضاعة، ولا من غسان ولا من أياد؛ فإنّهم كانوا مجاورين لأهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرأون في صلاتهم بغير العربية.

٣- ولا من تغلب ولا النمر، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية.

٤- ولا من بكر؛ فإنّهم كانوا مجاورين للنبط والفرس.

٥- ولا من عبد القيس؛ لأنّهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند والفرس.

٦- ولا من أزد عمان؛ لأنهم كانوا مخالطين للهند والفرس.

٧- ولا من أهل اليمن أصلاً؛ لمخالطتهم للهند والحبشة.

٨- ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة.

٩- ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم.

١٠- ولا من حاضرة الحجاز.

وبهذا يكون علماء العربية قد ضيقوا المنافذ حين حصروا أخذ اللغة عن "**قيس وتميم وأسد، فإنّ هؤلاء هم أكثر ما أخذ عنهم ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب، والتصريف. ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين.**"[٢]

فالسبب الرئيسي الذي دفع اللغويين إلى عدم الأخذ عن القبائل السابقة هو **اتصالها بالأمم المجاورة**، وهذا في رأي اللغويين يمنع أن تكون لهجة تلك القبائل فصيحة. ولكنّا نرفض استبعاد الأخذ عن هذه القبائل لسببين اثنين هما:-

أولهما: أنّ لغات هذه القبائل التي رفض اللغويون الرواة الأخذ عنها أجدها متمثلة في القرآن الكريم. فلغة غسان وردت في القرآن ثلاث مرات[٣]

---

[١] أبو حيان الأندلسي: تذكرة النحاة، ص٥٧٤.

[٢] المصدر السابق ص٥٧٤.

[٣] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م، ج٢ ص٩٩. وسيشار إليه فيما بعد بـ (السيوطي: الإتقان).

ولغة عُمان وردت سبع مرات[١] ولغة بني حنيفة ثلاث مرات[٢]، ولغة خزاعة مرتين[٣] ولغة لخم مرتين[٤] كما ورد عن ابن عباس أنّ من القبائل التي ورد القرآن بلغتها..ثقيف[٥]

وعن عمر "لا يملين في مصاحفنا إلاّ غلمان قريش وثقيف"[٦] وقول عثمان: "اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف:[٧]، كما أثبت أنّ القرآن بعضه بلغة جذام[٨]، وبعضه بلغة اليمن[٩]، وبعضه بلغة قضاعة[١٠]، وبعضه بلغة اليمامة[١١]، وبعضه بلغة النمر[١٢]، ولكن كل ما في الأمر أنّ بعض اللهجات أسعد به من بعض وأكثر نصيباً. **ومن هذه الروايات أرى أنّ لهجات هذه القبائل العربية فصيحة -على عكس- ما رأى علماء العربية؛ لأنها موجودة في القرآن. ولهذا أطعن في مقياس الفصاحة الذي وضعه علماء العربية، ووزنوا به لهجات العرب.**

ثانيهما: أنّ بعضاً من أئمة العربية قد استشهدوا بلغات هذه القبائل. ومنهم ابن مالك، حيث اعتمد على لغات لخم وخزاعة وقضاعة[١٣] وقد يكون اعتماد علماء العربية على القبائل التي أخذوا منها.. أنها بدوية، وهم دائماً يربطون بين الفصاحة والبداوة. ولكنني أرى أنّ بداوة اللهجة لا يعني أنها هي الفصحى دون غيرها؛ لأنّ سمة الفصاحة لم يستأثر بها البدو وحدهم. فقد قرر (ابن بسام) أنه كثيراً ما سمع من الأعراب ألفاظاً مستكرهة قبيحة[١٤] كما أنّ النظرة تغيرت كثيراً بالنسبة إلى لغة البدو. بحيث لم تعد تحوط البداوة بذلك الإطار البديع من الكلف والشغف[١٥].

---

[١] السيوطي: الإتقان، ج٢ ص٩٧.

[٢] المصدر السابق ج٢ ص١٠٠.

[٣] المصدر السابق ج٢ ص١٠٠.

[٤] المصدر السابق ج٢ ص٩٩.

[٥] المصدر السابق ج٢ ص ١٠٢،١٠٣.

[٦] السيوطي: المزهر ج١ ص ٢١١.

[٧] المصدر السابق ج١ ص ٢١١.

[٨] السيوطي: الإتقان ج٢ ص ١٠٠.

[٩] المصدر السابق ج٢ ص ٩١.

[١٠] المصدر السابق ج٢ ص ١٠٢.

[١١] المصدر السابق ج٢ ص١٠٠.

[١٢] المصدر السابق ج٢ ص ١٠٢.

[١٣] السيوطي: الإقتراح ص ٢٠.

[١٤] فك: العربية ص ١٦٣.

[١٥] المرجع السابق، ص ١٦٣.

والدليل على ذلك ما رواه ابن جني[1] وقد كان طرأ علينا أحد من يَدَّعي الفصاحة البدوية، فتلقينا كلامه بالقبول له، وميّزناه تمييزاً حسَن في النفوس موقعه، إلى أن أنشدني يوماً شعراً لنفسه يقول في بعض قوافيه "**أشنوءها**"، و"**أدأوُها**" بوزن أشعصها وأدعصها.. فيجمع بين الهمزتين كما نرى" ويُعَقّب ابن جني على رواية هذا الأعرابي البدوي بقوله: "وهذا ما لا يبيحه قياس، ورد بمثله سماع"[2]

فمع أنّ هذا الرجل أعرابي بدويّ، إلاّ أنّ هذا لم يشفع له؛ حيث امتنع ابن جني عن التلقّي عنه، بعد أنْ نال من فصاحته. فالفصاحة إذن ليست مقصورة على البدو وحدهم بدليل قول ابن جني: "ولو علم أنّ أهل مدينة باقون على فصاحتهم، ولم يعترض شيءٌ من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم، كما يؤخذ عن أهل الوبر".[3] **فالقول بأنّ لغة البدو أفصح من غيرها من لهجات الحضر قول -في ظني- ينقصه الدليل والبرهان، ولا يثبت أمام الواقع كثيراً.**

ومقياس الفصاحة -كما أراه- لا يتّصل بالبداوة والحضارة؛ لأننا رأينا فيما تقدّم بدواً فسَدت لهجاتهم، وإنّما يجب أن يكون المقياس هو الوثوق من صحة وسلامة لغة المحتج به بدوياً كان أم حضرياً، وإذا كان ابن جني أجاز الأخذ عن العربي لو انفرد بشيءٍ لا تعرفه قبيلته ولا غيرها ما دام غير مُتَّهم، فلنا أنْ نقبله منه؛ لأنه إمّا أن يكون شيئاً أخذه عمن ينطق بلغة قديمة لم يشارك في سماع ذلك منه .. وإمّا أن يكون شيئاً ارتجله".[4] ولو قد سمعوا ما يراه ابن جني من مدينة عن "اختلاف اللغات وكلها حجّة"[5] فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيبٌ غير مخطئ[6] وقول أبي حيّان: "كل ما كان لغة لقبيلة قيس عليه"[7] لسجّلوا لغات القبائل جميعها حفاظاً على تاريخ أمة العرب.

وفي ظَنّي أنّ الاختلاف الذي ظهر في أيّ القبائل أفصح أهي قريش أم غيرها؟ لا يطمئننا على قائمة الفارابي؛ لأنّها تتعارض مع هذه الروايات، على أنّ قائمة الفارابي تحمل في ثناياها تعصباً للقبائل المشهورة ذائعة الصيت في المجتمع العربي، بدليل أنّ القبائل العربية المغمورة والتي لم ترزق حظاً من الشهرة لم يأخذوا عنها.

---

[1] ابن جني: الخصائص ج٢ ص٥.

[2] المصدر السابق ج٢ ص٦.

[3] المصدر السابق ج٢ ص٥.

[4] المصدر السابق، ج٢ ص ٢٤.

[5] المصدر السابق ج٢ ص١٠

[6] المصدر السابق ج٢ ص١٢

[7] السيوطي: المزهر ج١ ص٢٥٨

وفي ظني أنَّ علماء البصرة كانت لديهم حساسية لغير وثيقة الفارابي، وتلك الحساسية تجلَّت واضحة في عقول البصريين عندما رأت بعض الدوائر العلمية الممثلة في رجال الكوفة أن تتوسع في الأخذ، فأدخلت قبائل استنكفت الدوائر البصرية أنْ تأخذ منها، فقد أورد الرياشي البصري أنَّه قال: "إنما أخذنا اللغة من حرشة الضباب، وأكلة اليرابيع، وهؤلاء (يقصد الكوفيين) أخذوا اللغة من أهل السواد أكلة الكواميخ والشواريز"[1] كما وجدنا هذه الحساسية تظهر بوضوح وتتحول إلى هجوم في وجه الكسائي -زعيم المدرسة الكوفية-. فقد ذكر محمد بن يزيد عن المازني عن أبي زيد قوله: "قدم الكسائي إلى البصرة، فأخذ عن أبي عمرو ويونس وعيسى بن عمر علماً كثيراً صحيحاً، ثم خرج إلى بغداد، فقدم أعراب الحطمة فأخذ عنهم شيئاً فاسداً فخلط هذا بذاك فأفسده[2] وهذه التهم التي يوجهها البصريون إلى علماء الكوفة لا سيما الكسائي لا دليل عليها؛ لأن الكسائي رأى أنّ تلك القبائل لا يصح إغفالها لأنّ أصحابها عرب يعيشون على ارض عربية، ويتكلمون لغة عربية. ولله درّ ابن منظور حيث قال: "كل من سكن بلاد العرب وجزيرتهم، ونطق بلسان أهلها فهم عرب بمنهم ومعدهم".[3] وقد ثبت أنّ الكسائي لم يقصر جمعه على تلك القبائل. بل جاء في "بغية الوعاة" أنّه خرج إلى البصرة، فلقي الخليل، وجلس في حلقته.. ثم قال للخليل: "من أين أخذت علمك هذا ؟ فقال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فخرج ورجع وقد أنفذ خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ. فقدم البصرة، فوجد الخليل قد مات، وفي موضعه يونس، فجرت بينهما مسائل أقرّ له فيها يونس بالصبدارة في موضعه."[4] ويقول أبو زيد الأنصاري: "ما جرّبت على الكسائي كذبة قط."[5] ولعلّ الحساسية الشديدة والتّهم الموجهة إلى رجال الكوفة من علماء البصرة منشؤها العصبية.

وفي ظني أيضاً، أنَّ الكوفيين أشدُّ احتراماً لما ورد عن لهجات القبائل، فلم يهملوا شيئاً، ولهذا كان رجال الكوفة لمّاحين لطبيعة اللغة، وفهمها فهماً أصيلاً؛ لأنَّ كل لغة تُمثل حقلاً لغوياً لا يصح إهداره، ولا شك أنَّ أيَّ لغة من تِلك اللغات المغمورة قد أمدَّت الفصحى بروافد غنيّة، إضافة إلى الإضافات الكثيرة في الدلالة والمستوى الصرفي والصوتي. ولهذا انتصر الكسائي على سيبويه في المناظرة التي وقعت بينهما، وشايعت قبائل العربي الكسائي؛ لأنَّ الكوفيين وعلى رأسهم زعيم مدرستهم قد توسَّعوا في الأخذ عن مصادر أسقطها البصريون.

---

[1] السيرافي: أخبار النحويين البصريين، ص٩٩، والكامخ أدم يؤكل لتشهي الطعام، والشواريز جمع شيراز وهو اللبن الرائب، واليربوع حيوان على هيئة الجرذ.

[2] المصدر السابق ص٧١.

[3] ابن منظور: لسان العرب، باب عرب.

[4] السيوطي: بغية الوعاة، ص٣٣٦.

[5] أمين: ضحى الإسلام ج٢ ص٣٠٧.

ولعل من القضايا المهمة اللافتة للنظر في القسم الثاني من الوثيقة قضية المجاورة والدين والحضريّة؛ حيث نجده يقول: ".. فإنّه لم يؤخذ عن حضريّ قط.. ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم.. وأكثرهم نصارى يقرأون في صلاتهم بغير العربية." **وهو إذ يشير إلى قضية المجاورة والحضرية والدين كحجة مانعة للاحتجاج، فإنه يغفل أنّ العرب كانوا يجاورون الأمم منذ الجاهلية. فحواضر الحيرة المجاورة للفرس كانت تعجُّ بشعراء العرب، من أمثال النابغة والمرقش الأكبر، والمتلّمس وغيرهم كطرفة وعنترة، وعبيد بن الأبرص والذي قتله المنذر في يوم ندامته.**[1]

كذلك لم تؤخذ اللغة عن ثقيف لأنّ لها علاقات تجارية مع غيرها، وكذلك لم تؤخذ اللغة عن بني حنيفة واليمامة لمجاورتهم اليونان، وأين اليونان من اليمامة، وهل هم بعيدون عن رواة اللغة أنفسهم الذين يعيشون في العراق وسواد شعبها يتكلم النبطية وأصولهم تغوص في اللغة السريانية في أديرة الحيرة وغيرها. أم أنْ أولئك احتج بشعرهم وسمع هذا الشعر لأنهم قدماء على عادة علماء اللغة في تقديم السابقين من الشعراء على معاصريهم، وشفع لهم القدمُ اختلاطهم بالأمم المجاورة !!

وهل استفادة اللغة من أخواتها يفسدها !! وهل مخالطة الأمم مدعاة لفساد اللغة !! ربما يصح هذا على من سكن في بلاد فارس، واستخدم تراكيب فارسية جديدة غير عربية في لغته، ولا أعتقد أنّ هذا يضرُّ إنساناً يسكن أطراف البراري؛ إذ لو اكتسب كلمة أو عدة كلمات فإنّ هذا لا يضرُّ بالنظام النحويّ العام الذي تسير عليه اللغة فطرياً.

ودعنا نؤمن أنّ الاختلاط بالمجاورة المكانية أو الدينية يفسد اللغة، فهل كانت مكة بمنجاة من اختلاط العرب فيها بغيرهم ؟ وهي مهوى أفئدة المسلمين على اختلاف لغاتهم وأجناسهم وتباين ألسنتهم ؟ إنّني لا أعتقد ذلك البتّة، فلماذا تُعَدُّ لغتها الأفصح من بين اللغات ؟! وربما قال قائل: لم تؤخذ اللغة عن أهل مكة، وإنّما أخذت اللغة عن قريش، ولذلك لم تؤخذ اللغة عن أهلها (مكة) الذين كانوا أفصح العرب ذلك أنّها حاضرة الحجاز[2]. وقد يخالف هذا القول المنطق، فكم تبعد قريش أو بني أسد عن مكة ؟ أفلا يأتي هؤلاء للحج أو لشراء بعض حاجياتهم من مكة، أفلا يأتون للصلاة في كل جمعة، أو لزيارة أقاربهم ؟ وأعتقد أنّ الاختلاط سيحصل في مكة أو في نجد أو على أطراف الجزيرة بشكل متفاوت، والاختلاط في ظنّي لا يضير شيئاً، وإنما هو التشدد

---

[1] ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم(ت ٢٧٦هـ-٨٩٠م): الشعر والشعراء، تح. أحمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦م، ج١ ص٢٦٧. وسيشار إليه فيما بعد بـ(ابن قتيبة: الشعر والشعراء).

[2] انظر رفيدة، إبراهيم عبدالله: أصالة اللغة العربية وعلومها، مقال في مجلة الفكر العربي ٤: ٢٦ (٣/١٩٨٢م) ص٤-٣٩، وسيشار إليه فيما بعد بـ(رفيدة: أصالة اللغة العربية).

الذي لا داعي له إلاّ الخوف من المعاصرة، والتنافس على الأنقى والأبعد عن الكوفة والبصرة لإثبات أهليّة علماء اللغة وعنتهم في جمع اللغة ونقائها.

هذا وقد نتج عن أخذ اللغة عن قبائل دون أخرى عددٌ من العيوب أهمها:-

١- أدى هذا الأخذ عن قبائل دون أخرى إلى اختلاف اللغويين في تحديد اللهجة الفصيحة، فعلى حين يراها أبو عمرو بن العلاء في عليا هوازن، وسفلى تميم، يراها الفراء[١] وثعلب[٢]، وابن فارس[٣] في لهجة قريش.

غير أنّ الصنيع لم يكن يجري بالدّقة العلمية المطلوبة، فكثيرا ما نجد النحاة يروون عن العرب كافة وبلا تحديدٍ لقبيلةٍ معينة، وجعلوا ما قيس على كلام العرب فصيحاً صحيحاً.[٤] ويعطينا سيبويه مثالاً صادقاً عن هذا. فهو يميل إلى لغة الحجاز، ويراها "اللغة الأولى القديمة"[٥] وينعتها بـ "القديمة الجيّدة"[٦]، ولكنه غالباً ما يكتفي بعبارات عامة لا تحدد القبيلة المأخوذ عنها مثل: "العرب الذين ترضى عربيتهم"[٧] أو "العرب الموثوق بعربيتهم"[٨] ونراه يحتج بشعر عدي بن زيد، وأمية بن أبي الصلت، ويعتمد شعر الطرماح والكميت وزياد الأعجم وأبي عطاء السندي، ولغة هؤلاء لا تصلح عند أمثال الأصمعي للاحتجاج.

٢- لم يكن تحديد قبائل بذاتها لأخذ اللغة عنها، والإعراض عن سواها قائماً على أساسٍ من المستوى اللغوي بقدر ما كان حرصاً على أنْ تكون اللغة المأخوذة عربية خالصة من التأثيرات الأجنبية، ومن ناحية ثانية فإنّ توسيع دائرة الأخذ لتشمل ست قبائل عربية هي: تميم، وقيس، وأسد وهذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين[٩] كان من مصادر عيوب النحو وصعوباته، لأنّ لغات القبائل تختلف فيما بينها في قليل أو كثير، كما قد تختلف عن باقي القبائل التي لم يأخذوا عنها[١٠]

---

[١] السيوطي: المزهر، ج١ ص٢١١.

[٢] السيوطي: الإقتراح، ص٨٣.

[٣] ابن فارس: الصاحبي، ص٢٣.

[٤] ابن جني: الخصائص، ج١ ص٣٥٧، ج٢ ص٢٥.

[٥] سيبويه: الكتاب، ج٣ ص٢٧٨.

[٦] المصدر السابق، ج٤ ص٤٣٧.

[٧] المصدر السابق، ج١ ص١٨٢، ج٤ ص٤٧١.

[٨] المصدر السابق، ج١ ص٣٠٤، ج٣ ص٩٨، ج٤ ص١٢٨.

[٩] السيوطي: المزهر ج١ ص١٣٩.

[١٠] حسن، عباس: اللغة والنحو بين القديم والحديث، دار المعارف بمصر ط٢/١٩٧١، ص٦٣، ٦٤، وسيشار إليه فيما بعد بـ (حسن: اللغة والنحو بين القديم والحديث).

٣- إنّ القبائل التي لم تسمع منها اللغة هي قبائل عربية أصيلة، وأنّها تملك من اللغة أضعاف ما تملكه القبائل الست -التي وُصفت بأنّها لم تختلط بغيرها من القبائل- وأنّه لا يعيبها أن تسكن الحضر، وأطراف البلاد، وتقارب الأعاجم والنصارى هناك؛ لأنّها بحكم أصالتها العربية وأنّها من أهل شبه الجزيرة العربية الخُلّص، تملك كغيرها أن تنشئ الكلمات إنشاء وتخترعها ابتداءً بل لكل فرد منها ذلك ما دام بعيداً عن التجريح (أي متهماً بالغفلة أو الجنون أو الكذب أو المرض) لها أنْ تأخذ كغيرها من لغات العجم ما تشاء فتنقله إلى لغتها باسم "المعّرب" -وقد أخذت- وإلاّ جمدت اللغة وتحجّرت، وانطوى أهلها عن أنفسهم منعزلين.[١]

٤- إنّ الأخذ عن القبائل الست دون سواها قد ولّد مشاكل عديدة منها:-

أ. أن ينطق عربيّ من تلك القبائل الست بلغة معينة معروفة النسب، ولكنها لقبيلة غير قبيلته.

ب. أنْ ينطق عربي منها بلغة قبيلة معينة وغير معروفة الاسم والكنية المميز لها من سواها، فإذا نطق أحدهما بما يخالف ما جمعه اللغويون، وما استنبطه النحاة من هذه اللغة المجمّعة كان كلامه مرفوضاً عند الجامعين، محكوماً عليه عند النحاة بالحكم المُسلّط على نظائره وهو الشذوذ أو الندرة أو التأويل أو الضعف أو الخطأ مع أنّ الأعرابي لا يخطئ كما صرح بذلك سيبويه "إنّ العربيّ لا ينطق بالخطأ، ويجوز أن ينطق بغير لغته.[٢]

٥- عدم التزام اللغويين بالمستوى المعيّن الذي كانت ترتكز حوله جهودهم، وهو مستوى لغة القرآن، والحديث الشريف، وكلام العرب شعرهم ونثرهم. أي مستوى اللغة الأدبية. وقد جاء هذا نتيجة إيمانهم بفكرة أنّ العربية في سليقة ألْسُن العرب جميعاً، لا فرق بين صغير أو كبير، أو رجل وامرأة، ولا بين من مارس اللغة في أرقى مستوياتها كأن يكون شاعراً أو خطيباً.. ومن لم يتح له استخدامها إلاّ في نطاق ضيق وساذج لا يتعدى مطالب الحياة اليومية، ومَن ثم لم يتورعوا عن الأخذ عن الصبيان.[٣]

ثالثاً:- أثرُ الوثيقة في علماء العربية.

يرى كثيرٌ من علماء اللغة المحدثين أنّ أكثر من عشرين عالماً وضعوا نصّ الفارابي موضع الاحترام والتقدير، بل نظروا إليه نظرة تقديس.. فالمتتبّع للمؤلفات اللغوية والأدبية يلحظ التزام كثير من اللغويين بما أشاروا إليه.

فقد التزم محمد بن سلاّم الجمحي (ت٢٣١هـ-٨٤٦م) في كتابه بالحديث عن الشعراء الجاهليين والإسلاميين، ولم يتعرّض للمحدثين. وبذلك يخرجهم خارج دائرة الشعر، فنراه يقول: "ذكرنا العرب وأشعارها، والمشهورين والمعروفين من شعرائها وفرسانها، وأشرافها، وأيامها،

---

[١] حسن: اللغة والنحو بين القديم والحديث، ص٧٩.

[٢] أنظر المرجع السابق، ص ٨٣-٨٦.

[٣] أنظر السيوطي: المزهر ج١ ص١٣٩.

فاختصرنا في ذلك على ما لا يجهله عالم، ولا يستغني عن علمه ناظر في أمر العرب، فبدأنا بالشعر".[1] ولا يورد للمحدثين شيئاً وكأنهم ليسوا من العرب.

وكذلك فعل الجاحظ (ت٢٥٥هـ-٨٦٩م) عندما نعت بشاراً والسيد الحميري وأبا العتاهية بالمولدين وهو لم يحتج لهم رغم أنه مدحهم حيث يقول[2] :"لم يكن من المولّدين أصوب من بشار وابن هرمة"[3]

وفي "الشعر والشعراء" حاول ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ-٨٨٦م) الخروج عن منهج ابن سلام والترجمة للشعراء على أساس من الجودة الفنيّة، فترجم لابن هرمه الذي يقول فيه الأصمعي: "ساقة الشعراء ابن ميّادة، وابن هرمه ورؤبة وحكم الخضري (حي من محارب) ومكين العذري، وقد رأيتهم أجمعين."[4] وترجم أيضاً لعدد من الشعراء المحدثين مثل العماني وبشار بن برد، وسديف بن ميمون، ومروان بن أبي حفصه، وأبو عطاء السندي، وابن ميّادة، وأبو حيّة النميري، وأبو دلامة وغيرهم[5]

وفي (أدب الكاتب) لم يحتج ابن قتيبه بشعر المحدثين إلاّ**بيت** لأبي العطاء السندي (ت١٨٠هـ-٧٩٦م) يقول فيه:

عَشيّةَ قامَ النائحاتُ وشُقّقَت جيوبٌ بأيدي مَأتَمٍ وخدودْ[6]

وشطر للعماني: **ترى له عظم وظيف أحدبا** علماً أنّ (أدب الكاتب) اشتمل على ٤٢١ شاهداً شعرياً.

لكن الجرجاني في كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه" يحاول إنصاف المحدثين فيقول: "ولست أفضّل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والأعرابي والمولد إلاّ أنني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمسّ"[7]

---

[1] الجمحي: طبقات فحول الشعراء ج١ ص٣.

[2] الجاحظ: البيان والتبيين، تح. عبد السلام محمد هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧ ج١ ص٥٥، وسيشار إليه فيما بعد بـ (الجاحظ: البيان والتبيين).

[3] ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج٢ ص٧٥٣.

[4] المصدر السابق ج٢ ص٧٥٥ إلى نهاية الكتاب.

[5] ابن قتيبه: أدب الكاتب، تح. علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان ١٩٨٨م ص٢٦، وسيشار إليه فيما بعد بـ (ابن قتيبة: أدب الكاتب).

[6] المصدر السابق ص٩٢.

[7] الجرجاني، علي بن عبد العزيز (ت٣٦٦هـ-٩٧٧م): الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، ط١٩٦٦م ص١٥، وسيشار إليه فيما بعد بـ (الجرجاني: الوساطة).

وابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ-١٠٦٤م) يعقد باباً في عمدته للقدماء والمحدثين. وفي حديثه عن تفضيل الأصمعي وابن الأعرابي يقول: "إنّ كل واحد منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب، ويقدم مَنْ قبلهم -وليس ذلك لشيء إلاّ لحاجتهم في الشعر إلى الشاهد، وقلّة ثقتهم بما يأتي به المولّدون، ثم صارت لجاجة".[١]

أمّا النحاة فقد تجنبوا الاحتجاج بشعر المحدثين امتثالاً لآراء البصريين المتمثلة في وثيقة الفارابي. فلم يحتج سيبويه (ت١٨٠هـ-٧٩٦م) بأشعار المحدثين، وأنّ قيل أنّه احتج بشعر بشار خوفاً منه، علماً أنّه لا يوجد في "الكتاب" ما يثبت ذلك، ففي "الكتاب" -والذي بلغت شواهده ألفاً وخمسين- لا يوجد فيه من الاحتجاج بشعر المولدين إلاّ ثلاثة شواهد هي:[٢]

-بيت خلف الأحمر (ت١٨٠هـ-٧٩٦م)

ومنهلٍ ليس له حوازقُ ولضفادي جَمّه نقانقُ.

- والبيت الذي ينسب لمروان النحوي (ت١٩٠هـ-٨٠٦)

ألقي الصحيفةَ كي يُخفّف رَحْلَه والزاد حتى نَعْلهِ ألقاها.

-والبيت المنسوب لـ(أبان اللاحقي) (ت٢٠٠هـ-٨١٥م).

حذرٌ أموراً لا تخاف وآمنٌ ما ليس مُنجيه من الأقدارِ.

كما أنّ أبا العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ-٨٩٨م) لم يحتج في كتابه "المقتضب" بشعر المولدين سوى بيت واحد لخلف الأحمر السابق ذكره.[٣]

وكذلك لم يحتج أبو بكر محمد بن سهل السّراج (ت٣١٦هـ-٩٢٨م) في كتابه "الأصول في النحو" بشعر المولدين إلا ببيت مروان النحوي المشار إليه في كتاب سيبويه.[٤]

أيضاً نجد أبا القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجاجي (ت٣٣٩هـ-٩٥٠م)[٥]، قد تأثر بمضمون الوثيقة، في كتابه "الجمل في النحو" وكذلك شرحه الكبير لابن عصفور الاشبيلي ليس فيهما من شواهد المولدين في النحو إلاّ بيتي اللاحقي ومروان اللذين جاءا في كتاب سيبويه.

---

[١] القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح. محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل-بيروت/لبنان،ط٥/١٤٠١هـ-١٩٨١م، ج١ص٩١. وسيشار إليه فيما بعد بـ(القيرواني: العمدة).

[٢] جبل، محمد حسن: الاحتجاج بالشعر في اللغة والدلالة، دار الفكر العربي، القاهرة، ص٩٣، وسيشار إليه فيما بعد بـ (جبل: الاحتجاج بالشعر في اللغة).

[٣] المرجع السابق، ص٩٣.

[٤] السراج: أبو بكر محمد بن سهل (ت٣١٦هـ-٩٢٨م) الأصول في النحو، تح. د.عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة ١٩٨٥م ج١ ص٤٢٥، وسيشار إليه فيما بعد بـ (السراج:الأصول في النحو).

[٥] الزجاجي: ابو القاسم، عبد الرحمن بن اسحق (ت٣٤٠هـ-٩٥٢م): الجمل في النحو، تح. د.علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة ودار الامل ط١/١٩٨٤، ص٦٩،٩٣، وسيشار إليه فيما بعد بـ (الزجاجي: الجمل في النحو).

كذلك ظهر أثر الوثيقة عند أبي علي الفارسي (ت٣٧٧هـ-٩٨٧م)[١] في كتابه "المسائل المشكلة"؛ حيث لم يظهر فيه من تلك الاحتجاجات إلاّ شاهد خلف الأحمر وكذلك نجد ابن جني متأثراً بما جاء في الوثيقة، فلم يحتج في كتابه "اللمع في النحو"[٢] بشعر المولدين إلاّ ببيت مروان السابق ذكره.

ومن القرن الرابع أبو محمد عبد الله بن علي الصيمري الذي لم يحتج بشعر المولدين في كتابه "التبصرة والتذكرة" إلا أبيات اللاحقي وخلف الأحمر، ومروان التي جاءت في كتاب سيبويه[٣]، ولم يكن أثر الوثيقة قد أصاب النحويين فقط، فقد وصل أثرها إلى اللغويين، ومن الأمثلة على ذلك: لم يحتج أبو عبيدة (ت٢١٠هـ-٨٢٥م) في كتابه "مجاز القرآن" بشعر المولدين إلاّ بيتاً واحداً لمطيع بن إياس (ت١٧٠هـ-٧٨٦م) مع أنّ فيه نحو ألفاً ومئة وخمسين شاهداً.[٤]

وليس في كتاب الأخفش الأوسط (ت٢١٥هـ-٨٣٠م) "معاني القرآن" أية احتجاجات لغوية بشعراء مولدين مع أنّ فيه ٣١٧ شاهداً لغوياً.[٥]

وليس في كتاب "الأمثال" لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ-٨٣٩م)[٦] من الاحتجاجات اللغوية بشعر المولدين إلاّ بيتاً لبشار جعل مثلاً مع أنّه يشتمل على ٢٣١ شاهداً. وكذلك لم يرد في كتابه "غريب الحديث" أية احتجاجات لغوية بشعر المولدين مع أنّه يشتمل على ٩٠٠ شاهد.[٧]

كما خلا كتاب "إصلاح المنطق" لأبي يوسف يعقوب بن السكيت (ت٢٤٤هـ-٨٥٨م) أية احتجاجات لغوية بشعر المولدين مع أنّ فيه ما يقارب ستمائة شاهد[٨]

---

[١] الفارسي، أبو علي الحسين بن أحمد (ت٣٧٧هـ-٩٨٧م): المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات، دراسة وتحقيق صلاح الدين عبدالله السكاوي، مطبعة العاني-بغداد ١٩٨٣م ص١٦١.

[٢] ابن جني: اللمع في النحو، تح د. فائز فارس، دار الأمل للنشر والتوزيع ط٢/١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص٤٥، وسيشار إليه فيما بعد بـ (ابن جني: اللمع في النحو).

[٣] الصيمري، أبو محمد، عبداله بن علي: التبصرة والتذكرة، تح. د.فتحي أحمد مصطفى علي، دار الفكر-دمشق ط١/١٩٨٢م، ج١ ص٢٢٧، ج٢ ص٤٢٣،٨٣٧.

[٤] أبو عبيدة: مجاز القرآن، ج٢ ص١٦٩ "لا فيها غول..." الصافات ٤٧، الغول: أن تغتال عقولهم قال الشاعر:

وما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأوّل الأوّل رقم ٧٧٣.

[٥] الأخفش الأوسط، أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي (ت٢١٥هـ-٨٣١م): معاني القرآن، تح. د.فائز فارس. أنظر فهارس الشعراء والأشعار فيه، ج٢ ص٥٨٢-٦٠١.

[٦] أبو عبيد الهروي، القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ-٨٣٩م): الأمثال، تح. عبد المجيد قطامش، دار المأمونن للتراث-دمشق،١٩٨٠، ص١٨٣، والشاهد: وليس عتاب الناس للمرء نافعاً إذا لم يكن للمرء لبٌّ يعاتبه.

[٧] أبو عبيد الهروي: غريب الحديث، ط١/١٤٠٦هـ-١٢٨٦م، دار الكتب العلمية-بيروت، ص٢٨.

[٨] ابن السكيت: إصلاح المنطق، ص٤٨٤ وما بعدها.

وليس في "غريب الحديث" لأبي محمد عبدالله بن مسلم قتيبة (ت٢٧٦هـ-٨٨٩م) من الاحتجاجات اللغوية بشعر المولدين إلاّ بيتاً واحداً للحسين بن مطير ت١٧٠هـ-٧٨٦م)

وله ربابٌ هيدبٌ لرفيفه قبل التبعّق ديمةٌ وطفاء[١]

وليس في "الأضداد" لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت٣٢٧-٩٣٩م) أية احتجاجات لغوية بشعر المولدين إلاّ بيتاً واحداً لعمارة بن عقيل (ت٢٣٩هـ-٨٥٣م)[٢] وهو:

ترى الضيف بالصلعاء تفسقُ عينُه من الجوع حتى تحسبَ الضيفَ أرمدا

إنّني أعتقد أنّ الذين قالوا إنّ وثيقة الفارابي قد أثّرت في كثير من اللغويين والنحويين...الخ قد أخطأوا، ولم يقفوا طويلاً أمام مقولتهم فاحصين إياها.. فقد غُرّ الدارسون بما وجدوا أولئك العلماء من قلّة استشهادهم أو احتجاجهم بشعر المحدثين معتقدين لأول وهلة أنّ هناك صلةً بين قلّة الاستشهاد وما ورد في وثيقة أبي نصر.

ولنفرض جدلاً صحة وثيقة أبي نصر الفارابي، فهل ما نجده عند ابن خلدون الذي جاء بعد الفارابي بسنين طويلة هو نتيجة تأثر ابن خلدون بالفارابي؟ فالدارس لمقدمة ابن خلدون يتوقف بالنص التالي: "**ولهذا كانت قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتها، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان، وبني أسد وبني تميم. وأما من بَعُد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة لمخالطة الأعاجم، وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج والفساد من أهل الصناعة العربية.**"[٣]

ولنفرض جدلاً صحة الوثيقتين وعند الموازنة بينهما نجد ما يلي:-

١- اختلاف الوثيقتين في الفكرة، إذ تؤكد الوثيقة الأولى (وثيقة أبي النصر) على أن عدم سماع اللغة من قبائل دون أخرى سببه الاختلاط بالأجانب، بينما يبدو أن ابتعاد القبائل عن قريش كان سبب عدم سماع اللغة وأخذها كما أوضح ابن خلدون حين قال: "وعلى نسبة بُعدهم من قريش كان الاحتجاج والفساد عن أهل الصناعة العربية."[٤]

---

[١] ابن قتيبة: غريب الحديث، تح. د.عبد الهادي الجبوري، مطبعة العاني-بغداد ط١/١٣٩٧هـ-١٩٧٧م ج٢ ص٢٣٦.

[٢] ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم (ت٣٢٨هـ-٩٣٩م): الأضداد، تح. أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المكتبة العصرية، صيدا-بيروت/١٩٨٧م، ص٥،١٣٩.

[٣] ابن خلدون: المقدمة، ص٥٥٥.

[٤] أنظر ابن خلدون: المقدمة، ص٥٥٥.

٢- أشارت وثيقة الفارابي إلى القبائل التي تسمع منها اللغة وتؤخذ وهي:-

قيس عيلان، وتميم وأسد، وهذيل، وبعض طيء وبعض كنانة، أما القبائل التي لم تسمع منها اللغة وتؤخذ فهي: لخم، وقضاعة، وإياد، وتغلب، وبكر وعبد القيس وأهل اليمن، وبني حنيفة وحاضرة الحجاز والحضر وسكان البراري.[١]

بينما أشارت وثيقة ابن خلدون إلى أنّ القبائل العربية التي تسمع منها اللغة هي: قريش، وثقيف، وهذيل وخزاعة، وبني كنانة، وغطفان، وإياد وقضاعة وعرب اليمن ومن خالط العجم وبَعُد عن قريش.[٢]

إن نظرة فاحصة للقبائل نلمس أنّ هناك اختلافاً بينهما. ففي وثيقة الفارابي عُدّت "**ثقيف**" من القبائل التي لا تسمع منها اللغة لأنها تسكن الطائف، والطائف من حاضرة الحجاز، بينما عُدّت "**ثقيف**" في وثيقة ابن خلدون من القبائل التي أخذت عنها اللغة لقربها من قريش وبعدها عن العجم.

٣- ذكر ابن خلدون قبيلة خزاعة في القبائل الفصيحة التي سمعت منها اللغة، وهو الصواب، لأن خزاعة من القبائل الفصيحة التي قيل إنّ القرآن نزل بلسان الكعبين: كعب بن لؤي جدّ قريش، وكعب بن عمرو جدّ خزاعة، لأنّ دارهم كانت واحدة. ولكن الفارابي لم يذكرها في وثيقته[٣]

٤- وبالعودة إلى منهج أبي عمرو بن العلاء والأصمعي واللغويين الأوائل في تحديدهم لأمكنةالقبائل التي تسمع لغتها[٤] نرى أنّ هاتين الوثيقتين، وإنْ اختلفتا في أشياء، إلاّ أنّهما صدى لآراء الأوائل من اللغويين في تشددهم. والذين نظروا إلى قدسيّة نقاء اللغة باعتبار أنّ القبائل الأقرب إلى قريش هي الأفصح، أو لاعتبارات أخرى. أو ربما طوّرت هذه الوثيقة عند وضع وثيقة الفارابي لتخدم هدفاً سياسياً. ذلك أن القبائل التي تسمع لغتها ويحتج بشعرها أصبحت تشكل القوة في الدولة الجديدة ومن حقها أن ينسب الفضل لها في تأصيل النحو العربي من منطق قوتها قديماً (جمرات العرب) وحديثاً أحياء قيس.

٥- إنّ تحديد القبائل التي أخذت عنها اللغة في الوثيقتين أو التي لم تؤخذ عنها اللغة ليس شاملاً كل الشمول؛ لأنه أقرب إلى تمثيل المدرسة البصرية، ومنهجها المتشدّد في الرواية والقياس، يرفض المشكوك فيه من الروايات اللغوية وغير الموثوق بها والمرذول من اللهجات القبلية، ولكنه لا يصدق على منهج المدرسة الكوفية لتساهلها في الرواية، وإكثارها منها، وأخذها

---

[١] أبو حيان الأندلسي: تذكرة النحاة ص٥٧٤.

[٢] ابن خلدون: المقدمة ص٥٥٥.

[٣] رفيدة: أصالة اللغة العربية، ص١٧.

[٤] المرجع السابق ص٦.

عن بعض الأعراب الذين سكنوا قرى قريبة من بغداد وهم المسمّون بـ "أعراب الحُطمة"[1] فالوثيقتان تخضعان لمنهج البصرة، وليستا دقيقتين في تحديد القبائل ومتناقضتين في بعض مواقفهما، وهما صدى للآراء المتشددة من زعماء اللغويين البصريين.

وبصورة عامة كانت مدلولات الوثيقتين عامّة وغير محددة، يَلُفُّها الغموض في كثير من كلماتها. ولا يمكن اعتمادهما أساساً وقانوناً لا يتجاوز؛ ذلك أنّها تقتضي إلى قمع الحياة في اللغة، وتجعلها تثبت عند مكان وزمان معينين. وفي النهاية تنتهي إلى جمود اللغة وثباتها ثم موتها؛ ولهذا تجاوزها بعض اللغويين والنحويين في عصور لاحقة بصورة حَيِيَّة ومن مراحل التمثيل لا الشاهد وأعتقد أن حتمية التطور ستلغي وجود قمعية هذه الوثيقة إنْ لم يكن في الماضي أو الحاضر ففي المستقبل.

إضافة إلى ما سبق فإنّ ما جاء في الوثيقتين -إن جاز التعبير- يمثل إلى درجة كبيرة جداً موقف البصريين المتشدد الذي سنلحظه واضحاً أثناء الحديث عن أبي عمرو بن العلاء؛ حيث كان حذراً جداً عند سماعه اللغة، ولعل شدة خوف العلماء على هذه اللغة دفعهم إلى وضع ضوابط لناقل اللغة ومسموعها.. وعليه علينا ألاّ نستغرب إذا قلنا أنّ تشدد البصريين في مسألة الأخذ عن القبائل كان من الأمور المعروفة للقاصي والداني. ودليلنا على ذلك ما ورد عند ابن خلدون، فليس غريباً أن نجد آراء البصريين في فكر ابن خلدون لأنها معروفة للجميع. وهذا لا يعني بطبيعة الحال تأثر ابن خلدون بالفارابي؛ لأنه لو كان متأثراً به لوردت الوثيقة كاملة دون اضطراب.

---

[1] رفيدة: أصالة اللغة العربية، ص١٧.

الفصل الثالث

مصادر السَّماع

أولاً:- القرآن الكريم.

ثانياً:- الحديث النبوي الشريف.

ثالثاً:- كلام العرب: شعرهم ونثرهم.

لعلّ أوّل من أشار إلى مصادر السّماع صراحة السيوطي وذلك حين عرّف السّماع تعريفاً شاملاً حدد فيه ينابيع السّماع ومصادره فقال: "ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته، فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن، وكلام نبيّه ﷺ ،وكلام العرب قبل بعثته، وفي زمنه، وبعده إلى أنْ فسدت الألسنة بكثرة المولّدين نظماً أو نثراً عن مسلم أو كافر. فهذه ثلاثة أنواع لا بُدّ في كل منها من الثبوت."[1]

وحتى نتعرف عليها كلها لا بدّ من دراستها وإبداء الرأي في كل واحد منها كمصدر من مصادر السّماع.

أولاً: القرآن الكريم.

يعدّ القرآن الكريم أفصح مما نطقت به العرب، وأصحّ منه نقلاً، وأبْعَد منه عن كل تحريف، ولم يكن في النص القرآني اختلاف؛ لأنه من عند الله العزيز الحكيم. وإنما كان الاختلاف في قراءاته.

ومن هنا وقف النحاة مواقف متنوعة منها؛ لأنّ حقيقتها تغاير حقيقة القرآن. قال الزركشي: "فالقرآن هو الوحي المنزّل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكورة في كتبة الحروف، أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما."[2]

ولما كان الذي يسمعونه مهماً جداً، فقد وضع هؤلاء العلماء ضوابط وشروطاً لصحّة القراءة التي يسمعون. وهذه الشروط هي:[3]

١- موافقة العربية، ولو بوجه. أي بوجه من الوجوه النحوية.

٢- موافقة الرسم العثماني، ولو احتمالاً.

٣- صحة السند، أي أن تروى تلك القراءة عن الجمع العدل الضابط عن مثله حتى تنتهي إلى رسول الله محمد ﷺ .

---

[1] السيوطي: الاقتراح ص١٤.

[2] أنظر الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله (ت٧٩٤هـ-١٣٩٢م): البرهان في علوم القرآن، تح.محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ط١ (١٣٧٦هـ-١٩٥٧م) ج١ ص٣١٨، وأنظر أيضاً حديثي، خديجة، الشاهد وأصول النحو، الكويت ط١٩٧٤م ص٣٢-٤٠. وسيشار اليه فيما بعد بـ(الزركشي: البرهان).

[3] أنظر: ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (ت٨٣٣هـ-١٤٣٠م) النشر في القراءات العشر، تصحيح ومراجعة علي محمد الضبّاع، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ج١ ص٩، وسيشار إليه فيما بعد بـ (ابن الجزري: النشر).

فإذا اختلّ الشرط الأول كانت القراءة ضعيفة، وإذا اختلّ الشرط الثاني كانت القراءة شاذة، وإذا اختلّ الشرط الثالث كانت القراءة باطلة.[1]

ومن سمات القرآن العظمى تواتره؛ لأنّ ما ينقل أحاداً ليس بقرآن. يقول الغزالي: "القرآن هو ما نقل إلينا بين دفتي المصحف تواتراً."[2] ويقول السيوطي: "إنّ كل ما هو من القرآن يجب أنْ يكون متواتراً في أصله وأجزائه، فانكسار شيءٍ من القرآن يوجب الكفر".[3]

وقد تكفّل الله تعالى بحفظ القرآن دون سائر الكتب السماوية فقال تعالى: "**إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون**"[4] إجلالاً لأعظم معجزات محمد -ﷺ- واهتم المسلمون بكتابهم. وكان رسول الله أوّل من أمر بكتابة القرآن في صحف متفرقة خوف أن يختلف المسلمون فيه، وأمرهم ألاّ يكتبوا شيئاً عنه غير القرآن.[5]

لقد نال القرآن الكريم اهتماماً كبيراً، وضُبط نصُّه بحيث لا يرقى إليه أدنى شك، وأصبح المثل الأعلى، إليه يفزع الفقهاء، ومنه يأخذ علماء اللغة شواهدهم التي يبنون عليها قواعدهم وأصولهم.

وللخليل موقف من الاحتجاج بالقراءات القرآنية يتّسم بالأناة والموضوعية، فهو لم يطعن فيها كما رأينا عند غيره من علماء العربية ،، بل كان يلتمس لها وجهاً ويحتج بها في بعض الأحيان، وهو الذي أثّر في سيبويه، وأوحى إليه بتلك الروح التي تطالعنا في كتابه.

ففي غير موضعٍ من (الكتاب) نجد سيبويه يسأل شيخه الخليل عن بعض أساليب القرآن فيجيبه معللاً ما فيها، موجهاً لها. ومن الأمثلة على ذلك أنه سأل عن كسر همزة (إنْ) في قراءة من قرأ: "**وما يشعركم أنها إذا جاءَت لا يؤمنون.**"[6] فقال له: إنّما قال: "**وما يشعركم**"، ثم ابتدأ فأوجب فقال: "**إنّها إذا جاءت لا يؤمنون**"، ولو قال: "**وما يشعركم**" أنّها كان عذراً لهم. ثم عرض

---

[1] المصدر السابق، ص ٩.

[2] أنظر الآمدي، سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد(ت ٦٣١هـ-١٢٣٤م): الإحكام في أصول الأحكام، مطبعة المعارف، القاهرة، ج١ ص ٢٢٨ .

[3] السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تح. محمد أبوالفضل ابراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، ج١ ص ٢١٧. وسيشار اليه فيما بعد بـ(السيوطي: الإتقان).

[4] الحجر آية ١٥.

[5] أنظر ، السيوطي: الإتقان، ج١ ص ١٦٤ .

[6] الأنعام آية ١٠٩ . وتمامها : "وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنّها إذا جاءَت لا يؤمنون".

سيبويه لقراءة أهل المدينة بفتح الهمزة، فعلّلها الخليل بقوله: "هي بمنزلة قول العرب: "ائت السوق أنّك تشتري لنا شيئاً"، أي: لعلك، فكأنه قال: "لعلها إذا جاءَت لا يؤمنون"[1]

وفي موضع آخر يسأله عن فتح همزة (أنّ) في قوله تعالى: "**وأنّ هذه أمتكم أمّةً واحدة**"[2] فقال: "إنّما هو على حذف اللام، كأنّه قال: "ولأنّ هذه أمتكم أمّة واحدة."[3]

وقد يحتج بقراءة تخرج عن حدود القراءات السبع المشهورة، وتُعَدُّ في القراءات الشاذّة. ففي حديثه عن (مَن) الموصولة، ومجيء صلتها بصيغة المثنى حيناً والجمع حيناً آخر، أو بصيغة المؤنث أو المذكر بحسب المعنى المراد، يحتج بقراءة من قرأ: "**ومن تقنت منكنّ لله ورسوله**"[4] وهي قراءة قال عنها أبو بكر بن مجاهد: "لم يختلف الناس في (يقنت) أنّها بالياء"[5] وذكر ابن خالويه أنّه سمع ابن مجاهد نفسه يقول عنها: "ما يصحّ أنّ أحداً يقرأ: ومن يقنت إلاّ بالياء"[6] ويفعل مثل ذلك في تأويله لقول العرب: هذا عبد الله منطلق. فيزعم أنّ "منطلق" خبر ثانٍ لاسم الإشارة، واحتج لذلك بقراءة شاذة هي: "**وهذا بعلي شيخ**"[7]

ولعلّ سيبويه من أكثر النحاة تمسكاً بالشاهد القرآني، وأعظمهم إجلالاً له، وكان يضعه في المرتبة الأولى؛ لأنه أبلغ كلام، وأوثق نصٍ وصل؛ ولأنّه يمثل العربية الأصيلة .. والأساليب الرفيعة، ويخاطب العرب بلغتهم. وكان سيبويه يورد شواهد القرآن الكريم مقرونةً في الأغلب الأكثر بما ورد عن العرب من شعر أو نثر، مبتدئاً حيناً بالقرآن، وحيناً بالشعر أو النثر، وحيناً بأمثلة يقيسها بأمثلة عما صحّ عن العرب.[8] ولكن سيبويه وغيره من النحاة لم يقتصروا في الاحتجاج بالقرآن وحسب، وإنّما احتجوا أيضاً بالقراءات القرآنية.

---

[1] سيبويه: الكتاب، ج٣ ص ١٢٣.

[2] المصدر السابق، ج٣ ص ١٢٦.

[3] المصدر السابق، ج٣ ص ١٢٧.

[4] المصدر السابق، ج٣ ص ٤١٥.

[5] ابن مجاهد، أبو بكر أحمد بن موسى(ت ٣٢٤هـ-٩٣٦م): السبعة في القراءات، القاهرة، (د، ت) ص ٥٢١.

[6] ابن خالويه، الحسين بن أحمد(ت ٣٧٠هـ-٩٨١م): مختصر شواذ القرآن، تح. برجستراسر ص ١١٩.

[7] سيبويه: الكتاب، ج٢ ص ٨٣.

[8] أنظر الحديثي، خديجة: دراسات في كتاب سيبويه، بغداد ١٩٨٠، ص١٢-٢٤، وأنظر كذلك الحديثي، خديجة: الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، مطبوعات جامعة الكويت ١٩٧٤، ص ٣٢-٤٠، وسيشار اليه فيما بعد بـ(الحديثي: الشاهد وأصول النحو).

وإذا دقق الباحث النظر في كتاب سيبويه، فإنّه سيلحظ أنّ سيبويه قد اتكأ بشكل كبير جداً على القرآن الكريم. إذ بلغت شواهد سيبويه من القرآن حوالي ثلاثمائة وستة وتسعين شاهداً، وشواهد القراءات منها نحو مئة وسبعة وخمسين شاهداً. وهذا يدلّ على شيءٍ واحد وهو اهتمام سيبويه بالقراءات القرآنية، بل كان الهدف من هذا الاستشهاد هو تبيين وجه من وجوه العربية.[1]

ولكن بعض الباحثين يرون غير هذا .. فهم يرون أنّ سيبويه كان معارضاً للقراءات بشكل خفيّ .. فهذا الدكتور أحمد مكي الأنصاري يورد ثلاث قراءات يزعم أنّ سيبويه وقف منها موقف المعارضة الصريحة. وهي:

أولاً:- قراءَة النصب في قوله تعالى: "**أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم، ومماتهم، ساءَ ما يحكمون**"[2] بنصب (سواءَ). ويقول الأنصاري: "ثم جاء سيبويه فوصف قراءة النصب بالقبح، والرداءَة وهي قراءَة سبعية[3] وأورد دليلاً على ذلك قول سيبويه: "واعلم أنّ ما كان في النكرة رفعاً غير صفة، فإنّه رفع في المعرفة. ومن ذلك قول الله عز وجل: "**أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم، ومماتهم**"[4] وتقول: مررت بعبدالله خير منه أبوه، فكذلك هذا ما أشبهه. ومن أجرى هذا على الأوّل فإنّه ينبغي أن ينصبه في المعرفة فيقول: مررت بعبدالله خيراً منه أبوه، وهي لغة رديئة.[5] وقوله: "ولو قلت: مررت بخير منه أبوه كان قبيحاً."[6] وقوله: "وأمّا مررت برجلٍ سواء والعدم فهو قبيح .. فإن تكلمت به على قبحه رفعت العدم، وإنْ جعلته مبتدأ رفعت سواء[7]

---

[1] أنظر الحديثي: الشاهد وأصول النحو، ص ٥-٥١.

[2] سورة الجاثية آية ٢١ .

[3] الأنصاري، أحمد مكي: سيبويه والقراءات، القاهرة ١٩٧٢م ص ١٧. وسيشار اليه فيما بعد بـ(الأنصاري: سيبويه والقراءات).

[4] سورة الجاثية آية ٢١ .

[5] سيبويه: الكتاب، ج٢ ص ٣٤.

[6] المصدر السابق، ج٢ ص ٣٤.

[7] المصدر السابق، ج٢ ص ٣١.

ثانياً:- قراءة إبدال الهمزة ياءً في الوصل في قوله تعالى: "**وقالوا يا صالح إئتنا بما تعدنا إنْ كنت من المرسلين.**"[1] وأورد قول سيبويه: زعموا أنّ أبا عمرو قرأ (يا صالح ايتنا) جعل الهمزة ياءً، ثم لم يقلبها واواً، لم يقولوا هذا في الحرف الذي ليس متصلاً، وهذه لغة ضعيفة.[2]

ثالثاً:- قراءة الرفع في قوله تعالى: "**ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن** ..."[3]، قال الدكتور الأنصاري: "أما سيبويه ومن سار على نهجه من البصريين، فقد هاجموا هذه القراءة ورموها بالضعف والقبح، والشذوذ.[4] وأورد قول سيبويه: "واعلم أنّ (كفى بنا فضلاً على من غيرنا)[5]، أجود وفيه ضعف، إلاّ أنْ يكون فيه (وهو)؛ لأنّ هو من بعض الصلة، وهو نحو: مررت بأيّهم أفضل، وكما قرأ بعض الناس هذه الآية: "**تماماً على الذي أحسنُ**"[6] وأعلم أنّه قبيح أنْ تقول: (هذا مَنْ منطلق) إذ جعلت المنطلق حشواً أو وصفاً، فإن أطلت الكلام فقلت: (مَنْ خيرٌ منك) حَسُن في الوصف والحشو.

أما المبرّد (ت ٢٨٥هـ-٨٩٨م) فقد اجترأ على تخطئة القراءات القرآنية إذا اصطدمت بالقواعد النحوية، ومن الأمثلة على ذلك أنّه وصف قراءة (نافع) (معائش) بالهمز بأنّها "غلط"[7] ورمى القارئ بالجهل بالعربية، ووصف قراءة (ثم ليقطع) بأنّها لحن[8] ووصف قراءة (**ثلاثمائة سنين**) بأنّها "خطأ" وغير جائزة[9] وقراءة (**عزير بن الله**) بأنّها "ضعيفة جداً". وقراءة (**هؤلاء بناتي هُنّ أطهر لكم**) بأنّها "لحن فاحش"[10]

أمّا الفراء (ت ٢٠٧هـ-٨٢٢م) فرأيه يختلف عن سيبويه والمبرّد. فهو يميل إلى السّماع أي يقبل غير القياسي، سواءٌ أكان في القراءات، أم في غيرها إذا وجد له شاهداً يؤيده من كلام العرب.

---

[1] سورة الأعراف آية ٧٧.

[2] الزجّاج، ابو اسحق ابراهيم بن السري(ت ٣١١هـ-٩٢٣م): إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج، تح. ابراهيم الأبياري، القاهرة-١٩٦٣.

[3] سورة الأنعام آية ١٥٤.

[4] د. أحمد مكي ا؟لأنصاري: سيبويه والقراءات، ص ٢٧ .

[5] سيبويه: الكتاب، ج٢ ص١٠٧، والبيت هو: كفى بنا فضلاً على من غيرنا حبُّ النبي محمدٍ إيّانا.

[6] الأنعام آية ١٥٤ .

[7] المبرد: المقتضب، تح. محمد عبدالخالق عضيمه، القاهرة-١٩٦٨م، ج١ ص ١٢٣. وسيشار اليه فيما بعد بـ(المبرد: المقتضب).

[8] المصدر السابق، ج٢ ص ١٣٤.

[9] المصدر السابق، ج٢ ص ١٧١.

[10] المصدر السابق، ج٤ ص ١٠٥.

فإن لم يجد، لم يجد حرجاً في رفض قراءة حمزه واتّهام القارئ بما أسماه "قلّة الصبر بمجاري كلام العرب"[1] فسبب قبول الفراء لهذه القراءة هو وجود شاهد من كلام العرب يؤيد رأيه.

أما السيوطي (ت ٩١١هـ-١٥٠٥م) فقد عدّ كل ما ورد أنّه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواتراً أم آحاداً أم شاذاً. يقول: "وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية، إذا لم تخالف قياساً معروفاً، بل لو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه، وإنْ لم يجز القياس عليه، كما يحتج بالمجمع على وروده، ومخالفته القياس في ذلك الوارد بعينه ولا يقاس عليه. كما احتج على جواز إدخال لام الأمر على المضارع المبدوء بتاء الخطاب بقراءة "**فبذلك فلتفرحوا**"[2] كما احتج على إدخالها على المبدوء بالنون بالقراءة المتواترة: "**ولنحمل خطاياكم**"[3] واحتج على صحة قول من قال: "إنّ "الله" أصلها "لاه" بما قرئ شاذاً، وهو الذي في السماء لاهٌ وفي الأرض لاهٌ"[4]

إذن كان منهج البصريين هو الاحتجاج بالقراءات القرآنية المتواتره غير المخالفة للقياس، وكذلك كان موقف الكوفيين. قال الدكتور مهدي المخزومي: "والقراءات مصدر هام من مصادر النحو الكوفي، ولكن البصريين كانوا وقفوا منها موقفاً من سائر النصوص اللغوية وأخضعوها لأصولهم وأقيستهم، فما وافق منها أصولهم ولو بالتأويل قبلوه، وما لم يوافق رفضوا الاحتجاج به ووصفوه بالشذوذ، كما رفضوا الاحتجاج بكثير من الروايات اللغوية وعدُّوها شاذة تحفظ ولا يقاس عليها.[5]

فالكوفيون يأخذون القراءات سواء كانت سبعية أم غير سبعية شريطة أنْ يكون لها نظير من العربية، كما يجيزون ما ورد فيها. فما خالف الوارد عن العرب ويقيسون عليها، فيجعلونها أصلاً من أُصولهم التي يبنون عليها القواعد والأحكام وهم إذا رجحوا القراءات التي يجتمع عليها القراء فلا يرفضون غيرها ولا يغلطونها.

---

[1] الفراء: معاني القرآن، ج٣ ص ٢٦٦.

[2] يونس آية ٥٨،وتمامها: "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون" وهذه قراءة العامة، وقد ذكرت قراءة "فلتفرحوا" عن زيد بن ثابت، أي يا أصحاب محمد (بالتاء).راجع معاني القرآن للفراء ج١ ص٤٦٩ .

[3] العنكبوت آية ١٣٠، وتمامها: "وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنّهم لكاذبون" وقوله "واتبعوا سبيلنا ولنحمل". راجع معاني القرآن للفراء ج٢ ص٣١٤.

[4] الزخرف آية ٨٤، وتمامها: "وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم." أنظر الإقتراح للسيوطي، ص ٣٦، ٣٧ .

[5] المخزومي: مدرسة الكوفة، ص ٣٨٤ .

ومن الأمثلة على ذلك ما عرضه الدكتور مهدي المخزومي في كتابه بعض المسائل التي ضعفها البصريون أو عدوها مردودة أو شاذة مما أجازه الكوفيون، وقاسوا عليه. من ذلك وصف البصريين بالشذوذ قراءة عبد الله بن مسعود قوله تعالى: "**وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدوا إلاّ الله**."[1] في حين أخذ بها الكوفيون في تجويز إعمال "أنْ" في الفعل وهي محذوفة من غير بدل.[2]

أما ابن جني (ت ٣٩٢هـ-١٠٩٩م) فقد كانت آراؤه وسطاً بين المدرستين البصرية والكوفية. فهو لم يأخذ برأي إحدى المدرستين. فهو وإن كان يميل إلى البصريين إلاّ أنّه أكثر منهم اعتدالاً، ومع اعتداله نجده يخطّئ بعض القراءات، ويرى بعضها معيباً. ومن ذلك قوله: "ومن الأمر الطبيعي الذي لا بُدَّ منه، ولا وعي عنه أنْ يلتقي الحرفان الصحيحان فيسكن الأول منهما في الإدراج، فلا يكون حينئذٍ به من الإدغام..فأمّا قراءة عاصم "**وقيل من راق**"[3] ببيان النون من (مَنْ) فمعيب في الإعراب معيف في الأسماع. فإن كان ارتكب ذلك ووقف على النون صحيحة غير مدغمة ليبيّنه على انفصال المبتدأ من خبره فغير مرضي أيضاً.[4]

أما أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ-١٣٤٤م) فقد وقف موقفاً وسطاً بين المدرستين، فلم يتشدد فيها تشدد البصريين فيرفض كل ما خالف القواعد والأقيسة التي بنوها. ولم يتساهل تساهل الكوفيين وابن مالك، فيعتمد على الشاذ منها أو على ما تفرد بقراءته شخص لا يعرف من القراءة شيئاً.

فأعلى القراءات عنده وأصحها ما أجمعت عليه السبعة، ولم يكن اعتماده على القراء السبعة وحسب، بل كان يأخذ عن غيرهم من القراء الذين صحّت عنده روايتهم، كأبي جعفر المتوفى سنة (٢٥٠هـ) الذي انتهت إليه رئاسة الإقراء في المدينة، وهو ثامن القراء العشرة، ويعقوب وهو تاسع القراء العشرة. كما دافع عن قراءات آخرين منهم (ورش) راوية (نافع)، وأخذ بقراءته. واحتج بقراءة ابن عباس وطلحة والحسن البصري وابن أبي اسحق.[5]

أما ابن مالك فقد وقف موقفاً مغايراً؛ حيث كان يستشهد بالقراءات الصحيحة المتواتره كما كان يأخذ بالقراءات الشاذة، وقد ردَّ على علماء العربية الذين كانوا يعيبون على عاصم وحمزة

---

[1] البقرة آية ٨٣ .

[2] المخزومي: مدرسة الكوفة، ص ٣٨٤، ٣٨٨، ٣٨٩ .

[3] القيامة آية ٢٧ .

[4] ابن جني: الخصائص، ج١ ص ٩٣، ٩٤ .

[5] أنظر الحديثي: أبو حيان النحوي، مكتبة النهضو، بغداد-١٣٨٥هـ-١٩٦٦م، ص ٤١٦-٤٣٠.

كما دعا الأستاذ (محمد الخضر حسين) إلى الاحتجاج بما ورد في القرآن الكريم وَعدَّه من أفضل ما يُسْمَع ويحتج به حيث يقول[1] : "وأفضل ما يحتج به في تقرير أُصول اللغة القرآن الكريم، فإنّه نزل بلسان عربي مبين، ولا يمتري أحدٌ في أنّه بالغ في الفصاحة، وحسن البيان، الذروة التي ليس بعدها مرتقى، فنأخذ بالقياس على ما وردت عليه كلمه وآياته من أحكام لفظية، ولا فرق عندنا بين ما وافق الاستعمال الجاري فيما وصل إلينا من شعر العرب ومنثورهم، وما جاءَ على وجه انفرد به، ولا نتبع سبيل من يحيدون عن ظاهره، ويذهبون به مذهب التأويل ليوافق آراءَهم النحوية."

وقد دَعَّم محمد الخضر رأيه بما أورده الرازي في تفسيره حيث قال: "إذا جوّزنا إثبات اللغة بشعر مجهول، فجواز إثباتها بالقرآن العظيم أولى، وكثيراً ما نرى النحويين متحيرين في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن، فإذا استشهدوا في تقريره ببيت مجهول، فرحوا به وأنا شديد التعجب منهم، فإنّهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقه دليلاً على صحته، فلأن يجعلوا ورود القرآن دليلاً على صحته كان أولى."[2]

وكذلك دعا د. عبدالعال سالم مكرم إلى العودة إلى القرآن الكريم للاحتجاج بما ورد فيه وعدَّ سبب الاضطراب في اللغة العربية مردّه إلى محاولة البصريين إخضاع اللغة للمقاييس وحول هذا الموضوع يقول: "ولو حوّلوا وجهتهم إلى القرآن الكريم وهو الجامع لأفصح اللغات وأقوى اللهجات، وأعظم الأساليب، وجعلوه أصلاً يحتذى به بغض النظر عن أن يكون بجانبه شعر يُعزّز أو أصل يُقوّي أو مقياس يُدْعم، ولو فعلوا ذلك لكانت اللغة في مأمن من هذا الاضطراب الذي أوشك أن تمتد جذوره إلى كل مسأله من مسائلها.[3]

وأشار أيضاً إلى أنّ الشعر عندما جمع من أفواه الرجال لم يَعْن الرواة بإسناد الشعر إلى القبيلة التي ينتمي إليها الشاعر، ومن ثمّ فإننا نجد في الشعر لهجات عديدة، ولغات مختلفة، ولم يحاول النحاة أن يميزوا بين القبائل عندما وضعوا قواعدهم، وأن يضعوا لكل قبيلة قواعدها الخاصة في مرآة شاعرها أو شعرائها ..[4]

---

[1] حسين، محمد الخضر : القياس في اللغة العربية، الطبعة الثانية ١٩٨٣، ص ٢٩. وسيشار اليه فيما بعد بـ(حسين: القياس في اللغة العربية).

[2] المصدر السابق ص ٢٩ .

[3] مكرم، عبدالعال سالم: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، دار المعارف بمصر، ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م، ص ١١٧. وسيشار اليه فيما بعد بـ(مكرم: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية).

[4] أنظر مكرم: القرآن وأثره في الدراسات النحوية، ص ٣٤٤ .

ويتابع حديثه بقوله: "ولو فعلوا ذلك لأراحونا من هذا الاضطـراب .. من أجل هذه العيوب كلها أرى أن القرآن الكريم هو المصدر الذي يجب أن نتجه إليه في كل قاعدة نقيمها، وفي كل حكم نصدره .."[1]

[1] المرجع السابق، ص ٣٤٤ .

ثانياً:- الحديث النبوي الشريف.

يُعَدُّ الحديث النبوي الشريف في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم. ونظراً لأهميته فقد أقبل رواة اللغة وعلماؤها يسمعون هذه الأحاديث من أفواه حفظتها، فقد دعا القرآن الكريم، في آيات كثيرة إلى العمل بالسُنة واستنباط الأحكام منها. ومن ذلك قوله تعالى: "**يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم.**"[1] وقال تعالى: "**وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا.**"[2] وقال تعالى: "**وأطيعوا الله والرسول ...**"[3] وقال تعالى: "**ومن يطع الرسول فقد أطاع الله.**"[4] والأمر في هذه الآيات الكريمة يدلّ على عموم الطاعة للرسول سواء في ذلك ما ورد له ذكر في كتاب الله، أو ما لم يرد له ذكر فيه. أضف إلى ذلك الدور الذي قام به الحديث النبوي الشريف من توضيح، وتبيين لكتاب الله بدليل قوله تعالى: "**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم.**"[5] . فالسُنّةُ مُبَيّنةٌ لكتاب الله مُفَصّلةٌ لمجمله.

وعلى الرغم من أهمية الحديث النبوي الشريف إلاّ أنّ كثيراً من أئمة النحاة، متقدمين ومتأخرين لم يعتدُّوا بالحديث النبوي أصلاً من الأصول، تستنبط منه القواعد وتُقَرر الأحكام، حتى إذا وقع الحديث الشريف في كتب بعض النحاة كان تقوية لما يُستَشهد به من قرآن أو كلام العرب، دون أن يكون مقصوراً إليه في الاستشهاد أو الاحتجاج أو مصدراً لاستنباط حكم نحوي.

وقد اختلف النحويون في موضوع سماع الحديث النبوي من أجل الاحتجاج به على ثلاثة مذاهب[6]:-

الأوّل: مذهب المانعين، وهم الذين منعوا الاحتجاج بالحديث الشريف في النحو. ويُمثّل هذا المذهب ابن الضائع (ت ٦٨٠هـ-١٢٨١م)، وأبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ-١٣٤٤م)، والسيوطي (ت ٩١١هـ-١٥٠٥م).

الثاني: مذهب المجوّزين وزعيم هذا المذهب ابن مالك الأندلسي (ت ٦٧٢هـ-١٢٣٧م)، وتبعه الدماميني (ت ٧٢٧هـ-١٣٢٦م)، وابن سعيد التونسي (ت ١١٩٩هـ-١٧٨٤م).

---

(١) النساء آية ٥٩ .

(٢) الحشر آية ٧ .

(٣) آل عمران آية ١٣٢ .

(٤) النساء آية ٨٠ .

(٥) النحل آية ٤٤ .

(٦) أنظر الحديثي: الشاهد وأصول النحو، ص ٦٢ وما بعدها .

ومن الأمثلة على ذلك ما عرضه الدكتور مهدي المخزومي في كتابه بعض المسائل التي ضعّفها البصريون أو عدوها مردودة أو شاذة مما أجازه الكوفيون، وقاسوا عليه. من ذلك وصف البصريين بالشذوذ قراءة عبد الله بن مسعود قوله تعالى: "**وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدوا إلاّ الله**."[1] في حين أخذ بها الكوفيون في تجويز إعمال "أنْ" في الفعل وهي محذوفة من غير بدل.[2]

أما ابن جني (ت ٣٩٢هـ-١٠٩٩م) فقد كانت آراؤه وسطاً بين المدرستين البصرية والكوفية. فهو لم يأخذ برأي إحدى المدرستين. فهو وإن كان يميل إلى البصريين إلاّ أنّه أكثر منهم اعتدالاً، ومع اعتداله نجده يخطّئ بعض القراءات، ويرى بعضها معيباً. ومن ذلك قوله: "ومن الأمر الطبيعي الذي لا بُدَّ منه، ولا وعي عنه أنْ يلتقي الحرفان الصحيحان فيسكن الأول منهما في الإدراج، فلا يكون حينئذٍ به من الإدغام..فأمّا قراءة عاصم "**وقيل من راق**"[3] ببيان النون من (مَنْ) فمعيب في الإعراب معيفٌ في الأسماع. فإن كان ارتكب ذلك ووقف على النون صحيحة غير مدغمة ليبيّنه على انفصال المبتدأ من خبره فغير مرضي أيضاً.[4]

أما أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ-١٣٤٤م) فقد وقف موقفاً وسطاً بين المدرستين، فلم يتشدد فيها تشدد البصريين فيرفض كل ما خالف القواعد والأقيسة التي بنوها. ولم يتساهل تساهل الكوفيين وابن مالك، فيعتمد على الشاذ منها أو على ما تفرد بقراءته شخص لا يعرف من القراءة شيئاً.

فأعلى القراءات عنده وأصحها ما أجمعت عليه السبعة، ولم يكن اعتماده على القراء السبعة وحسب، بل كان يأخذ عن غيرهم من القراء الذين صحّت عنده روايتهم، كأبي جعفر المتوفى سنة (٢٥٠هـ) الذي انتهت إليه رئاسة الإقراء في المدينة، وهو ثامن القراء العشرة، ويعقوب وهو تاسع القراء العشرة. كما دافع عن قراءات آخرين منهم (ورش) راوية (نافع)، وأخذ بقراءته. واحتج بقراءة ابن عباس وطلحة والحسن البصري وابن أبي اسحق.[5]

أما ابن مالك فقد وقف موقفاً مغايراً؛ حيث كان يستشهد بالقراءات الصحيحة المتواتره كما كان يأخذ بالقراءات الشاذة، وقد ردَّ على علماء العربية الذين كانوا يعيبون على عاصم وحمزة

---

(١) البقرة آية ٨٣ .

(٢) المخزومي: مدرسة الكوفة، ص ٣٨٤، ٣٨٨، ٣٨٩ .

(٣) القيامة آية ٢٧ .

(٤) ابن جني: الخصائص، ج١ ص ٩٣، ٩٤ .

(٥) أنظر الحديثي: أبو حيان النحوي، مكتبة النهضو، بغداد-١٣٨٥هـ-١٩٦٦م، ص ٤١٦-٤٣٠.

قراءات بعيدة في العربية. واختار جواز ما وردت به قراءاتهم في العربية، من ذلك احتجاجه على جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار بقراءة حمزة "**تساءلون به والأرحام**"[1] وعلى جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بمفعول المصدر بقراءة ابن عامر "**قَتْلَ أولادهم شركاؤهم**"[2] وعلى جواز سكون لام الأمر بعد "ثُمَّ" بقراءة حمزه، "ثم ليقطع"[3] وهي قراءات مردودة من البصريين وابن جنيّ.[4]

ولم يكن ابن مالك يتحرج من الاعتماد على القراءات الشاذة في بناءِ القواعد والأقيسة من ذلك اعتماده على قراءة أعرابي شاذّه لقوله تعالى: "صراط الذين" بتخفيف اللام، فجعلها مادة قاس عليها تخفيف اللام في الأسماءِ الموصولة الأخرى.[5] فبنى عليها قاعدة وقاس من غير أن يعرف صحة هذه القراءة أو خطأها تواتر روايتها أو كونها من الآحاد التي انفرد بقراءتها هذا القارئ دون اعتماد على سماع أو تأكد من ثقة راويها.

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ القراءة لم تكن قد قُسِّمَت إلاَّ بعد منتصف القرن الثالث للهجرة؛ حيث كان ابن قتيبة المتوفى سنة (٢٧٦هـ-٨٨٩م) من أوائل المتكلمين على القراءات السبع

---

(١) النساء ١/٤ وتمامها: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدةٍ وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إنّ الله كان عليكم رقيباً." وقد قرأ ابن حمزة "والأرحامِ" بكسر الميم خفضاً بالعطف على الضمير المجرور من غير إعادة حرف الجر، ومَنعه البصريون .. (راجع الانصاف في مسائل الخلاف مسألة ٦٥).

(٢) الأنعام آية ١٣٧، وتمامها: "وكذلك زيّن لكثير من المشركين قتل أولادِهم شركاؤهم ليردوهم وليَلْبسوا عليهم دينهم، ولو شاءَ الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون." وقد قرأ ابن عامر (زين) بضم الزاي على ما لم يُسَمّ فاعله، (قتلُ) بالرفع على أنّه مفعول ما لم يُسَمّ فاعله (أولادهم) بالنصب أعمل فيه القتل (شركائهم) بالخفض على إضافة القتل إليهم لأنهم الفاعلون. فأضاف الفعل إلى فاعله، لكنّه فرّق بين المضاف والمضاف إليه، وهذه القراءة فيها ضعف للتفريق بين المضاف والمضاف إليه.(راجع الكشف عن وجوه القراءات السبع، ج١ ص ٤٥٣ وما بعدها.

(٣) الحج آية ١٥، وتمامها: "من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماءِ ثم ليقطع فلينظر هل يذهبنّ كيدُهُ ما يغيظ". قرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر (ليقطع) بكسر اللام، وأسكن الباقون. وحجة من كسر أنها لام الأمر أصلها على الكسر لما لو ابتدأ بها لم تكن إلا مكسورة فاجراها مع حرف العطف مجراها بغير حرف في الابتداء، وكأنه اعتدّ بحرف العطف. وقد منع المبرّد إسكان اللام مع (ثُمّ) لأنها كلمة يوقف عليها. راجع الكشف عن وجوه القراءات السبع، ج٢ ص ١١٦ وما بعدها.

(٤) السيوطي: الاقتراح، ص ٣٨ .

(٥) أبو حيّان الأندلسي: ارتشاف الضرب من لسان العرب، تعليق وتحقيق د. مصطفى أحمد النمّاس، ط١-١٩٨٤ ص ٥٢٦ .

والخلافات حولها، وقد جاء بعده أبو بكر بن مجاهد في بداية القرن الرابع للهجرة، فحدَّد شخصية القراء السبعة، واستمر من جاءَ بعدهما على التبويب والتقسيم والتحديد حتى استقرت على هذه الصورة التي لم يرها سيبويه في زمانه.

هذا بخصوص علماء اللغة القدماء. أما بالنسبة لعلماء اللغة المحدثين فقد دعا كثير منهم إلى الاعتماد على القرآن الكريم في المسائل اللغوية والنحوية، وجعلُه أصلاً من الأصول النحوية في الدرجة الأولى.

فقد أشار الأُستاذ عباس حسن إلى ضرورة العودة إلى القرآن الكريم من أجل التقعيد النحوي والبلاغي قال: "واليقين عندي أنَّ القرآن فوق مستوى التأويلات، وأنَّ فيصل الرأي فيه صحة الاستشهاد النحوي والبلاغي بظاهره؛ من غير نظر إلى قلّة أو كثرة كما يقول الإمام ابن مالك. وإن كان الكوفيون يعوّلون على الشاهد الواحد أو الشاهدين مما سمع عن العرب، فتعويلهم على ما ورد في القرآن أحقّ وأولى؛ وليس مقبولاً منهم -ولا من غيرهم- أن يلجئوا فيه إلى التأويل، وإن كانوا في هذا أخفّ من إخوانهم البصريين.

كما هاجم الأستاذ عباس حسن أولئك القائلين إنَّ القرآن قد يُخرَّج على غير الغالب؛ ذلك أنَّ كل ما يجئ في القرآن قوي فصيح، بل هو في أسمى مراتب القوة والفصاحة.[1]

كما دعا الدكتور ابراهيم أنيس إلى الاعتماد على القرآن في معالجة المسائل التي تجدّ ووضّح أنَّ الذي استقرّ عليه الرأي بين جمهور العلماء القدماء أنَّ نصوص القرآن الكريم يحتج بها في تقعيد قواعد اللغة، ولا خلاف بينهم في هذا.[2]

كما تابع الأُستاذ ابراهيم مصطفى هؤلاء المحدثين من علماء اللغة في ضرورة العودة إلى القرآن في تقعيد اللغة؛ لأن النحاة سوف يجدون فيه -القرآن- المدد الوافر والنص الكافي، سيكون لهم البادية والحاضرة السليمة النقيّة، يتتبعون فيه أحكام العبارة وأساليب الأداء، وينتفعون بقراءاته ورواياته، ما سمي منها متواتراً، وما سمي شاذاً. ستكون بنية جديدة على أنَّ الكتاب الحكيم لا يبلى جديده، ولا يحد مدى بركته لهذه الأمة، وللأمم جميعاً.[3]

---

[1] حَسَن: اللغة والنحو بين القديم والحديث، ص ١١٢، ١١٣ .

[2] أنيس، ابراهيم: في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية ط٦-١٩٨٤، ص ٤٩. وسيشار اليه فيما بعد بـ(أنيس: في اللهجات العربية).

[3] مصطفى، ابراهيم: إحياء النحو، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط-١٩٣٧، ص ١٩٦، ١٩٧. وسيشار اليه فيما بعد بـ(مصطفى: إحياء النحو).

كما دعا الأستاذ (محمد الخضر حسين) إلى الاحتجاج بما ورد في القرآن الكريم وَعدَّه من أفضل ما يُسْمَع ويحتج به حيث يقول[1] : "وأفضل ما يحتج به في تقرير أُصول اللغة القرآن الكريم، فإنَّه نزل بلسان عربي مبين، ولا يمتري أحدٌ في أنَّه بالغ في الفصاحة، وحسن البيان، الذروة التي ليس بعدها مرتقى، فنأخذ بالقياس على ما وردت عليه كلمه وآياته من أحكام لفظية، ولا فرق عندنا بين ما وافق الاستعمال الجاري فيما وصل إلينا من شعر العرب ومنثورهم، وما جاءَ على وجه انفرد به، ولا نتبع سبيل من يحيدون عن ظاهره، ويذهبون به مذهب التأويل ليوافق آراءَهم النحوية."

وقد دَعَّم محمد الخضر رأيه بما أورده الرازي في تفسيره حيث قال: "إذا جَوَّزنا إثبات اللغة بشعر مجهول، فجواز إثباتها بالقرآن العظيم أولى، وكثيراً ما نرى النحويين متحيرين في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن، فإذا استشهدوا في تقريره ببيت مجهول، فرحوا به وأنا شديد التعجب منهم، فإنَّهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقه دليلاً على صحته، فلأن يجعلوا ورود القرآن دليلاً على صحته كان أولى."[2]

وكذلك دعا د. عبدالعال سالم مكرم إلى العودة إلى القرآن الكريم للاحتجاج بما ورد فيه وعدَّ سبب الاضطراب في اللغة العربية مردَه إلى محاولة البصريين إخضاع اللغة للمقاييس وحول هذا الموضوع يقول: "ولو حوّلوا وجهتهم إلى القرآن الكريم وهو الجامع لأفصح اللغات وأقوى اللهجات، وأعظم الأساليب، وجعلوه أصلاً يحتذى به بغض النظر عن أن يكون بجانبه شعر يُعزّز أو أصل يُقوّي أو مقياس يُدّعم، ولو فعلوا ذلك لكانت اللغة في مأمن من هذا الاضطراب الذي أوشك أن تمتد جذوره إلى كل مساله من مسائلها.[3]

وأشار أيضاً إلى أنَّ الشعر عندما جمع من أفواه الرجال لم يَعْنِ الرواة بإسناد الشعر إلى القبيلة التي ينتمي إليها الشاعر، ومن ثمَّ فإننا نجد في الشعر لهجات عديدة، ولغات مختلفة، ولم يحاول النحاة أن يميزوا بين القبائل عندما وضعوا قواعدهم، وأن يضعوا لكل قبيلة قواعدها الخاصة في مرآة شاعرها أو شعرائها ..[4]

---

[1] حسين، محمد الخضر: القياس في اللغة العربية، الطبعة الثانية ١٩٨٣، ص ٢٩. وسيشار اليه فيما بعد بـ(حسين: القياس في اللغة العربية).

[2] المصدر السابق ص ٢٩ .

[3] مكرم، عبدالعال سالم: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، دار المعارف بمصر، ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م، ص ١١٧. وسيشار اليه فيما بعد بـ(مكرم: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية).

[4] أنظر مكرم: القرآن وأثره في الدراسات النحوية، ص ٣٤٤ .

ويتابع حديثه بقوله: "ولو فعلوا ذلك لأراحونا من هذا الاضطـراب .. مـن أجـل هـذه العيـوب كلها أرى أن القرآن الكريم هو المصدر الذي يجب أن نتجه إليه في كل قاعدة نقيمها، وفي كل حكم نصدره .."[1]

---

[1] المرجع السابق، ص ٣٤٤ .

ثانياً:- الحديث النبوي الشريف.

يُعَدُّ الحديث النبوي الشريف في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم. ونظراً لأهميته فقد أقبل رواة اللغة وعلماؤها يسمعون هذه الأحاديث من أفواه حفظتها، فقد دعا القرآن الكريم، في آيات كثيرةٍ إلى العمل بالسُنة واستنباط الأحكام منها. ومن ذلك قوله تعالى: "**يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم.**"[1] وقال تعالى: "**وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا.**"[2] وقال تعالى: "**وأطيعوا الله والرسول ...**"[3] وقال تعالى: "**ومن يطع الرسول فقد أطاع الله.**"[4] والأمر في هذه الآيات الكريمة يدلّ على عموم الطاعة للرسول سواء في ذلك ما ورد له ذكر في كتاب الله، أو ما لم يرد له ذكر فيه. أضف إلى ذلك الدور الذي قام به الحديث النبوي الشريف من توضيح، وتبيين لكتاب الله بدليل قوله تعالى: "**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم.**"[5] . فالسُنّةُ مُبيّنةٌ لكتابِ الله مُفصّلةٌ لمجمله.

وعلى الرغم من أهمية الحديث النبوي الشريف إلاّ أنّ كثيراً من أئمة النحاة، متقدمين ومتأخرين لم يعتدُّوا بالحديث النبوي أصلاً من الأصول، تستنبط منه القواعد وتُقرر الأحكام، حتى إذا وقع الحديث الشريف في كتب بعض النحاة كان تقوية لما يُستَشهد به من قرآن أو كلام العرب، دون أن يكون مقصوراً إليه في الاستشهاد أو الاحتجاج أو مصدراً لاستنباط حكم نحوي.

وقد اختلف النحويون في موضوع سماع الحديث النبوي من أجل الاحتجاج به على ثلاثة مذاهب[6]:-

الأوّل: مذهب المانعين، وهم الذين منعوا الاحتجاج بالحديث الشريف في النحو. ويُمثّل هذا المذهب ابن الضائع (ت ٦٨٠هـ-١٢٨١م)، وأبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ-١٣٤٤م)، والسيوطي (ت ٩١١هـ-١٥٠٥م).

الثاني: مذهب المجوّزين وزعيم هذا المذهب ابن مالك الأندلسي (ت ٦٧٢هـ-١٢٣٧م)، وتبعه الدماميني (ت ٧٢٧هـ-١٣٢٦م)، وابن سعيد التونسي (ت ١١٩٩هـ-١٧٨٤م).

---

[1] النساء آية ٥٩ .

[2] الحشر آية ٧ .

[3] آل عمران آية ١٣٢ .

[4] النساء آية ٨٠ .

[5] النحل آية ٤٤ .

[6] أنظر الحديثي: الشاهد وأصول النحو، ص ٦٢ وما بعدها .

الثالث: مذهب المتحفّظين، ويمثله الشاطبي (ت ٧٩٠هـ-١٣٨٨م)، وهم لا يرفضون الاحتجاج بالحديث جملة، ولا يأخذون به جملة، بل يجيزون الاحتجاج بما ثبت أنّه لفظ الرسول ﷺ مثل الأحاديث القصيرة التي اعتني بنقل ألفاظها.

هذا ما كان من موقف النحاة المتقدمين. أمّا المعاصرون من المشتغلين باللغة والنحو، فهم شبه مجمعون على جواز الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف. وقد وضع بعضهم شروطاً للاحتجاج بالحديث الشريف. بينما اندفع كثير منهم يدافعون عن الحديث وصحة الاحتجاج به في النحو والصرف:-

فالشيخ (محمد الخضر حسين) جعل الأحاديث من حيث الاستشهاد على ثلاثة أقسام[1]:

أ- ما لا ينبغي الاختلاف في الاحتجاج به.

ب- ما لا ينبغي الاختلاف في عدم الاحتجاج به.

ج- الذي يصح أن تختلف الأنظار في الاستشهاد بألفاظه.

ويمكن القول إن معظم المعاصرين يقرّون مبدأ الاحتجاج بالحديث. فهذا (طه الراوي) يعجب من ترفُّع النحويين عما ارتضاه اللغويون من الانتفاع بهذا الحديث، وكذلك الشيخ (محمد رفعت) الذي انتهى إلى أنّ الحديث حجة في النحو إذا اطمأن الباحث إليه. فإن لم يطمئن إليه أنزله الاشتباه مرتبة دون الحجة.

وقد أيّد (سعيد الأفغاني) مذهب الاحتجاج بالحديث، ورأى أن يتقدم الحديث على كلام العرب، شعرهم ونثرهم في باب الاحتجاج.[2]

موقف النحاة الأوائل من الاحتجاج بالحديث.

يلحظ القارئ عند تقسيم موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث النبوي الذي سبق وأوردناه في السابق أنّنا لم نذكر أحداً من النحاة الأوائل، ولعل المهتم بهذا الموضوع يتساءل عن هذا الأمر. ولكننا أردنا ذلك لأنّ مسألة الاحتجاج بالحديث لم تكن مثار جدلٍ أو حوارٍ لدى النحاة الأوائل؛ لأنّها مسألة أُثيرت فيما بعد. وكان رائد هذه المسألة ابن مالك، وأبو حيّان الأندلسي اللذان وقفا طرفي

---

[1] أنظر حسين: الاستشهاد بالحديث في اللغة، بحث في مجلة مجمع اللغة العربية، ج٣ (شعبان ١٣٥٥هـ-أكتوبر ١٩٣٦م)، ص ١٩٧ .

[2] أنظر الشاعر، حسن: النحاة والحديث النبوي، وزارة الثقافة والشباب، ط١(١٤٠٠هـ-١٩٨٠م) ص ٥٨ وما بعدها. وسيشار اليه فيما بعد بـ(الشاعر: النحاة والحديث النبوي).

نقيض حين بالغ الأوّلُ في الاحتجاج بالحديث، وبالغ الثاني في رفضه الاحتجاج به مُدّعياً أنّ الأوائل لم يحتجوا به.

وفي هذا العرض سنكتفي بعرض أبرز هؤلاء النحاة وهو سيبويه، ثم نعرض بعد آراء الآخرين.

يذكر الدكتور مجمود حسني محمود[1] أنّ (عثمان فكي) كان أوّل من تنبّه إلى أنّ سيبويه قد احتج بالحديث الشريف؛ حيث عثر في ثنايا (الكتاب) على ثلاثة أحاديث. ثم زاد عليها الأستاذ أحمد راتب النفّاخ حديثين آخرين. وقد قرر "فكي" أنّ سيبويه بذلك يكون أوّل من احتج بالحديث. في حين يذكر الدكتور حسن الشاعر أنّ عدد الأحاديث في كتاب سيبويه هي عشرة[2]. لكن الدكتور محمود حسني محمود يرى أنّ سيبويه لم يكن أوّل من احتج بالحديث، وإنّما سبقه إلى ذلك أوائل النحاة مثل أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ-٧٧١م) والخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ-٧٩١م). أي أنّ سيبويه يأتي في المرتبة الثالثة في الاحتجاج بالحديث بعد أبي عمرو والخليل.[3]

أمّا الدكتور (عبدالفتاح شلبي) فقد عدّ أبا علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ-٩٨٧م) من أوائل المحتجين بالحديث، لكنه لم يجزم بأنّه أولهم حيث يقول[4]: "ولست أزعم أنّ صاحبي أوّل من اعتمد الأحاديث في الاحتجاج اللغوي والنحوي .. لكنني أكتفي بتقرير أنّ (أبا علي) سبق ابن خروف في الاحتجاج بالحديث في مسائل اللغة والنحو والصرف."

ويرى الدكتور فاضل السامرائي[5] أنّ ابن جني (ت ٣٩٢هـ-١٠٠٢م) ممن عاصر أبا علي الفارسي يراه ممن لم يحتجوا بالحديث؛ حيث يقول السامرائي:[6] "فلم أره مرة جعل الحديث أصلاً يرجع إليه في تقرير قاعدة، أو إثبات نص لغوي" وإنّما يورد بعض الأحاديث النبوية للاستئناس به أو الاستشهاد به فيما لم يخدم قاعدة ولم يقرر أصلاً جديداً.

---

[1] أنظر محمود، محمود حسني: احتجاج النحويين بالحديث، مقال منشور في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ١٩٧٩م، العدد المزدوج (٣-٤) ص ٤٢-٦١. وسيشار اليه فيما بعد بـ(محمود: احتجاج النحويين بالحديث).

[2] الشاعر: النحاة والحديث النبوي، ص ٩٦ .

[3] مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ص ٤٩ .

[4] شلبي، عبدالفتاح: أبو علي الفارسي، القاهرة ١٣٧٧هـ، ص ٢٠٣ .

[5] السامرائي،فاضل:ابن جني، بغداد(١٣٨٩هـ-١٩٦٩م)، ص١٣٤.وسيشار اليه فيما بعد بـ(السامرائي: ابن جنيّ).

[6] السامرائي: ابن جنّي، ص١٣٤.

أمّا السيوطي فإنّه كان يمنع الاحتجاج بالحديث حيث يقول:[1] "وأمّا كلامه ﷺ فيستدل منه بما ثبت أنه قاله على اللفظ المرويّ؛ وذلك نادر جداً. إنّما يوجد في الأحاديث القصار على قلّة، فإنّ غالب الأحاديث النبوية مرويّ بالمعنى. وقد تداولتها الأعاجم والمولدون قبل تدوينها، فرووها بما أدّت إليه عباراتهم، فزادوا ونقصوا..."

وقد بالغ الدكتور (عبدالمنعم أحمد التكريتي) النسب إلى الأوائل "رفض الاحتجاج بالحديث" حيث يقول : [2] "أمّا في مجال النحو فقد رفض النحاة الأوّلون الاحتجاج بالحديث متعلّلين بما يأتي.." في حين كان البغدادي صاحب (خزانة الأدب) ممن أجازوا الاحتجاج بالحديث مطلقاً حين قال: "والصواب جواز الاحتجاج بالحديث للنحوي في ضبط ألفاظه، ويُلحق به ما روي عن الصحابة وأهل البيت."[3]

وسنحاول في هذا المقام تحليل موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث ثم سأحاول الردّ على حُجّة المانعين.

استشهد النحاة بالحديث، ولكن ذلك كان على درجات متفاوتة، حتى أنّ حسن الشاعر يجزم بالقول[4]: "وما وجدت كتاباً نحوياً أغفل ذكر الحديث مطلقاً." وقد أجرى "الشاعر" دراسة إحصائية على عشرين كتاباً نحوياً هي أشهر كتب النحو المعروفة، فوجد أنّ النحاة في هذه الكتب العشرين قد استشهدوا بالحديث في (٦٤٢) موضعاً مما يدلّ على أنّ الحديث لم يكن معزولاً عن الاحتجاج لدى النحاة. ولكن هذه الشواهد، تبقىقليلة مقارنة بغيرها من الشواهد وخاصّة الشعريّة. فسيبويه على سبيل المثال استشهد في كتابه بـ(١٠٥٠) بيتاً من الشعر و(٤٠٠) آية من القرآن العظيم. إلاّ أنّه لم يورد سوى عشرة أحاديث دون أن ينصّ عليها. إذ ذكر الحديث دون أنْ ينسبه إلى الرسول ﷺ.

---

[1] السيوطي: الإقتراح، ط ١٩٨٨، ص٤٠.

[2] التكريتي، عبد المنعم أحمد: ابن الشجري ومنهجه في النحو، بغداد، ١٩٧٥م، ص٢٢٠.

[3] البغدادي: خزانة الأدب، ج١ ص٩-١٠.

[4] الشاعر: النحاة والحديث النبوي، ص٩٧.

فلماذا كانت الأحاديث في كتاب سيبويه قليلة، ولماذا لم ينسبها إلى رسول الله؟ ولعلّ الدكتور محمود حسني محمود كان محقّاً حين جعل الإجابة تكمن في حقيقتين اثنتين [1] :

الأولى: أنّ سيبويه كان ممن سمعوا الحديث، ولكنه كان دقيقاً حذراً مما جعله يخشى الوقوع في نسبة حديث إلى النبي وهو لم يذكره.

الثانية: أنّ الوضع في الحديث والكذب على النبي الكريم جعل التحرز مبدأ من مبادىء سيبويه، ولم تظهر الأسانيد أو المسانيد التي جمعت الأحاديث إلاّ في فترة تالية لسيبويه. ومن ينظر في كتب النحاة بعد تأليف "الصحاح" يجد أنّ الاحتجاج بالحديث بدأ يزداد، والتصريح بأنه حديث أخذ يلازم كلّ ذكر له. فقد اطمأن النحاة وتعمقت ثقتهم.

كان هذا فيما يتعلّق بسيبويه. أمّا ما يتعلق بالنحاة بشكل عام فيمكن القول: إنّ قلة استشهادهم بالحديث الشريف عائد إلى أسباب منها:[2]

أولاً: إنّ رواة اللغة كان اهتماهم منصباً على الشعر في القرن الأوّل الهجري وما بعده، وكانوا يفخرون بمقدار ما يروون من الأشعار.

ثانياً: وجد النحاة مادة الشعر متوفرة لدى الرواة، ويَسْهُل الإطلاع عليها، فيما لم تتوافر للنحاة المتقدمين نصوص الحديث بشكل منّظم، فضلاً عن شيوع الوضع في الحديث

ثالثاً: لعل النحاة المتقدمين قد وجدوا حرجاً في إخضاع القرآن والحديث لقواعد النحو.

رابعاً: لم يكن الكثير من أئمة النحاة على صلة بالحديث، بل غلب عليهم الاهتمام بالشعر.

وأمّا قول المانعين إنّه وقع اللحن في كثير من الأحاديث فيُجاب عنه برأي الشيخ محمد الخضر حسين حيث يقول:[3] إنّ كثيراً مما يرى أنّه لحن قد ظهر له وجه من الصحة، وقد ألّف في هذا الباب ابن مالك كتابه "التوضيح في مشكلات الجامع الصحيح" وذكر للأحاديث التي يشكل إعرابها وجوهاً تُبيّن أنها من قبيل العربي الفصيح،.. ثم إنّ وجود ألفاظ غير موافقة للقواعد المتفق عليها لا يقتضي ترك الاحتجاج بالحديث جملة، وإنّما يحمل أمرها على قلّة ضبط أحد الرواة في هذه الألفاظ خاصة.

وإذا وقع في رواية بعض الأحاديث غلطٌ أو تصحيف، فإنّ الأشعار يقع فيها الغلط والتصحيف وهي حجة من غير خلاف. قال محمد بن سلام الجمحي: وجدنا رواة العلم يغلطون في الشعر، ولا يضبط الشعر إلاّ أهله" وأبو أحمد العسكري الذي ألّف كتاباً في تصحيف رواة الحديث، قد ألّف كتاباً فيما وقع من أصحاب اللغة والشعر من التصحيف."

---

[1] أنظر محمود: احتجاج النحويين بالحديث ص٦١-٦٢.

[2] الشاعر : النحاة والحديث النبوي، ص٩٨،٩٩.

[3] أنظر حسين: الاستشهاد بالحديث في اللغة، ص٢٠٦،٢٠٧.

ولعل السبب -كما أرى- الذي دفع اللغويين والنحويين إلى عدم الاحتجاج بالحديث -والذي أميل إليه هو تسرّب اللحن إلى أحاديث رسول الله -ﷺ- ورواية بعضها بالمعنى لا باللفظ.

فالمسلمون النحويون قد وضعوا حديث رسول الله -عليه السلام-: "**مَن كذب عليّ عامداً متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**" أمام أعينهم.. فكانوا على حذر وهم يتعاملون مع هذه الأحاديث.. وكيف لا يكونون على حذر وبعض رواة أحاديث رسول الله من العجم المسلمين.. لذلك إمكانية دخول اللحن إلى الأحاديث واردة.. ففي دراسة للدكتور حسن الشاعر في كتابه "النحاة والحديث النبوي" حول رواة الحديث عرب أم عجم؟ خلص في دراسته إلى أنّ رواة الحديث يقعون في ثلاث طبقات هم: الصحابة، والتابعون، وتابعو التابعين. وقد اعتمد في طريقته الإحصائية على كتاب "الطبقات الكبرى" لابن سعد؛ حيث حصر رجال الطبقات الذين أوردهم في كل من البصرة والمدينة ومكة لبيان نسبة الموالي فيهم الذين رووا الأحاديث..[1]

وقد خلصت الدراسة إلى أنّ مجموع التابعين في طبقات البصرة من رواة الأحاديث (٤٣٣) راوٍ بينهم (٧١) من الموالي. فنسبة العرب (٨٤٪) ونسبة الموالي (١٦٪).

أمّا التابعون في المدينة فمجموعهم في طبقات المدينة (٥٠٤) بينهم (١٤٧) من الموالي. فنسبة العرب (٧٠٪) ونسبة الموالي (٣٠٪) تقريباً، أمّا التابعون في مكة فمجموعهم في طبقات مكة (١٣١) بينهم (٢٢) من الموالي. فنسبة العرب (٨٣٪) ونسبة الموالي (١٧٪) . وعليه تكون النسبة العامة للعرب والموالي في البصرة والمدينة ومكة هي (٧٩٪) من العرب) و (٢١٪) من الموالي تقريباً.

وبهذا يتضح أنّ التابعين من العرب هم الغالبية وأنّ الموالي لا يشكلون إلا الخمس تقريباً.[2]

أمّا الرأي الآخر الذي أراه والذي ربما دفع النحويين إلى عدم الاحتجاج بالحديث هو خروج بعض تلك الأحاديث على القاعدة النحوية ومن الأمثلة على ذلك:

قال رسول الله ﷺ: "**يتبع الميّت ثلاث: أهلُه، وماله، وعمله. فيرجع اثنان ويبقى واحد**"[3] قال العكبري: "الوجه أنْ يقال "ثلاثة"؛ لأنّ الأشياء المذكورة كلها مذكرات ولذلك قال: فيرجع اثنان ويبقى واحد فذكّر، والأشبه أنّه من تغيير الرواة من هذا الطريق.

---

[1] أنظر الشاعر: النحاة والحديث النبوي، (٣٧-٣٩).

[2] المرجع السابق، ص٣٧-٣٩.

[3] العكبري، أبو البقاء عبدالله بن الحسين (ت٦١٦هـ-١٢١٩م): إعراب الحديث النبوي، تح. د.حسن موسى الشاعر، وزارة الثقافة والشباب، ١٩٨١، ص٦٤،٦٥.

وقال رسول الله ﷺ: "**إنّما بنو هاشمٍ وبنو عبد المطلب شيئاً واحداً**"[1] . قال العكبري: "هكذا في الرواية بالنصب، وهو خطأ من الراوي، والوجه أن يقول بالرفع على أنّه خبر "بنو" وليس هنا خبر غيره".

وقال عليه السلام: "**ديَة أصابع اليدين، والرجلين سواء عَشَرة من الإبل**"[2] قال العكبري: "وقع في هذه الرواية "عشرة" بالتاء وهو خطأ والصواب "عشر"؛ لأنّ الإبل مؤنثة والتاء لا تثبت في العدد مع المؤنث.

بعد دراسة الآراء المختلفة للمتقدمين والمعاصرين، ومقارنة توثيق الحديث بتوثيق غيره من الشواهد يمكن استخلاص الرأي التالي للاستشهاد بالحديث:

يستشهد بالحديث الصحيح مطلقاً، حتى وإن ورد بروايات مختلفة، وهذا يشمل كتب الصحاح، وما اجتمعت فيه شروط الصّحة من كتب الحديث الأخرى. أمّا الحديث الذي لم يبلغ درجة الصحّة يستشهد به إنْ وجد له نظير في العربية من القرآن الكريم أو كلام العرب شعرهم أو نثرهم. بشرط ألاّ يصف المحدثون الرواية باللحن أو الغلط.

وإن استقراء هذه الأحاديث مع استقراء آيات القرآن الكريم وقراءته واستقراء كلام العرب ليفتح مجالاً واسعاً لإعادة تنظيم أصول النحو وبناء لغتنا على أسس علمية صحيحة.[3]

---

[1] المصدر السابق ص٨٦.

[2] المصدر السابق ص٢١٠.

[3] الشاعر: النحاة والحديث النبوي ص١٠١.

ثالثاً: كلام العرب: شعرهم ونثرهم

يُعدّ كلام العرب من أهم العناصر التي استقرئت منها قواعد العربية الكلية، حتى قيل في **تعريف النحو**: علم استخرجه المتقدمون من استقراء كلام العرب[1]، وفي تعريف آخر يقول: "انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير، والإضافة والنسب والتركيب، وغير ذلك فيلحق مَنْ ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإنْ شذّ بعضهم عنها رُدّ به إليها."[2]

إن "انتحاء سمت كلام العرب.." يعني إتباع المتكلم والتزامه قوانين كلام العرب حين يتحدث أو يكتب باللغة العربية.. ولقد كان المأثور عنهم من جيّد الشعر أضعاف ما أُثر عنهم من جيّد النثر؛ ولعل السبب في ذلك أنّ الشعر كان ديوان العرب، به عُرفت مآثرهم، وحفظت أنسابهم، والقلب إليه أنشط، والذهن له أحفظ، واللسان له أضبط، ومن ثمّ وُجد من يقول: "ما تكلمت به العرب من جيّد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيّد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عُشْره."[3] ولما أراد اللغويون جمع المادة اللغوية من المرويّات النثرية أو الشعرية؛ كي يستنبطوا منها القواعد والأحكام وضعوا لذلك خطة لا يحيدون عنها وهي جمع اللغة من مصادرها الأصلية ويأخذونها من منابعها الصافية الخالية من شوائب العجمة. فحددوا لذلك مكاناً وزماناً.

أمّا المكان فاتخذوا له طريقين: أولهما الأخذ عن أعراب البادية؛ وذلك عن طريق الرحلة إليهم، أو ممن وفد من الأعراب عليهم.. وقد نقلت لنا كتب اللغة ما قيل بشأن الكسائي العالم الكوفي من أنّه رحل إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي في البصرة ليأخذ عنه. فلما أعجبه علمه سأله عن مصدر هذا العلم، فقال الخليل: "من بوادي الحجاز ونجد وتهامة" فخرج إلى البادية، ورجع وقد أنفذ خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ[4]،ودخل أبو عمر الشيباني ومعه دستيجان من حبر، فما خرج حتى أفناهما يكتب سماعه عن العرب[5] على أنهم لم يكونوا كحاطب ليل يجمعون اللغة من كل مَن يصادفون، بل قصروا أخذهم عن قبائل معينة رأوا أنها سلمت من الاختلاط، فظلّت اللغة فيها نقية صافية بعيدة عن الفساد، وهذه القبائل التي ذكرناها في الفصل الثاني والتي تشمل قبائل **قيس، وتميم وأسد، وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين**. أمّا

---

[1] السيوطي: الإقتراح، ص٢٤، والقول لابن السّراج وهو واحد من تلاميذ المبرّد، خالف أصول البصريين في مسائل كثيرة ويقال: "ما زال النحو مجنوناً حتى عقّله ابن السّراج بأصوله، توفي سنة ٣١٦هـ.

[2] ابن جني: الخصائص ج١، ص٣٤.

[3] القيرواني: العمدة، ج١، ص٢٠.

[4] ابن الأنباري: نزهة الألباء، ص١٣١.

[5] المصدر السابق، ص١٣٢.

البقية الأخرى من القبائل العربية فلم يؤخذ عنها بسبب اختلاطها بالأمم الأخرى من غير العرب والذين فسدت لغتهم -على رأي الفارابي-[1]

ولم تكن الرحلة إلى البادية وحدها هي طريقهم إلى مشافهة الأعراب، وأخْذ اللغة عنهم، بل كان من الأعراب من يفد إلى المدن العراقية الكبرى، يقصدون بذلك الكسب المادي بسبب ما يروونه من الأخبار والأشعار. أو بتعليم من شاءوا من أبناء الأمراء.

وكان مذهب أبي عمرو بن العلاء يقصر الأخذ على سكان البادية. أمّا جمهور اللغويين والنحاة فأباحوا الأخذ عمّن يفد إلى الحضر من سكان البادية. وقد ذكر ابن النديم في (الفهرست) أسماء عددٍ كبير من هؤلاء الأعراب حيث قال: "اقتضى ذكرهم في هذا الموضع مع اختلاف أصقاعهم، وتباين أوقاتهم أنّ العلماء عنهم أخذوا فذكرتهم."[2]

ثانيهما: الأخذ عن فصحاء الحضر وهم فئتان: فئة من الأعراب اتخذت من ضواحي المدن العراقية الكبرى مستقراً لها ومقاماً، فظلوا بمنجى عن الاختلاط بالأعاجم والمولدين، فسلمت لغتهم، وفئة من أهل الحضر صحّت عند اللغويين والنحاة سليقتهم، واستقامت ألسنتهم بما حفظوا من قرآن وشعر ومرويات مأثورة. ومنهم عمر بن أبي ربيعة، وجرير، والفرزدق، والأخطل، وكُثيِّر والأحوص والكُميت وبشار ورؤبة والعجّاج وغيرهم.[3]

وحول هؤلاء الفصحاء يقول علي أبو المكارم: "وإذن ليس صحيحاً ما قرره السيوطي من أنّه "لم يؤخذ عن حضري قط" [4] فقد أخذ النحاة عن أهل الحضر كما أخذوا عن أهل البادية.[5]

أمّا الزمان الذي حدّدوه لأخذ اللغة من المرويات النثرية، سواءٌ كانت مأخوذة عن أعراب البادية أو عن فصحاء الحضر، فقد حدّدوه بنحو ثلاثمائة سنة: منها مئة وخمسون قبل الإسلام، ومائة وخمسون بعده، ثم نظروا فيما روي بعد ذلك، فإن كان عن أهل البادية فهو حجّة في اللغة، وإن كان عن أهل الحضر لم يكن حجة في اللغة، وإن جاز الاستشهاد به في البلاغة والدرس الأدبي.[6]

هذا وقد اشترط البصريون في المسموع -سواءٌ كان شعراً أم نثراً- أنْ يكون كثيراً حتى يستحق الوصف بالاطّراد في الاستعمال، أمّا القليل فلم يبنِ البصريون عليه قاعدة، وإنْ بناها الكوفيون بعد أن ظهروا على الساحة النحويّة، ولقد كان كلام العرب في نظر النحاة يشمل الشعر

---

[1] أنظر أبو حيان الأندلسي: تذكرة النحاة، ص٥٧٧.

[2] ابن النديم: الفهرست، ص٦٥.

[3] أنظر أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، ص٢٧-٢٩.

[4] السيوطي: الإقتراح ص٤٤.

[5] أبو المكارم: أصول التفكير النحوي ص٢٩.

[6] المرجع السابق، ص٤٢.

والنثر على السواء، ولكنّ ذلك كان من الناحية النظريّة. أمّا من حيث التطبيق فقد رأينا النحاة يحفلون بالشعر إلى درجة ألْهتهم أو كادت تلهيهم عما عداه من الكلام. فللشعر لغته الخاصة التي تسعى إلى تحقيق الغايات الجمالية أوّل ما تسعى ولو كان ذلك على حساب عرفيّة الاستعمال وصحة التركيب بحسب القواعد[1]

كما قسّموا الشعراء إلى أربع طبقات هي:

١- ***الطبقة الأولى:*** وتشمل الشعراء الجاهليين، وهم من كانوا قبل الإسلام، مثل امرئ القيس وأبي أمامة زياد بن معاوية، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى المزني...الخ

٢- ***الطبقة الثانية:*** وتشمل الشعراء المخضرمين، وهم الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام مثل كعب بن زهير بن أبي سلمى (ت٢٤هـ-٦٤٥م)، وحسان بن ثابت الأنصاري (ت٥٤هـ-٦٧٤م) وجرول بن أوس الحطيئة العبسي (ت٥٩هـ-٦٧٩م)...الخ

وهاتان الطبقتان يحتج بكلامهما، ويؤخذ على أنّه لغة يقاس عليها، وتبنى عليه قواعد النحو والصرف بإجماع اللغويين ودون خلاف بينهم في ذلك، والشعر والنثر في ذلك سواء. ويدخل في حكم هاتين الطبقتين من الشعراء كل العرب المعاصرين لهما.

٣- ***الطبقة الثالثة:*** وتشمل الشعراء الإسلاميين المتقدمين الذين كانوا بعد ظهور الإسلام إلى أواخر القرن الثاني.. -وهم كثيرون جداً- مثل عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي (ت٩٣هـ-٧١٢م) وأبي فراس الحمداني والفرزدق همام بن غالب التميمي (ت١١٠هـ-٧٢٨م) وأبي حَزْرَه جرير بن عطيّة الخطفي التميمي (ت١١٠هـ-٧٢٨م) وذي الرّمة(ت١١٧هـ-٧٥٣م) وابن هرمه.

٤- ***الطبقة الرابعة:*** وتتكون من المولّدين أوالمحدثين وهم من جاؤوا بعدهم كبشار بن برد وأبي نواس.

وقد أجمع البصريون على الاستشهاد بشعر الطبقتين الأولى والثانية. أما الطبقة الثالثة فقد ذكر البغدادي في (خزانة الأدب) خلافاً في الأخذ عنها معتمداً في ذلك على أنّ أبا عمرو بن العلاء، وعبد الله بن أبي اسحق والحسن البصري وعبد الله بن شبرمه كانوا يلحنون الفرزدق والكُميت وذا الرمّة وأضرابهم في عدة أبيات أخذوها عليهم ظاهراً، وكانوا يعُدونهم من المولدين؛ لأنهم كانوا في عصرهم، والمعاصرة حجاب[2]

غير أنّ المعاصرين للطبقة الثالثة قد وقف منها موقف الريب والإهمال واعتبارها مولدة لحداثتها آنذاك بمعاصرتها لهم. فقد كان أبو عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ-٧٧١م) يقول: "لقد حَسُن هذا المولّد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته"، يعني بذلك عن جرير، والفرزدق فجعله

---

[1] حسّان، تمام: الأصول دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٨، ص١٠٢،١٠٣، وسيشار إليه فيما بعد بـ (حسّان: الأصول).

[2] البغدادي خزانة الأدب ص١-٦.

مولّداً، بالإضافة إلى شعر الجاهليين والمخضرمين، وكان لا يعد الشعر إلاّ ما كان للمتقدمين. قال الأصمعي: "جلست إليه عشر حجج، فما سمعته يحتج ببيت إسلامي[1]

وقال ابن رشيق: "هذا مذهب أبي عمرو وأصحابه كالأصمعي (ت٢١٦هـ-٨٣١م) وابن الأعرابي (ت٢٣١هـ-٨٤٦م) أعني أنّ كل واحد منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب، ويقدم من قبلهم وليس ذلك بشي إلاّ لحاجتهم في الشعر إلى الشاهد، وقلّة تفتهم بما يأتي به المولدون حتى صارت لجاجة[2] غير أنّ هذا المذهب لم يكتب له النجاح ولا النمو والانتشار؛ لأنه لا يمثّل موقفاً قاطعاً، ولا رأياً حازماً وإنّما يمثل موقف الشك؛ لذلك ولأنّ سلامة سليقة فحول شعراء صدر الإسلام أمر محقق لا نزاع فيه، كان هؤلاء الشعراء مصدراً أصيلاً ثراً في فكرنا اللغوي أطبقت مراجعنا اللغوية التي وصلت إلينا على الاستشهاد به، وبناء الأحكام النحوية عليه، بل إنّ ما في كتاب إمام اللغويين سيبويه من شعر الفرزدق وجرير أكثر مما لامرئ القيس والنابغة الذبياني.

لكنّ ابن سلام محمد بن سلام الجمحي (ت٢٣١هـ-٨٤٦م) قد قسّم الشعراء في كتابه القيّم "طبقات فحول الشعراء" فجعلها في خمسة أقسام هي:-[3]

(أ) **الشعراء الجاهليون والمخضرمون** جعلهم "طبقات فحول الجاهلية" في عشر طبقات، كل طبقة أربعة شعراء. فكان جملة من ذكر منهم أربعين شاعراً.

(ب) **طبقة أصحاب المراثي**، وهي طبقة واحدة، عدد شعرائها أربعة فقط، منهم الخنساء تماضر بنت عمرو الشريد وهي من الشعراء المخضرمين، إذ هي صحابية -رضي الله عنها-.

(ج) **طبقة شعراء القرى العربية** (المدينة المنورة، ومكة المكرمة، والطائف، واليمامة والبحرين) وقد عُدّ لكل واحدة من هذه المدن غير اليمامة طائفة من الشعراء وقال: "وأشعرهن قرية المدينة شعراؤها الفحول خمسة.. أشعرهم حسان بن ثابت، وهو كثير الشعر جيده[4]

(د) **طبقة شعراء يهود**، وقد ذكر لها ثمانية شعراء، أوّلهم السموأل بن عادياء المشهور وهو عربي من غسان.[5]

(هـ) **شعراء صدر الإسلام**، جعلهم في عشر طبقات كل طبقة أربعة شعراء، فكان جملة من ذكر منهم أربعين شاعراً، كما سبق في طبقات فحول الجاهلية.

---

[1] القيرواني: العمدة ج١، ص٩٠.

[2] المصدر السابق، ج١ ص٩١.

[3] الجمحي: طبقات فحول الشعراء، ج١، ص٢٣-٢٤.

[4] القيرواني: العمدة ج١، ص٩٠-٩١.

[5] أنظر الجمحي: طبقات فحول الشعراء، ج١ ص٢٧٩-٢٩٦.

وهذا التقسيم يتفق في معناه وجوهره مع التقسيم الأوّل ويُفصّلُه تفصيلاً واسعاً، ويجعله تقسيماً علمياً واضح الدليل، إذ يجد فيه دارس العلوم اللغوية كثيراً من الأحكام النقدية والنصوص الشعرية الموثّقة لهؤلاء الفحول، كما يجد فيه أسماء هؤلاء الفحول، وكثيراً من أخبارهم ومواضعهم في الشعراء، ويدلُّه على غيرهم من فحول الجاهلية والإسلام.

وفي ظنّي أنّ العلماء اللغويين قد وقعوا في خطأ جسيم عندما امتنعوا عن سماع اللغة والاحتجاج بها بعد (١٥٠هـ-٧٦٧م)؛ لأنّ الفصاحة المتأصلة في أصحابها يصعب تغييرها أو تبديلها أو التأثير عليها.

وهذا مثال من القرن الرابع الهجري يدلّ دلالة أكيدة على أنّ بعض الأعراب الذين لقيهم (راوي الخبر) ما زالت سليقتهم اللغوية سليمة نقيّة.

يروي أبو منصور محمد الأزهري (ت٣٧٠هـ-٩٨٠م) صاحب معجم "تهذيب اللغة" الضخم في مقدمة هذا المؤلَّف قصّة وقوعه في أسر الأعراب عند عودته من الحج سنة (٣١٢هـ-٩٢٤م) حيث اعترض القرامطة ركب حجيج الله بالهبير في شبه الجزيرة، وهو عائد إلى وطنه (هراه بخراسان) بعد أدائه مناسك الحج، وأنّ عامة الأعراب الذين وقع في أسرهم من هوازن، وجماعات من تميم وأسد، نشأوا في البادية، ويتكلمون بطباعهم ولا يكاد يقع في منطقهم لحنٌ أو خطأ فاحش، وقد بقي في إسارهم زمناً طويلاً. قال:-

"**كنت امتحنت سنة عارضتْ القرامطة الحاج بالهبير: (والهبير اسم مكان على طريق مكة) وكان القوم الذين وقعت في سهمهم عرباً عامتهم من هوازن، واختلط بهم أصرامٌ. (جمع صِرم بكسر الصاد، وهي الجماعات) من تميم وأسد بالهبير نشأوا في البادية يتتبعون مساقط الغيث أيام النجع، ويرجعون إلى إعداد المياه في محاضرهم زمن القيظ ويرعون الغنم ويعيشون بألبانها، ويتكلمون بطباعهم البدوية، وقرائحهم التي اعتادوها، ولا يكاد يقع في منطقهم لحن أو خطأ فاحش، فبقيت في إسارهم دهراً طويلاً.**"[١]

ولكن ما الذي استفاده الأزهري من الإقامة بينهم؟ حول هذا الموضوع يجيب الأزهري فيقول: "**واستفدت من مخاطبتهم ومحاورة بعضهم بعضاً ألفاظاً جمّة ونوادر كثيرة أوقعتُ أكثرها في مواقعها من الكتاب**"[٢]

وأشار الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه "أسرار اللغة"[٣] إلى أنّ من بين المآخذ على عمل اللغويين واحتجاجاتهم بكلام العرب أنهم لم يحاولوا الفصل بين الشعر والنثر في تقعيدهم القواعد،

---

[١] الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد (ت٣٧٠هـ-٩٨١م): تهذيب اللغة، تح. عبدالسلام محمد هارون، وراجعه محمد علي النجار المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م، ج١، ص٧.

[٢] المصدر السابق ج١، ص٧.

[٣] أنيس: من أسرار اللغة، القاهرة، ١٩٥٨، ص٢٤٨.

حيث يظهر هذا من خلال استعراض احتجاجات النحويين في إثبات قاعدة نحوية أنهم كانوا يقتصرون في احتجاجهم على الشعر وحده.

أما الدكتور تمام حسّان فقد بيّن في كتابه "الأصول" إلى أنه ينبغي ألاّ ينظر إلى الشعر على أنّه المستوى النموذجي للاستعمال العربي؛ لأنه إذا كان المقصود بإنشاء النحو وصف النموذج العادي الذي تتمثل فيه اللغة العربية الفصحى فإنّ لغة الشعر بما تمتاز به من خصوصية البناء والتركيب والضرائر والرّخص تقصر دون تمثيل اللغة الفصحى تمثيلاً كاملاً مقبولاً حتى مع التسليم بأن تكون اللغة التي يستنبط منها النحو هي اللغة الأدبية دون غيرها[1]

ولعلّ هذه الخصائص التركيبية التي تمنح الشاعر قدراً من الحرية التي لا يتمتع بها غيره في تركيب الجمل، وضعت النحاة أمام المسموع من الشعر بصورته التي لا تلتزم التزاماً تاماً بغير المعايير الجمالية، فساعد ذلك على نشأة الخلاف بين النحاة حول ردّ النصوص الشعرية إلى الأصول النحوية، وعندما يعجز النحاة من التوفيق بين الشعر والنحو يعترفون بالضرورة والرخصة.[2] ولعل العذر الوحيد الذي يمكن أنْ يُقدَّم في مثل هذا الموقف أنّ علماء العربية الأوائل عندما كان كلام العرب مصدراً لسماعهم ووضع قواعدهم إنّما كانت نظرتهم الأولى والأخيرة هو خدمة القرآن العظيم، والقرآن نزل بلغة أدبية عالية المستوى فلا يمكن فهمها ودراسة تراكيبها إلاّ في ضوء الاستعمالات الأدبية عند العرب قبل أن تتطور هذه الاستعمالات وتتغير بسبب الاحتكاك الثقافي والحضاري بالأمم الأخرى التي دخلت في دين الله.

ولعلّ الأمثلة التالية التي أوردها الأزهري[3] تدل على ما ذهب إليه من أنّ الفصاحة باقية في أصحابها، لا تتغير حتى وإن اختلطوا. قال الأزهري: "**وسمعت العرب تقول: بئر عضوض، وماء عضوض إذا كان بعيد القعر، يستسقى منه بالساقية**"[4] و "**قلت**" **وسمعت العرب تقول للقصَب إذا طال في منبته: قصب رعراع، ومنه قيل للغلام إذ شبّ وامتدت قامته: رعراع ورعرع.**"[5] و "**الغريب: المال العازب عن الحي، سمعته من العرب**"[6]

فتجربة الإمام الأزهري تؤكد الرأي القائل: إنّ الفصاحة العربية ظلّت على قوتها وسلامتها إلى النصف الثاني من القرن الرابع، وأنّ سلائق العرب لم تفسد كل الفساد في البادية إلى هذا

---

[1] حسان: الأصول، ص١٠٣.

[2] أنظر المرجع السابق، ص١٠٣-١٠٤.

[3] أنظر ترجمة الأزهري في إنباه الرواه، ج٤ ص١٧١-١٧٥.

[4] الأزهري: تهذيب اللغة ج١، ص٧.

[5] المصدر السابق ج١ ص١٠٤،٧٤، ج٢ ص١٤٨،١٤٩.

[6] المصدر السابق ج١ ص١١٣،١٠٦، ج٢ ص١٣٥،١٦٦.

الحين، وأمّا في الأمصار، ومركز الاختلاط بغير العرب، فإنها لم تَعُد كما كانت -منذ أواخر القرن الثاني- بل غلب عليها اللحن والسليقة العامية وفساد الألسنة ولكنتها.

وإنني إذ أرى أنّه ينبغي أن تؤخذ اللغة الفصحى عن العرب أيّاً كان موطنهم بشرط نقاء اللغة وسلامتها سواءٌ أكانوا من أهل المدن أم من أهل البادية.

ولعل من أهم الانتقادات التي وُجّهت إلى اللغويين في عصر السماع وعصر الاحتجاج، هو اقتصارهم الأخذ على اللغة الأدبية، وخلطهم الشعر بالنثر في تقعيد القواعد.. وإغفالهم التطور اللغوي في المرحلة الزمنية التي حدّدوها.

وإلى هذا أشار من المحدثين الدكتور عبده الراجحي[1] إلى أنّ الغربيين يأخذون على النحو العربي أنّه لم يُقعَّد على أساس اللغة المحكية، بل كان التقعيد على أساس لغة الشعراء أو ما قيل من أمثال وحكم ونثر أو نصوص قرآنية. فقصر الدرس النحوي على هذا المستوى الراقي من الشعر أو النثر أو...الخ أدى إلى وضع قواعد العربية على هذا الأساس مما أبعدهم عن الاستعمال الشائع في هذه اللغة، مما أدى إلى مواجهة نصوص تخالف ما وضعوه من قواعد، فأطلقوا عليها الضرورة أو الشذوذ. وحتى نخلص من القول بالضرورة أو الشذوذ فإنّني أرى أنّ السماع اللغوي والاحتجاج باللغة ينبغي أن يقتصر على القرآن الكريم فقط؛ وذلك للأسباب التالية:-

أولاً:- نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ وتعهد الله تعالى بحفظه حتى يرث الله الأرض ومن عليها، كما أنه نزل بلغات كل العرب -التي سكنت وسط شبه الجزيرة العربية وأطرافها[2] وحفظه العرب والمسلمون، وأُعجبوا به، كما أنّه قضى على الفوضى المتفشية في اللهجات العربية، وأخضعها لمعايير ثابتة. ونتيجة لهذا فقد رأى اللغويون في لغة القرآن الكريم أنموذجاً رائعاً رفيعاً صالحاً لكل زمان ومكان، وخوفاً على كلماته من الضياع، واعتزازاً بلغته، واحتذاءً بشكله ومضمونه، وجدنا اللغويين العرب ينصرفون عن اللغة التي يتعاملون بها في حياتهم اليومية، ولهجتهم القبلية، وركزوا جهودهم للتعليم والتهذيب على محتوى القرآن الكريم وعلى شكله، وعدّوه المصدر الأوّل والأوحد، فأخذ اللغويون القواعد منه.

ثانياً:- كان الشعر الجاهلي - واحداً من مصادر السّماع التي تَثْبُتُ بها قواعد اللغة، ولكن هذا المصدر لم يسلم من العيوب والنقد. وكان سبب تلك العيوب يعود إلى التصحيف الذي يدل على أنّ الشعر العربي كان مُسجّلاً في صحف أو في دواوين يُقرأ منها، بينما كان القرآن الكريم وقراءاته العديدة مرجعه النقل أو السّماع. ومن أسباب العيوب الاضطراب في رواية هذا الشعر؛

---

[1] أنظر الراجحي، عبده: النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، بيروت ١٩٨٦م، ص٤٨، ٤٩، وسيشار إليه فيما بعد بـ (الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث).

[2] أنظر فهرس القبائل العربية التي ورد ذكر لغاتها في القرآن الكريم في الصفحة التالية.

حيث رُوي الكثير من الشعر العربي بروايات عديدة، وفي كل رواية كانت تقوم القاعدة، وتبنى الأصول مما أدى إلى اضطراب هذه القواعد، بينما الرواية في مجال القرآن وقراءاته موثقة تقوم على سندٍ متين، لا يتسرب إليه الشك.

ومن الأسباب التي أدت إلى نقد الشعر ما أطلق عليه الضرورة، فالشاعر كان يُغَيّر ويبدل في ألفاظه مراعياً الوزن، والقافية، والموسيقى، بينما كان القرآن الكريم خالياً من الضرورات.

ومن الأسباب التي أفزعت النقاد القدماء والمحدثين وجعلتهم يعيبون الشعر كثرةُ الأبيات المجهولة، وكثرة الأبيات المدسوسة أو المنحولة والتي كانت بفعل حمّاد، وخلف الأحمر، وقد كان النحاة يعتمدون على هذا الشعر في استنباط القاعدة، واستخراج الأصول، حتى أنّ كتاب سيبويه لم يخل من ذلك .. أليس من الحكمة أنّ نلجأ إلى القرآن الكريم ونعُدّه المصدر الأوّل والأخير الذي يجب أن نتجه إليه في كل قاعدة نقيمها، وفي كل حكم نصدره، وفي كل أسلوب ننشئه.

ثالثاً:- أمّا بالنسبة للاستشهاد بالحديث الشريف فإنّني أعتقد -رغم أنه قد لقي من العناية ما لم يلقه حديث آخر- إلاّ أنّه لن يصل إلى درجة العناية التي وصل إليها الكتاب السماوي -القرآن الكريم- وذلك بسبب ما أثير حوله من ضجة من جواز روايته بالمعنى، أو بسبب خروج بعض الأحاديث على القاعدة النحوية؛ ولهذا لن يصل الحديث النبوي إلى القرآن الكريم في باب التوثيق ومجال القاعدة واستنباط الأصول اللغوية والنحوية.

فهرس القبائل العربية التي وَرَد ذكر لغاتهم في القرآن الكريم، وعدد مرات ذلك[1]

القبيلة/الطائفة	عدد المرات	القبيلة/ الطائفة	عدد المرات
قريش	٩٨	الخزرج	٣
كنانة	٣٦	عامر بن صعصعة	٣
هذيل	٣٢	هوازن	٣
حمير	٣٢	اليمامة	٣
قيس عيلان	٢٠	أهل المدينة	٢
تميم	١٨	ثقيف	٢
أهل عُمان	١٠	سليم	٢
أزد شنوءَة	٩	عذرة	٢
كندة	٨	لخم	٢
طيء	٨	أزد عُمانِ	١
حضرموت	٧	تغلب	١
أهل اليمن	٧	نمير	١
أهل الحجاز	٧	اليمن	١
غسان	٥		
خزاعة	٥		
بنو حنيفة	٥		

---

[1] أنظر: أبو عبيد الهروي: لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم، شرح وتعليق وتحقيق د. عبدالحميد السيد طلب، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص ٤٠٥-٤١٠ .

الفصل الرابع

طرائق السّماع وضوابط السامع والمسموع وعلاقتها بعلم الحديث

أولاً: طرائق السَماع في أخذ اللغة.

ثانياً: ضوابط السامع.

ثالثاً: ضوابط المسموع.

رابعاً: علاقة الطرائق والضوابط بعلم الحديث.

أولاً: طرائق سماع اللغة وأداؤها.

يقصد بطرائق سماع اللغة "الاصطلاحات التي تثبت بها اللغة لمن يأخذها وتصح روايته عند الأداء".[1] ولعل أوّل من وضع هذه الطرائق هم المحدّثون حيث كان هدفهم من وضعها المحافظة على الحديث النبوي الشريف. وهذه الطرائق التي وضعها المحدّثون لم تنتقل جميعاً إلى أهل اللغة، فقد أخذوا منها كعهدهم بما هم بحاجة ماسّة إليه. فكانت طرائق الأخذ في اللغة ستاً كما سجّلها السيوطي[2] إلاّ أنّ اثنتين منها تعودان إلى طريقة واحدة هي (القراءة على الشيخ) كما سيأتي فتكون الطرائق بذلك خمساً. والطرائق الست هي:-

١) السّماع من لفظ الشيخ أو العربي.

حدّد ابن فارس ثلاثة أنواع من السّماع، حيث قال: "تؤخذ اللغة اعتياداً كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على مرّ الأوقات، وتؤخذ تلقناً من ملقن، وتؤخذ سماعاً من الرواة الثقات"[3] ولعل الأخذ من الرواة الثقات سماعاً هو ما قصد إليه المحدّثون في قولهم: "سماع من لفظ الشيخ" .. وهذا القسم أرفع الأقسام عند الجماهير.[4]

وقد أشار السيوطي إلى أنّ أداء هذه الطريقة يكون بصيغ أعلاها أن يقول: أملى عليّ فلان، أو أملّ عليّ فلان.[5] ومن الأمثلة على ذلك ما قاله أبو علي القالي في أماليه: "أملى علينا أبو بكر بن دريد، قال: أنشدنا أبو حاتم عن أبي عبيدة لِخِرْنق بنت هفّان ترثي زوجها عمرو بن مرثد وابنها علقمة بن عمرو وأخويه حساناً وشرحبيل:

لا يَبْعَدَنْ قومي الذين همُ ... سمُّ العُداةِ وآفةُ الجزْر
النازلــون بكل مُعْتَـرَكٍ ... والطيّبون معاقِدَ الأُزُرِ[6]

---

[1] الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج١ ص ٣٣١ .

[2] السيوطي: المزهر، ج١ ص ١٤٤ .

[3] ابن فارس: الصاحبي (طبعة الشويمي)، ص ٦٢ .

[4] ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمن(ت ٦٤٣هـ-١٢٤٦م): مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، تح. نور الدين عتر، منشورات دار الحكمة، دمشق ط-١٩٧٢، ص ١١٨. وسيشار إليه فيما بعد بـ(ابن الصلاح: في علوم الحديث).

[5] السيوطي: المزهر، ج١ ص ١٤٥ .

[6] المصدر السابق ج١ ص ١٤٥ .

ومن الصيغ الأُخرى التي يستعملها أهل اللغة صيغة "سمعت" وعدّها السيوطي من الدرجة الثانية. ومن الأمثلة على ذلك ما حدّث به مسلمة حيث قال: "سمعت الفرّاء يحكي عن الكسائي أنّه سمع: إسقني شربة ماء يا هذا يريد شربة ماء فقصر."[1]

ويلي هذه الصيغة أنْ يقول: حدّثني فلان، وحدّثنا فلان ويُستَحسن: حدّثني إذا حدّث وحده، وحدثنا إذا حدّث وهو مع غيره. ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:- "حدّثني غير واحدٍ من أصحاب أبي العباس ثعلب، عنه أنّه قال: كل شيء يعزُّ حين ينزر إلاّ العلم، فإنّه يعزُّ حين يغزر."[2]

ويلي حدثني: أخبرني فلان، وأخبرنا فلان، ويستحسن الإفراد حالة الإفراد والجمع حالة الجمع، ومن الأمثلة على ذلك ما قاله ثعلب في أماليه عن أبي المنهال عن أبي زيد قال: السانح الذي يليك ميامنه إذا مرَّ من طير أو ظبي أو غيره، والبارح الذي يليك مياسره إذا مرَّ بك، وإن استقبلك فهو ناطح ..."[3]

ويلي ذلك أن يقول: قال لي فلان. ومن الأمثلة على ذلك ما قاله ابن الكلبي: بيوت العرب ستة: قبّة من أدم، ومِظلّة من شعر، وخباءٌ من صوف، وبجاد من وبَر، وخيمة من شجر، وأقْنة من حجر."[4]

ويلي ذلك أن يقول: قال فلان، بدون لي. ومن الأمثلة على ذلك ما قاله أبو زيد: "لست أقول: قالت العرب، إلاّ إذا سمعته من هؤلاء: بكر بن هوازن، وبني كلاب، وبني هلال، أو من عالية السافلة، أو سافلة العالية، وإلاّ لم أقل: "قالت العرب"."[5]

ويلي ذلك صيغة زعم فلان[6]، وقال لي فلان[7] ، وقال فلان بدون لي[8] ، و "عن فلان"[9] ، و "أنشدنا، وأنشدني"[10].

---

[1] السيوطي: المزهر، ج١ ص ١٤٦ .

[2] المصدر السابق، ج١ ص ١٤٧، ١٥٠ .

[3] المصدر السابق، ج١ ص ١٥٠، ١٥١ .

[4] المصدر السابق، ج١ ص ١٥١ .

[5] المصدر السابق، ج١ ص ١٥١ .

[6] المصدر السابق، ج١ ص ١٥٢ .

[7] المصدر السابق، ج١ ص ١٥٣ .

[8] المصدر السابق، ج١ ص ١٥١ .

[9] المصدر السابق، ج١ ص ١٥٣ .

[10] المصدر السابق، ج١ ص ١٥٥ .

٢) **القراءة على الشيخ ويقول عند الرواية: قرأت على فلان.**

ومن الأمثلة على ذلك ما أورده القالي في أماليه قال: قرأت على أبي بكر، محمد بن أبي الأزهر قال: حدثني حماد بن اسحق .... قال: قيل لعقيل بن عُلَّفة، وأراد سفراً، أين غَيْرتك على من تُخلَّف من أهلك ؟ قال:أخلِّف معهم الحافظَين الجوع والعُرْي، أُجيعُهن فلا يمرحن، وأُعريهن فلا يبرحن.[١]

٣) **السَماع على الشيخ بقراءة غيره،** ويقول عند الرواية: قرئ على فلان وأنا أسمع. ومن الأمثلة على ذلك ما أورده الأنباري قال: قرئ على أبي العباس لأبي حيّة النميري وأنا أسمع:

وخبَّرك الواشون أنْ لن أحبَّكم بلى وستورِ اللهِ ذاتِ المحارمِ.[٢]

٤) **الإجازة وذلك في رواية الكتب والأشعار المدوَّنة.**

وقد جوَّز ابن الأنباري صحة هذه الطريقة؛ بدليل أن النبي ﷺ كتب كتباً إلى الملوك، وأُخبرت بها رسله، ونزل ذلك منزلة قوله وخطابه، وقد قال ثعلب في أماليه: قال زبير: ارو عنّي ما أخذته من حديثي؛ فهذه إجازة.[٣]

٥) **المكاتبة** هي أن يكتب الراوية الثقة إلى غيره أبياتاً أو خبراً فيروي ذلك عنه.[٤] ومن الأمثلة على ذلك الأبيات التي بعثها المازني وقال: أنشدنا الأصمعي[٥]:

وقائلةٍ ما بالُ دوسرَ بعدنا صحا قلبُه عن آل ليلى وعن هِنْد.

٦) **الوِجادة:** وهي أن يسوق ما يرويه على أنَّه وجده في كتاب[٦].

ومن الأمثلة على ذلك ما قاله القالي في أماليه قال أبو بكر بن أبي الأزهري: وجدت في كتاب أبي، حدّثنا الزبير بن عبّاد ..... الخ.[٧]

لقد عَرَضَ السيوطي طرائق السَّماع حيث رتَّبها حسب أهميتها، فجعل أوّل هذه الطرائق وأعلاها منزلة "السماع من لفظ الشيخ" وأدناها منزلة "الوجادة".

---

[١] السيوطي: المزهر، ج١ ص ١٥٨ .

[٢] المصدر السابق، ج١ ص ١٦١ .

[٣] المصدر السابق، ج١ ص١٦٣ .

[٤] الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج١ ص ٣٣٣ .

[٥] السيوطي: المزهر، ج١ ص ١٦٧. والدوسر: الجمل الضخم.

[٦] الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج١ ص ٣٣٣ .

[٧] السيوطي: المزهر، ج١ ص ١٦٨ .

وإنَّني إذ أعتقد أنَّ هذا الترتيب ليس صحيحاً إلى درجة كبيرة. فالسَّماع من لفظ الشيخ ليس موفقاً إلى الدرجة التي توهله لتصدُّر طرائق سماع اللغة؛ وذلك لأنَّ الشيخ راوي اللغة ربَّما سها أو غلط فيما يقرؤه بنفسه، فلا يردُّه عليه الطالب السامع ذلك الغلط لثلاثة أسباب هي: إمَّا لأنَّ الطالب جاهل فلا يهتدي للردّ عليه، وإمَّا لهيبة الراوي، وإمَّا أن يكون غلط الراوي في موضع صادف اختلافاً فيجعل خلافاً توهماً أنَّه مذهبه فيحمل الخطأ صواباً.[1]

وإنني إذ أعتقد أن الطريقة التي ينبغي أن تتصدر مجموعة الطرائق هي (القراءة على الشيخ). وأكثر المحدّثين يُسمُّون هذه الطريقة "عَرْضاً" لأنَّ القارئ يعرض ما يقرؤه على الشيخ كما يعرضُ القرآن على إمامه. وإلى هذا ذهب أبو حنيفة في أحد قوليه والشافعي وهو مذهب مسلم بن الحجاج ويحي بن يحي التميمي إلى أنَّ القراءة على الشيخ أرفع من السماع وأصحّ.[2]وعلى هذا تكون طرائق سماع اللغة مرتبة حسب أهميتها كما يلي:-

أ) القراءة على الشيخ.　　ب) السماع على الشيخ.

ج) السماع من الشيخ أو العربي　　د) الإجازة.

هـ) المكاتبة.　　و) الوجادة.

---

[1] القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى(ت ٥٤٤هـ-١١٥٠م): الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، تح. السيد أحمد صقر، دار التراث-القاهرة والمكتبة العتيقة، تونس، ط١-١٩٧٠، ص ٧٤. وسيشار إليه فيما بعد بـ(القاضي عياض: الإلماع).

[2] المصدر السابق، ص ٧٣ .

ثانياً: *ضوابط السامع.*

وضع العلماءُ مجموعة من القواعد تضبط سامع اللغة وناقلها، أي أنَّ ناقل اللغة أو سامعها يجب أن يتمتع بمجموعة من الصفات؛ لأنَّ الذي يتعاملون معه ويعالجونه ما هو إلاَّ القرآن الكريم والحديث النبوي ولغة العرب. فالقرآن الكريم، والحديث الشريف دين يُتَّبع، وطريق هداية، والخير كل الخير في أن يسلكوه.[1]

ولعل السبب الثاني الذي دفع علماء الحديث ثم علماء اللغة إلى وضع هذه الضوابط هو أنَّ الرواية في عصر السماع أصبحت وسيلة من وسائل الكسب؛ إذ عمد كثير من الرواة إلى الوضع والكذب؛ لذلك وجدنا البصريين لا يتعاملون إلاَّ مع الثقات من الرواة، أمثال أبي عمرو بن العلاء، والأصمعي، وأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاريّ، ومن تلاهم ...

وقد قيل إنَّ أبا عمرو بن العلاء وعبدالله بن أبي إسحق ... الخ كانا يُلحنانِ الفرزدق، والكُميت، وذا الرُمة، وأضرابهم، ويعدُّونهم من المولَّدين الذين لا يُستشهد بكلامهم. قال الأصمعي: جلست إلى أبي عمرو عشر حجج، ما سمعته يحتج ببيتٍ إسلامي، وأبو عمرو بن العلاء كان يقول في شعر تلك الطبقة: "لقد أحسن هذا المولَّد حتى هممت أن آمر صبياننا روايته."[2]

أما السبب الثالث الذي دعا العلماء إلى وضع تلك الضوابط هو اتِّساع الفتوح، وتعدد طبقات الرواة، وبُعد الأمصار. وشاع الكثير من الكذب على رسول الله ﷺ من قبل الزنادقة، وأهل الأهواء، والمغفَّلين، والمحترفين. والحافظة الواعية قد لا تتوفر للخضم الغامر من الناس، والتدوين قد يكون قاصراً عن بلوغ المراد، خصوصاً بالنسبة للإحاطة والشمول مما يخشى معه ضياع السُّنن، وحرمان الأمة من ميراث النبوّة الذي فيه بيان كتابها، ودليلها إلى موطن الخير والفلاح في دينها ودنياها.[3]

ولعل سائلاً يسأل: متى بدئ وَضْعُ ضوابط السماع ؟ وللإجابة على ذلك يَحْسُن بنا أن نعود إلى البداية، إلى عهد عمر بن عبدالعزيز، عندما أوشك القرن الأوَّل الهجريّ على الانتهاء، وقد توفرت هناك كل الدواعي لأن يكون هنالك تدوين للحديث يأخذ الشكل الرسمي، وتتولاه السلطة الرسمية التنفيذية. وكان لذلك عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه الذي كان وهو خليفة للمسلمين، والمسؤول

---

[1] صالح، محمد أديب: لمحات في أصول الحديث، المكتب الإسلامي، ط٣ /١٣٩٩هـ-بيروت، ص ٦٦. وسيشار إليه فيما بعد بـ(صالح: لمحات في أصول الحديث).

[2] الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج١ ص ٣٦٨ .

[3] صالح: لمحات في أصول الحديث، ص ٦٦ .

عن تدبير شؤون الأمة، وحرص صادق على حديث رسول الله ﷺ أن يتهدده الانحسار والضياع من كثرة الشوائب، وموت العلماء. كما كان -رحمه الله- على معرفة بأهل زمانه، وعلماء عصره، فكان في مقدوره أن يعطي القوس باريها وأن يأتمن على العمل من هو أهلٌ له، وجديرٌ بحمل العبء على أكمل وجه.

فقد كتب عمر بن عبدالعزيز إلى أبي بكر بن حزم (ت ١٢٠هـ-٧٣٨م)[١]: "أنظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإنّي خفت دُرُوس العلم، وذهاب العلماء، ولا يقبل إلاّ حديث رسول الله- وليفشوا العلم، وليجلسوا حتى يُعلَّم من لا يَعلَم، فإنّ العلم لا يَهلكُ حتى يكونَ سراً."[٢]

وجُمع حديث رسول الله على أيدي رجلين بذلا جهداً عظيماً، وهما البخاري (ت ٢٥٦هـ-٧٨٠م)، ومسلم (ت ٢٦١هـ-٨٧٥م). وكان هذا القرن أحفل القرون بجهابذة العلماء والمُحدّثين، وعظيم المصنفات في الحديث. ثم جاء دورٌ جديد حيث شرع العلماء في النقد والبحث والتمحيص، وكل ما يتعلّق بالرواية والرواة والمرويّات على أساس القواعد التي وضعوها لعلم أصول الحديث. فلم ينقضِ القرن الرابع الهجري حتى استوى تحرير الأحاديث على سوقه، وتميّزَ المقبولُ من المردود، وصحيحُ الحديث من غيره. فرأس سنة ثلاثمائة للهجرة هو الحد الفاصل بين المتقدّمين من رواة الحديث وحملته من بعده.[٣]

وقد أفاض المحدّثون في بيان شروط الراوي[٤]، ثم جاء أهل اللغة وبيدهم قواعد التحديث لا يُعدّلون الا الطفيف الطارئ، وهذه هي قواعد علماء الحديث التي اعتمدها علماءُ اللغة:

---

[١] أبو بكر بن حزم رجل تابعيّ، استعمله عمر على إمرة المدينة، وقضائها، ولهذا كتب إليه، وقد كان على علم جمٍّ بحديث رسول الله، وقد أوصاه عمر أن يكتب له ما عند خالته عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية (ت ٩٨هـ-٧١٧م) وما عند القاسم بن محمد بن أبي بكر (ت ١٢٠هـ-٧٣٨م).

[٢] أنظر العسقلاني: فتح الباري بشرح البخاري، بولاق ١٣٠١هـ، ج١ ص ١٧٤ .

[٣] أنظر صالح: لمحات في أصول الحديث، ص ٦٩، ٧٠ .

[٤] أنظر الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت(ت ٤٦٣هـ-١٠٧١م): الكفاية في علم الرواية، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧هـ، ص ٢٣، ٢٤، ٩٣، ٩٤. وسيشار إليه فيما بعد بـ(الخطيب البغدادي: الكفاية). وكذلك ابن الصلاح: في علوم الحديث، ص ٩٤ .

١) العدل.

والمراد بالعدل هو المرضيُّ قولـه وحكمـه، ورجلٌ عَدْلٌ: بيِّنُ العدلِ. والعدالـة وصـفٌ بـالمصدر ومعناه صاحبُ عدلٍ.[١] وفي اصطلاح المحدّثين[٢] العدل: مأخوذ من العدالة التـي هـي الاستقامة، وهي في اصطلاح القوم ملكة تحمل على ملازمة التديُّن، والمحافظة على التقوى، والمروءة، ممـا يبعث على الثقة بصدقه وأمانته.

وتعرف التقـوى باجتنـاب الكبـائر كالشـرك باللـه، وعقـوق الوالديـن، وشـهادة الـزور، وبعـدم الإصـرار علـى الصغـائر، وهـي الذنـوب والمخالفـات، وباجتنـاب المباحـات التـي يبتعـد عنهـا ذوو المروءَة من الرّجال، وأصحاب العقول السليمة كصحبة الأراذل من الناس، والتصرف في الطريـق بما يليق؛ لأنّ المروءَة -كما يراها بعضهم- آداب نفسانية تحمـل مراعاتهـا الإنسـانُ علـى الوقـوف عند محاسن الإخـلاص وجميـل العـادات، والبعـد عمـا لا يليـق، وبديهـي أنّ العدالـة اشـترطت فـي الراوي لتكون طريقاً إلى رجحان أمانته، وصدقه فيما يقول.[٣]

ولعل المراد "بالعدل" هنا عدل الرواية، وهو المسلم العاقل البالغ السـالم مـن الفسـق بارتكـاب كبيرة أو إصرار على صغيرة، فبعد أن يكون مسلماً لا بُدَّ أن يكون عاقلاً. واشترطوا البلوغ ضماناً للضبط والحرص على الأمانة عند الأداء. أمّا عند التحمُّل فلا يشـترط البلـوغ. وبديهـي أن يشـترط في الراوي أن يكون عاقلاً؛ لأن غير العاقل لم يعتبره الشارع أهلاً للتصرُّف في أم نفسـه، فـأحرى أنْ لا يُعَدَّ تصرُّفهُ بأمر الدين، ونقل حديـث رسـول اللـه، ولذلـك لا تقبـل روايـة الصبـيّ والمعتـوه، والمجنون.[٤]

ولقد أخرجوا بوصف العدالة أيضاً المجهولَ عيناً مـن الـرواة (رجـل) لأنَّـه لا يقـال عـدلٌ إلاّ لمعيَّن، ذلك أنّ وَصْفَنا له بالعدالة نوع من الحكم، والحكم علـى الشـيء -كمـا يقولـون- فـرع عـن

---

[١] ابن منظور : لسان العرب، مادة عَدَل، باب اللام فصل العين.

[٢] المحدّث هو من تمرّس بالحديث رواية ودراية. وأتقن الأسانيد والعلل، وكان على معرفة واسعة بالرواة، والروايات في عصره، ومشاركته صحيحة في جمع تلك الروايات، وحفظ جملة كبيرة من المتون، وسماع عدد وافر من الكتب الصحاح مع الفقه، ومعرفة الغريب حتى تميز بذلك، وعُرف بإتقانه، وضبطه.(لمحات في أصول الحديث، ص ١٠٣).

[٣] صالح: لمحات في أصول الحديث، ص ١١١ .

[٤] المرجع السابق، ص ١١١ .

تصوُّره. إلاَّ إذا وصفه الموثوقون؛ فإنَّه يقبل عند بعضهم كما في قول الشافعي -وهذا كثير عنده-: أخبرني الثقه، أو حدّثني من لا أتّهم، و يوجد مثل ذلك -ولكن على قلّة- عند مالك.[1]

ومما خرج باشتراط العدالة أيضاً المجهول حالاً؛ "كحدّثنا زيد" ولا يُعْرَف منه إلاَّ أنَّه ابن عمرو، ولم ينُصّ أحدٌ من أهل الحديث على تزكيته، وتوثيقه، أو تجريحه والقدح فيه.

٢) ومن الصفات التي اشترطت في راوي اللغة **الضبط**.[2]

والمقصود من الضبط قوّة الحافظة، والوعي الدقيق، وحُسن الإدراك في تصريف الأمور، والثبات على الحفظ، وصيانة ما كتب منذ التحمُّل والسَّماع إلى حين التبليغ والأداء. وبهذا الاعتبار من سلامة الضبط بدءاً من التحمُّل والأداء -كان الضبط على نوعين:

(أ) ضبط الصدر. (ب) ضبط الكتاب.

فضبط الصدر أنْ يحفظ الراوي ما سمعه حفظاً يُمكّنه من استحضاره متى شاء. وضبط الكتاب يعني أن يصون كتابه الذي كتب منذ سمع فيه، وصحّحه إلى أنْ يؤدى منه، ولا يدفعُه إلى مَنْ لا يصونه. ويمكن أنْ يُغيِّر فيه أو يُبدّل.[3]

ويُعْرف كمالُ ضبط الراوي بمقايسة روايته بمن جزم العلماء بكامل ضبطهم كـ(مالك والشافعي) فمتى وافقهم دائماً أو غالباً ولو في المعنى كان كامل الضبط.[4]

٣) **ألاَّ يكون ناقل اللغة مجهولاً.**

والمجهول هو الذي لم تعرفه العلماء، فلم يُسَمَّ، ومَن لم يُعْرف حديثه إلاَّ من جهة راوٍ واحدفقط، فهناك عددٌ من الأقوال في ذلك، ولكنَّ الذي عليه أكثر العلماء عدم قبول روايته؛ لأنَّهم أجمعوا على ردّ رواية غير العدل، والمجهول ليس عدلاً، ولا في معناه من حيث حصول الثقة به.

ويرى الخطيب البغدادي[5] أنَّ أقلَّ ما ترتفع به الحالة عن هذا المجهول أنْ يروي عنه اثنان فصاعداً من المشهورين بالعلم كذلك، وإن كان يرى -خلافاً لغيره- أنَّ حكم العدالة لا يثبت له بروايتهما عنه.

---

[1] صالح: لمحات في أصول الحديث، ص ١١٢ .

[2] المرجع السابق، ص ١١٢ .

[3] أنظر السيوطي: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تح. عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، ج٢ ص ٣٠٠-٣٠١ . وسيشار إليه فيما بعد بـ(السيوطي: تدريب الراوي).

[4] أنظر ابن الصلاح: في علوم الحديث، ص ٥٠ .

[5] الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية، ص ٨٨-٩٠ .

وأطلق الحافظ ابن حجر على الراوي الذي لم يُسَمَّ كأن يقال: (رجل، أمرأة) لفظ "المبهم" ونصّ على عدم قبول حديثه ما لم يُسَمّ؛ لأنّ شرط قبول الخبر هو عدالة راويه، ومن أبهم اسمه لا تعرف عينه فكيف تعرف عدالته.[1]

٤) ألاّ يكون مبتدعاً.

تعرضت مناهج الجرح والتعديل للمبتدع، وفرّقوا بين مَنْ تصل بدعته إلى الكفر بحيث يكون قد أنكر أمراً متواتراً من الشرع معلوماً من الدين أو اعتقد عكسه، ومن لا تصل بدعته إلى هذا الحد[2]. فالأول تردُ روايته بلا منازع. أمّا الثاني فقد ردَّ بعض العلماء روايته لأنه فاسق ببدعته، بينما اتجه آخرون إلى التفصيل. فإن كان يستحلُّ الكذب لنصرة بدعته، فهو غير مقبول الرواية ... وعلى كل حال فإنّ العلماء يريدون من كل ضوابطهم في هذا المجال الوصول إلى أنْ تتوفر الثقة بدين الراوي وصدقه فيما يُحدّث وضبطه وأمانته فيما ينقل دون تحيُّز أو جور، فإن توفر ذلك قبلت روايته.[3]

٥) ألا يكون فاسقاً.

انتبه العلماء إلى رواية الفاسق فقالوا بعدم قبول روايته، ولكن ماذا لو تاب من الفسق. قالوا: هل تقبل روايته بعد التوبة أم لا ؟ فالذي عليه جمهور العلماء قبول روايته بشرط ألاّ يكذب في حديث رسول الله. فاذا ثبت أنّه يكذب لا تقبل روايته، ولو تاب وحسنت توبته، وقالوا: تردُّ كل أحاديثه التي رواها قبل كذبه.[4]

---

[1] العسقلاني: شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، تح. محمد عوض ومحمد غياث الصباغ، مكتبة الغزالي- دمشق،ومؤسسة مناهل العرفان بيروت،ط٢(١٤١٠-١٩٩٠م).وسيشار اليه فيما بعد بـ(العسقلاني:شرح نخبة الفكر).

[2] الذهبي، محمد بن عثمان(ت ٧٤٨هـ-١٣٤٧م): ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ط الخانجي١٣٢٥هـ، ص٢٠٥.

[3] صالح: لمحات في أصول الحديث، ص ٣٣١-٣٣٢ .

[4] أنظر الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية، ص ١١٦-١١٨. والفاسق: كل من عصى وجاوز حدود الشرع. (المعجم الوسيط، باب فسق).

٦) **ألا يكون كاذباً.** قال ابن الأنباري: نقْل أهل الأهواء مقبول في اللغة وغيرها، ألا أنْ يكونوا ممن يتدينون بالكذب كالخطّابيّة[١] من الرافضة[٢].

٧) ومن الضوابط التي وضعها العلماءُ **امتحان ناقل اللغة.**

رُوي عن عيسى بن عمر أنّه قال: "أملى عليَّ ذو الرمّة شعراً، فبينما أنا أكتبه إذ قال لي: أصلح حرف كذا، وكذا. فقلت له: إنّك لا تخطّ. قال: أجل، قدم علينا عراقيٌّ فعلّم صبياننا، فكنت أخرج معه في الليلة المقمرة فكان يخطّ لي في الرمل فتعلمته."[٣]

ويروى أنّ أبا عمرو سأل أبا خيرة عن قولهم: "استأصل الله عرقاتهم". فنصب أبو خيرة التاء من "عرقاتهم". فقال له أبو عمرو: هيهات يا أبا خيره، لأن جلدك وذلك أنّ أبا عمرو استضعف النصب؛ لأنه كان قد سمعها منه بالجر. وكان أبو عمرو بعد ذلك يرويها بالنصب والجر.[٤]

كما نقل السيوطي عن ابن سلاّم قال: "وقال محمد بن سلاّم الجمحي: قلت ليونس بن حبيب أنّ عيسى بن عمر قال: صحّف أبو عمرو بن العلاء في الحديث: "**اتقوا على أولادكم فحمة العشاء.**" فقال بالفاء، وإنّما هي بالقاف. فقال يونس: عيسى الذي صحّف وليس أبا عمرو، وهي بالفاء كما قال أبو عمرو ولا بالقاف كما قال عيسى."[٥]

ومن الأمثلة على امتحان ناقل اللغة ما رواه الأصمعي قال: "سمعت أبا عمرو يقول: ارتبت بفصاحة أعرابي، فأردت امتحانه، فقلت بيتاً من الشعر وألقيته عليه وهو:

كم رأينا من (مُسْحب) مُسْلَحِبٍّ صار لحمَ النسور والعقبان.

فأفكر فيه، ثم قال: رُد عليَّ ذكرَ المسحوب، حتى قالها مرات، فعلمت أنّ فصاحته باقية."[٦]

٨) ومن الضوابط التي وضعها الحريصون على اللغة: **الثقة.**

---

[١] قوم من الرافضة نسبوا إلى أبي الخطاب بن محمد بن أبي زينب الأسدي: زعم أنّ أئمة الشيعة أنبياء ثم غلا فزعمهم آلهة، فلما وقف الإمام جعفر الصادق على غلوّه في حقّه تبرأ منه ولعنه وأمر أصحابه بالبراءة منه. (الملل والنحل للشهرستاني، ص ٣٨٠).

[٢] الأنباري: لمع الأدلة، ص ٨٦-٨٧، الفصل السابع في قبول نقل أهل الأهواء.

[٣] السيوطي: المزهر، ج٣ ص ٣٤٩ .

[٤] الأنباري: نزهة الألباء، ص ٢٦ .

[٥] السيوطي: المزهر، ج١ ص ٣٦٠ .

[٦] خميس، عبدالله: لغة البادية، مقال في مجلة اللسان العربي، المجلد الثامن العدد(١+٢)/١٩٧١، ص ١٧٠.

والثقة هو الذي يجتمع فيه ركنان مهمّان وهما: العدل، والضبط. فإذا اجتمع هذان الركنان صار الناقل اللغوي حجةً يلزم العمل بحديثه؛ وذلك لأنّه قد تحقق فيه الاتّصاف بالصدق، وتحلّى بقوة الحفظ التي تمكّنه من استحضار الحديث وتسعفه لأدائه كما سمعه، فحقّق أنّه أدّى الحديث كما سمعه فصار حجةً. وإذا اختل فيه شيءٌ من خصال الثقة كان مردود الحديث بحسب الاختلال الذي لحقه.[1]

وقد جاء في (الكتاب) لسيبويه: "وحدّثنا من لا نتهم من العرب"[2] ، "وهذه حجج سمعت من العرب، وممن يوثق به من يزعم أنّه سمعها من العرب"[3] . "وسمعنا أيضاً من العرب الموثوق بهم."[4] .

كما نجد في ترجمة أحد اللغويين: "وكان ثقة فيما يرويه، ثبتاً فيما يؤخذ عنه"[5] كما أسوق بعض الألفاظ التي نجدها مبثوثة هنا وهناك في المصنفات المتنوعة: "كان ثقة، ثبتاً،صاحب عربية"[6] و "كان ثقة، مأموناً"[7] و "كان ثقة، راوية، عالماً بالنحو"[8] .

٩) العقل.

وقد وُجدت كثيرٌ من المواقف ينصح أهل البادية العلماء بعدم النقل عن أهل الأهواء والمجانين. وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

قال ابن دريد في أماليه: "أخبرنا عبدالرحمن عن عمه الأصمعي قال: سمعت صبيّةً بحمى ضرّية يتزاجرون، فوقفت، وصدُّوني عن حاجتي، وأقبلت أكتب ما أسمع، إذ أقبل شيخ فقال: أتكتب كلام هؤلاء الأقزام الأدناع."[9]

١٠) كما رفض العلماء سماع الرواة الذين يتصفون بالصفات التالية:-

---

[1] أنظر عتر ، نورالدين: منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر-دمشق، ط٣/ ١٩٨١م، ص ٨٠-٨١ .

[2] سيبويه: الكتاب، ج١ ص ١٤٥، ٢٧٩ .

[3] المصدر السابق، ج١ ص ١٢٤ .

[4] المصدر السابق، ج١ ص٢٣٨ .

[5] القفطي: إنباه الرواه، ج٣ ص ٧٠ .

[6] المرزباني: نور القبس، ص ٩٩ .

[7] الأنباري: نزهة الألباء، ص ٣٨ .

[8] ابن النديم: الفهرست، مطبعة خياط-بيروت ١٩٦٤، ص ٦٧ .

[9] السيوطي: (المزهر ، ج١ ص ١٤٠)، والأدناع مفردها دنع، ودنع الصبي إذا جهد وجاع واشتهى وطمع.

(أ) لا تقبل اللغة من الناقل الذي عُرِف بكثرة السهو في رواياته، إذا لم يُحَدِّث من أصل مكتوب صحيح؛ لأن كثرة السهو تدل على سوء الحفظ أو التغفيل، فلا يكون الراوي ضابطا.[١٠]

(ب) لا يقبل حديث من عُرف بقبول التلقين في الحديث، ومعنى التلقين أن يعرض عليه الحديث الذي ليس من مروياته. ويقال له: إنّه من روايتك، فيقبله ولا يميزه؛ وذلك لأنه مغفل فاقد لشرط التيقظ فلا يقبل حديثه.[١]

(جـ) لا تقبل رواية الناقل الذي يتساهل في نسخته التي يروي منها، إن كان يروي الحديث من كتاب كمن يُحَدِّث من أصل غير صحيح، أي من كتابٍ أو مكتوب غير مقابل على الأصول المسموعة المتلقاه عن المصنفين بالسند الصحيح.[٢]

(د) كما رُدَّت رواية من ثبت أنّه أخذ على نقله أجراً. معتمدين على القول القائل: "علّم مجاناً كما علِّمت مجاناً"[٣] ثم جاء بعض الرواة وخالفوا هذا العرف، وصاروا يتقاضون من طلابهم أجراً لإسماعهم الحديث. وقد أثار هذا التصرف استياء علماء الحديث ونقاده، واستنكروه وحذروا من السّماع من هؤلاء المتاجرين بالسماع؛ لما في صنيعهم هذا من خرْم المروءَة، ولما يخشى أن يجر أحدهم الحرص على الأجرة إلى الوقوع في شبهة الكذب، أو صريح الكذب لكي يرغب فيه.

لكنّ بعض حفاظ الحديث الثقات ألجأتهم ظروف معيشتهم الضيقة لأخذ الأُجرة حيث كانوا محط رحال الطلاب، حتى لقد منعهم اشتغالهم بالعلم ونشره عن الكسب لعيالهم فغتفر لهم النقاد ذلك لما عُلم من صدقهم، وأمانتهم، مثل أبي نعيم الفضل بن دكين حيث قال: "يلومني على الأجر وفي بيتي ثلاثة عشر، وما في بيتي رغيف."[٤]

بعد هذا العرض للشروط التي وضعها علماء اللغة لناقلها نستطيع أن نقول ما يلي:-

أولاً:- إنّ العلماء الذين وضعوا هذه الشروط كانوا حريصين أشدّ الحرص علىّ هذه اللغة، فهم يريدون لغة نقية صافية لا مجال فيها لقدح قادح أو غمز غامز .. ولهذا جاءت اللغة كما أرادها اللغويون قوية في تعابيرها، وألفاظها، وتراكيبها.

---

[١٠] أنظر السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ-١٤٩٧م): فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقي، طباعة الهند، ج٢ ص ١٤٩-١٥٣ .

[١] أنظر السيوطي: تدريب الراوي، ج١ ص٣٣٩ وما بعدها.

[٢] ابن الصلاح: علوم الحديث، ص ١٠٥-١٠٦ .

[٣] الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الروايه، ص ١٥٣-١٥٤ .

[٤] العسقلاني: تهذيب التهذيب، ج٨ ص ٢٧٥ .

ثانياً:- عندما وضع علماء اللغة ضوابطهم وشروطهم، كانوا في هذا العمل متأثرين بعلماء الحديث، فالفضل الأول لعلماء الحديث الذين كانوا حريصين جداً على أن يكون الحديث الذي يسمعونه وينقلونه حديثاً صحيحاً؛ ولهذا أراد اللغويون أن تكون المادة المسموعة التي سجّلها نقله اللغة لا اضطراب فيها..

ثالثاً:- إنّ العمل الذي قام به اللغويون عمل فريد من نوعه في التاريخ، فلا اعتقد أنّ لغة من اللغات وجدت مثل هذه العناية وهذا الاهتمام من أبنائها. ولعل السبب في ذلك -كما أرى- هو نظرة هؤلاء العلماء إلى أنّ اللغة ليست أيّ شيء، فاللغة عندهم هي هوية الأمة ورمز كيانها وما دام الأمر كذلك فيجب أن يهتم بها.

ثالثاً: ضوابط المسموع.

لم يكتف اللغويون بالشروط التي وضعوها لناقل اللغة أو سامعها، بل سارعوا إلى وضع ضوابط أخرى للمادة اللغوية المسموعة، كل ذلك من أجل أن تكون اللغة في غاية النقاء والسلامة والضبط. ومن هذه الشروط التواتر، والآحاد، والمسند، والمنقطع، والمعضل، والمعنعن، والمؤنن، والغريب، والمعلّل، والشاذ، والمنكر، والموضوع .. وحتى نفهم هذه الشروط لا بُدَّ من الرجوع إلى ما اصطلح عليه أهل الحديث.

أ) المتواتر: وقد سمّاه ابن الصلاح(ت ٦٤٢هـ-١٢٤٤م) في (مقدمته) المُسْنَد[١] وتابعه ابن كثير(ت ٧٧٤هـ-١٣٧٢م) في هذه التسمية[٢] فيما سماه السيوطي(ت ٩١١هـ-١٥٠٥م) المتواتر[٣] وهو يعني: ما نقله مَنْ يَحْصُل العلم بصدقهم ضرورة عن مثلهم من أوّله إلى آخره[٤] وقال عنه ابن الصلاح: هو الذي اتصل إسناده من راويه إلى منتهاه، وأكثر ما يستعمل ذلك فيما جاء عن رسول الله ﷺ دون ما جاء عن الصحابه وغيرهم.[٥]

ومن الأمثلة على الحديث المتواتر قول رسول الله: "**من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار.**"[٦] وهذا مثال آخر على المتواتر أسوقه لتتضح الصورة: "أخبرني الشيخ المسند أبو الحسن المؤيد محمد بن علي المقرئ -رحمه الله- بقراءتي عليه بنيسابور عوداً على بدء من ذلك مرة على رأس قبر مسلم بن الحجاج، قال: أخبرنا فقيه الحرم أبو عبدالله محمد بن الفضل الفراوي عند قبر مسلم أيضاً (ح)، وأخبرتني أم المؤيد زينب بنت أبي القاسم عبدالرحمن بن الحسن الشعري بقراءتي عليها بنيسابور مرة وبقراءة غيري مرة أخرى -رحمها الله- قلت أخبرك اسماعيل بن أبي القاسم بن أبي بكر القارئ قراءة عليه، قال: أخبرنا أبو حفص عمر بن أحمد بن مسرور، قال: أخبرنا أبو عمرو اسماعيل بن يُخيد السُلمي، قال: أخبرنا أبو مسلم ابراهيم بن عبدالله الكجي، قال:حدّثنا محمد بن عبدالله الأنصاري، قال: حدثني حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: قال

---

[١] ابن صلاح: في علوم الحديث، ص ٢١ .

[٢] ابن كثير، عمادالدين اسماعيل بن الشيخ (ت ٧٧٤هـ-١٣٧٣م): الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، ط٤-١٩٩٤، دار الكتب العلمية-بيروت، ص ٤٢، وسيشار الى ذلك فيما بعد بـ(ابن كثير: الباعث الحثيث).

[٣] السيوطي: تدريب الراوي، ج٢ ص ١٧٦ .

[٤] المصدر السابق، ج٢ ص ١٧٦ .

[٥] ابن الصلاح: في علوم الحديث، ص ٢١ .

[٦] السيوطي: تدريب الراوي، ص ١٧٧ .

رسول الله ﷺ :- **"أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قلت: يا رسول الله، أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً ؟ قال: تمنعه من الظلم، فذلك نصرك إيَّاه".**[1]

نلحظ من الحديثين السابقين أنَّهما على درجة عالية في السَّماع، فهما متواتران .. والتواتر نلحظه في السند؛ إذ يروي جمعٌ عن جمع حتى يصل السند إلى رسول الله ﷺ . وقد أشار ابن الصلاح إلى أنَّ المتواتر قليل الوجود، نادر المثال، غير أنَّ ابن حجر العسقلاني ذهب إلى أنَّ المتواتر موجود بكثرة، ولم يرتضِ كلام ابن الصلاح، وعدّه ناشئاً عن قلَّة الاطلاع على كثرة الطرق، وأحوال الرجال، وصفاتهم المقتضية لإبعاد العادة أن يتواطؤوا على كذب.[2]

ومن المعلوم أنَّ الجمع المطلوب للتواتر كان ينحصر طلبه في العصور الثلاثة الأولى، وهي عصور الصحابة والتابعين، وتابع التابعين. أما في العصور الآتية فلم يَعُد يطلب هذا الجمع؛ لأن الحديث بعد التدوين أصبح من السهل تواتره، وانتشاره؛ لتوفر الدواعي لذلك. فالمتواتر الذي يرويه البخاري أو مسلم -مثلا- قد يجزئ في الحكم عليه بالتواتر توفر ذلك العدد الذي يحصل معه اليقين. أما بعد التدوين فالألوف المؤلفة تروي عن الإمامين البخاري ومسلم -رحمهما الله- ما أثبته كلٌّ في صحيحه، من عصر التدوين فيما بعد.[3]

وقد تأثر علماء اللغة بهذه الضوابط، فذهبوا إلى أنَّ شرط التواتر أن يبلغ عدد النقلة إلى حدٍّ لا يجوز فيه على مثلهم الاتفاق على الكذب، كنقلة القرآن، وما تواتر من السُّنة، وكلام العرب؛ فإنَّهم انتهوا إلى حدّ يستحيل على مثلهم الاتفاق على الكذب.

وذهب آخرون إلى أنَّ شرطه أنْ يبلغوا سبعين، وذهب آخرون إلى أنَّ شرطه أنْ يبلغوا أربعين، وذهب آخرون إلى أنَّ شرطه أن يبلغوا اثني عشر وآخرون قالوا خمسة.[4]

وقد عدّ الأنباري (ت ٥٧٧هـ-١١٨١م) الرأي الأول هو الرأي الصحيح دون إبداء الأسباب وإنَّني أرى أنَّ أيَّ جمعٍ قد أُمن تواطؤهم على الكذب يؤخذ منهم الحديث ويحتج به ولا يهمُّ الكثرة أو القلَّة، المهم هو عدم اجتماعهم على الكذب.

---

[1] ابن الصلاح: في علوم الحديث، ص ٢٠١ .

[2] صالح: لمحات في أصول الحديث، ص ٨٨ .

[3] المرجع السابق، ص٨٨.

[4] الأنباري: لمع الأدلة، ص ٨٤،٨٥ .

ب) الآحاد: وهو الحديث الذي "لم تبلغ نقلته في الكثرة مبلغ الخبر المتواتر سواءٌ كان المخبِر واحداً أو اثنين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة إلى غير ذلك من الأعداد التي لا يشعر بأنّ المخبَر دخل في حيِّز التواتر."[1]

ولما كان الخبر المتواتر مؤدياً بطبيعته إلى "العلم الضروري وهو الذي يضطر الإنسان إليه بحيث لا يمكن دفعه."[2] فقد أصبح المتواتر خارجاً عن مباحث علم الإسناد الذي يُبْحث فيه عن صحة الحديث أو ضعفه "من حيث صفات الرجال وصيغ الأداء. والمتواتر لا يبحث عن رجاله بل يجب العمل به من غير بحث."[3]

إذن فقد اختص علم الإسناد بخبر الآحاد. ومن هنا كان تقسيم هذا الخبر إلى الاقسام الآتية:-

١- الحديث المُسْنَد: هو الحديث الذي اتصل سَنَده من رواته إلى منتهاه. أي أنّ الناقل قد صرّح باسمه فامكن الوقوف على حقيقة حاله. أما ما انقطع سنده فهو المرسل. وقال ابن كثير (٧٧٤هـ-١٣٧٢م) في بيان مفهوم (المسند) هو ما اتصل إسناده إلى رسول الله -ﷺ-[4]

والحديث المُسْنَد فيه ثلاثة أقوال[5] : **الأوّل** ما اتّصل إسناده إلى رسول الله -ﷺ- **والثاني:** ما اتصل إسناده إلى منتهاه، **والثالث:** هو المرويّ عن رسول الله -ﷺ- سواءٌ كان متصلاً أو منقطعاً.

٢- المنقطع: والمنقطع لغة[6] : اسم فاعل من "انقطع" مطاوع "القطع"، تقول: قطعت الشيء أي أقطعه قطعاً فانقطع انقطاعاً فهو منقطع. أمّا في الاصطلاح فقد كانت للعلماء مذاهب في تحديده:

المذهب الأول: فقد ذهب الفقهاء والخطيب البغدادي وابن عبد البر، وغيرهم إلى أنّ المنقطع ما لم يتّصل إسناده على أيّ وجه كان انقطاعه.[7]

---

[1] الصالح: علوم الحديث، ص ٢٦٣ .

[2] طاهر الجزائري، طاهر بن صالح بن احمد الجزائري الدمشقي: توجيه النظر إلى أصول الأثر، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة، ص ٢٣. وسيشار اليه فيما بعد بـ(طاهر الجزائري: توجيه النظر إلى أصول الأثر).

[3] العسقلاني: شرح نخبة الفكر، ص ١١ .

[4] ابن كثير: الباعث الحثيث، ص٤٢.

[5] ابن الصلاح: في علوم الحديث ٢١.

[6] صالح: لمحات في أصول الحديث، ص٢٣٤.

[7] أنظر السيوطي: تدريب الراوي ج١، ص٢٠٧،٢٠٨.

المذهب الثاني: وهو المذهب المشهور وهو الذي جزم به الحافظ العراقي وشيخ الإسلام ابن حجر أنّه "الحديث الذي سقط من إسناده راوٍ قبل الصحابي أو ذكر فيه رجل مُبهم"[1] واشترط أن يكون الساقط واحداً فقط، أو اثنين على التوالي.

المذهب الثالث: وهو ما روي عن تابعي فمَن دونه قولاً له أو فعلاً[2] ، ومن الأمثلة على الحديث المنقطع حديث أبي داود قال: حدّثنا شجاع بن مخلد، أخبرنا يونس بن عبيد عن الحسن أنّ عمر بن الخطّاب **جمع الناس على أُبَيّ بن كعب، فكان يصلي بهم عشرين ليلة، ولا يقنت بهم إلاّ في النصف الباقي.** فهذا إسناد منقطع؛ لأنّ الحسن البصري ولد سنة (٢١هـ-٦٤٢م) ومات عمر بن الخطاب في أواخر سنة (٢٣هـ-٦٤٤م) فكيف يمكن للحسن أن يسمع عمر؟!.[3]

٣- المُعْضَل: وهو ما سقط من إسناده إثنان فصاعداً. ومنه ما يرسله تابع التابعي.[4] وقد وضّح ابن الصلاح في مقدمته فقال: "ومنه قول المصنفين من الفقهاء. قال رسول الله -ﷺ- وقد سمّاه الخطيب في بعض مصنّفاته (مرسلا) وذلك على مذهب من يُسمى كل ما لا يتصل إسناده (مرسلاً)[5]

وقال ابن الصلاح: وقد روى الأعمش عن الشعبي قال: "**ويقال للرجل يوم القيامة:عملت كذا وكذا؟ فيقول: لا، فيختم على فيه.**" الحديث، قال: فقد أعضله الأعمش؛ لأنّ الشعبي يرويه عن أنس عن النبي -ﷺ- قال: فقد أسقط منه الأعمش أنساً والنبي -ﷺ- فناسب أن يُسمّى معضلاً[6]

٤- المعنعن: والحديث المعنعن هو الذي يقول فيه الراوي: عن فلان عن فلان من غير بيان للتحديث أو الإخبار أو السّماع. والذي عليه العمل وذهب إليه جمهور الائمة من أهل الحديث والفقه والأصول وغيرهم أنّ للمعنعن حكم الحديث المتصل إذا توفّر للراوي شرطان هما: السلامة من التدليس، وثبوت اللقاء بين الراوي والمرويّ عنه بالعنعنة.[7]

٥- المؤنن: وهو الذي يقال في إسناده: حدّثنا فلان أنّ فلاناً قال كذا كقول مالك: حدّثنا الزهري أنّ ابن المسيّب حدّثه بكذا... وقد روي عن الإمام مالك أنّه كان يروي "عن فلان" و"أن

---

[1] المصدر السابق ج١، ص٢٠٨.

[2] المصدر السابق ج١، ص٢٠٨.

[3] عتر: منهج النقد في علوم الحديث، ص٣٦٨.

[4] ابن كثير: الباعث الحثيث، ص٤٨.

[5] ابن الصلاح: في علوم الحديث، ص٢٨.

[6] المصدر السابق، ص٢٨.

[7] الصالح: علوم الحديث، ص٦٨،٦٩.

فلاناً" سواء. وذهب أحمد بن حنبل وغيره إلى أنّ الحديث المؤنّن محمول علىالانقطاع حتى يتبين السماع في ذلك الخبر بصيغته من جهة أخرى.[1]

والصحيح الأوّل الأول[2]، فقد حكى ابن عبد البر عن جمهور أهل العلم التسوية بين "عن" و"أنّ" وأنّ الاعتبار بعْدَ السلامة من التدليس باللقاء والمجالسة والسماع والمشاهدة، لا بالحروف والألفاظ، فإذا كان سماع بعض الرواة عن بعض صحيحاً كان حديث بعضهم عن بعض بأيّ ورد، محمولاً على السماع حتى يتبين فيه الانقطاع، وأمر الحروف والألفاظ يخضع للعرف والعادة عند المحدّثين.

ولذلك قال ابن عبد البر ردّاً على عدم التسوية: وعندي لا معنى لهذا، لإجماعهم على أنّ الإسناد المتصل بالصحابي سواء فيه "قال رسول الله -ﷺ- أو "أنّ رسول الله -ﷺ- قال" أو عن رسول الله -ﷺ- قال" أو "سمعت رسول الله -ﷺ- يقول"[3]

٦- الغريب: وهو ما انفرد أحد الرواة بروايته، وينقسم باعتبار حالة راويه إلى غريب صحيح، وضعيف وحسن، وتسمى الكلمات التي ينفرد بها الراوية بالإفراد والأحاد.[4]

٧- المعلّل وهو ما كان ظاهره السلامة لجمعه شروط الصحة، لكن فيه علة خفيّة غامضة تظهر لأهل النقد عند التخريج[5]

٨- الشاذ: وهو أن يروي الثقة حديثاً يخالف ما روى الناس. وليس من ذلك أن يروي ما لم يرو غيره.[6] والذي عليه حفّاظ الحديث أنّ الشاذ ما ليس له إلاّ إسناد واحد، يشذّ به ثقة أو غير ثقة، فيتوقف فيما شذّ به الثقة ولا يحتج به، ويرد ما شذّ به غير الثقة. وقال الحاكم النيسابوري: الشاذ هو الذي ينفرد به الثقة، وليس له متابع.[7]

---

[1] المصدر السابق، ص٦٨،٦٩.

[2] صالح: لمحات في أصول الحديث، ص٢٨٦.

[3] الصالح: علوم الحديث، ص٦٩.

[4] الرافعي: تاريخ آداب العرب ج١، ص٣٢٧.

[5] المرجع السابق، ص٣٢٧.

[6] ابن كثير : الباعث الحثيث، ص٥٣.

[7] المصدر السابق ٥٤ وأنظر ابن الصلاح: في علوم الحديث، ص٣٦.

٩- المنكر: وهو كالشاذ، إنْ خالف راويه الثقات فمنكر مردود، وكذا إنْ لم يكن عدلاً ضابطاً، وإنْ لم يخالف، فمنكر مردود. وأمّا إنْ كان الذي تفرّد به عدل ضابط حافظ قُبل شرعاً، ولا يقال له "منكر" وإنْ قيل له ذلك لغةً.[١]

١٠- الموضوع: هو الحديث المختلق المصنوع والمنسوب افتراء إلى رسول الله ﷺ- فهو حديث منحط الرتبة؛ لأنّه مفترى مكذوب، فلا ينجبر أصلاً، وقد سُمّي "حديثاً" تجاوزاً حسب دعوى من اختلقه، ولتُعْرَفَ طرقُه التي يتوصل بها إلى معرفته، والحكم بأنّه مردود.[٢]

وفي الحديث الموضوع أكثر ما يكون الكلام المخترع من عند الراوي نفسه. وقد يتجاوز الكذاب ذلك. حيث يضع سنداً ينتهي به إلى شيءٍ من الإسرائيليات، أو عبارة رصينة ذات مغزى من الحِكَم والأمثال، ويُنسب ذلك إلى رسول الله، وذلك مثل: **المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء**[٣]

---

[١] ابن كثير: الباعث الحثيث، ص٥٥.

[٢] صالح: لمحات في أصول الحديث، ص٣٠٥

[٣] المرجع السابق، ص٣٠٥.

رابعاً: علاقة طرائق السّماع، وضوابط السامع والمسموع برواية الحديث.

١) طرائق السماع وعلاقتها برواية الحديث.

كانت طريقة الأخْذ والتحمّل عند الرعيل الأوّل من رجال الحديث هي السّماع، وقَدْ عُدّ تبليغ الحديث جزءاً أساسياً من تبليغ الرسالة الخالدة إلى الناس كافة، فلا بدّ من تحمّل الحديث أوّلاً ومن أدائه إلى الناس ثانياً تطبيقاً لقوله -ﷺ- **"نضّر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها، ووعاها وأدّاها، فَرُبّ حامل فقه غير فقيه، وربّ حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه."**[١] ثم راحت تظهر على مرّ الزمن طرائق أخرى أضحى (السّماع) إحدى طرائق ثمان وصفها أولئك الرجال تنظيماً لقواعد التحديث وضبطاً للحال العلمي الذي عليه راوي الحديث.

وطرائق السّماع التي ذكرها المحدثون هي:

١) السماع من لفظ الشيخ.
٢) القراءة على الشيخ.
٣) الإجازة.
٤) المناولة.
٥) المكاتبة.
٦) الإعلام.
٧) الوصيّة.
٨) الوجادة.

وهذه الطرائق لم تنتقل إلى أهل اللغة بحذافيرها، فقد أخذوا منها -كعهدهم- ما هم بالحاجة الماسّة إليه مما لا غنى للرواية عنه[٢] فكانت طرائق الأخذ في اللغة ستاً كما سجّلها السيوطي[٣] وفي ظنّي أنّ اثنتين منها تعودان إلى طريقة واحدة هي (القراءة على الشيخ) كما سيأتي فتكون الطرائق بذلك خمساً وهي:

١- السماع من لفظ الشيخ أو العربي.
٢- القراءة على الشيخ.
٣- الإجازة.
٤- المكاتبة.
٥- الوجادة.

---

[١] الشافعي، محمد بن ادريس، (ت ٢٠٤هـ-٨١٩م): الرسالة، تح.أحمد محمد شاكر، (ط١) مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٣٥٨هـ-١٩٤٠م. ص٤٠١ وسيشار إليه لاحقاً بـ (الشافعي: الرسالة) وأنظر أيضاً: سنن أبي داود ج٣، ص٣٢٢.

[٢] من الأمور التي اقتبسها رجال اللغة مما يدخل في تفصيلات الأداء تقديم المتن -أو بعضه- على السند، فكما جوّز ذلك رجال الحديث جوّزه رجال اللغة. المزهر ج١، ص١٦٠.

[٣] أنظر السيوطي: المزهر ج١، ص١٤٤-١٧٠.

وإليك التفصيل:-

١- السَماع من لفظ الشيخ أو العربي:

حدّد ابن فارس ثلاثة أنواع من السَماع، قال: تؤخذ اللغة اعتياداً كالصبي العربي يسمع أبويه، وغيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على مَرّ الأوقات، وتؤخذ تلقناً من مُلَقِّن، وتؤخذ سماعاً من الرواة الثقات[١] "والأخذ من الروات الثقات" هو ما قصد إليه المحدّثون في قولهم: "سماع من لفظ الشيخ... وهذا القسم أرفع الأقسام عند الجماهير[٢] .

ويرى أهل اللغة أنّ أعلى المنازل قول الراوي عند الأداء: "أملى عليّ فلان، أو أمَلّ عليّ فلان"[٣] ويلي ذلك في الدرجة الثانية لفظ "سمعت"، بَيْد أنّ أكثر رجال الحديث يرون هنا "تقديم لفظ (سمعت) على الألفاظ الباقية[٤]، وذلك -وإن كان من الأمور النادرة التي يخالف فيها أهل اللغة أهل الحديث- أمر هيّن يسير، فإنّ الإملاء والسَماع يوشك أحدهما أن يكون الآخر، بل إنّ المحدّثين أنفسهم هم الذين قسّموا السَّماع إلى قسمين: "إملاء، وتحديث من غير إملاء".[٥]

ثم تأتي بقية الصيغ التي يستعملها أهل اللغة وهي كما يلي:-

١- "سمعت" [٦]

٢- "حدّثني فلان"، "وحدثنا فلان"، ويُستَحسن: "حدّثني" إذا حدّث، وهو وحده "وحّدثنا" إذا حدّث وهو مع غيره."[٧]

٣- "أخبرني فلان، وأخبرنا فلان، ويستحسن الإفراد حالة الإفراد، والجمع حالة الجمع"[٨]

٤- "قال لي فلان"[٩]

٥- "قال فلان، بدون لي"[١٠]

---

[١] ابن فارس: الصاحبي، ص٦٢.

[٢] ابن الصلاح: في علوم الحديث، ص١١٨.

[٣] السيوطي: المزهر ج١، ص١٤٥.

[٤] الصالح: علوم الحديث، ص٩٠.

[٥] ابن الصلاح: في علوم الحديث، ص١١٨.

[٦] السيوطي: المزهر ج١، ١٤٦.

[٧] المصدر السابق ج١، ص١٤٧.

[٨] المصدر السابق ج١، ص١٥٠.

[٩] المصدر السابق ج١، ص١٥٠-١٥١.

[١٠] المصدر السابق ج١، ص١٥١.

٦- "عن فلان"[١] ومثلها: "أنّ فلاناً قال"[٢]

٧- "أنشدنا، وأنشدني"[٣] وذلك في الشعر خاصة، وقد يستعمل أحياناً: "حدّثنا وسمعت، ونحوهما"[٤]

فإذا عُدنا إلى صيغ الأداء عند راوية الحديث وجدناها على النحو الذي يُصوّره إمام المحدّثين[٥] بقوله: "إنما هي أربعة. إذا قلت (حدثني) فهو ما سمعته من العالم وحدي، وإذا قلت (حدثنا) فهو ما سمعته مع الجماعة، وإذا قلت (أخبرني) فهو ما قرأت على المحدّث، وإذا قلت (أخبرنا) فهو ما قرىء على المحدّث وأنا أسمع"[٦]

وقد استعمل المحدّثون "نبّأنا، وأنبأنا" في الدرجة التي تلي لفظي التحديث والإخبار لكنّ هذا الاستعمال يبدو قليلاً.[٧] وآخر ما يجوز في السماع من تلك الألفاظ عند المحدّثين أنْ يقول الراوي "قال لنا فلان" أو "قال لي" أو "ذكر لي" بيد أنّ أضعف هذه العبارات جميعاً أنْ يقول الراوي (قال) أو (ذكر) من غير (لي) لأنّها توهِم التدليس.[٨]

٢- القراءة على الشيخ.

تنقسم (القراءة على الشيخ) عند المحدّثين إلى قسمين:

أ) أنْ يقرأ التلميذ محفوظه أو مكتوبه على أستاذه الشيخ الذي يستمع إليه، ويُسمّي أكثر المحدّثين هذه الطريقة عرْضاً؛ لأنّ القارىء يعرض على الشيخ ما يقرأه كما يُعْرض القرآن على المقرىء، وعبارة الأداء على وفق هذه الطريقة هي: "قرأت على فلان"[٩]

ب) أنْ يسمع التلميذ غيره يقرأ على الشيخ على أنْ يكون "الشيخ حافظاً لهذا المقروء عليه، أو متمكناً من مقابلته على أصله الصحيح إنْ لزم الرجوع إلى هذا الأصل بأيدي تلامذته الآخرين الثقات الضابطين، أو واحدٍ منهم على الأقل"[١٠] وعبارة الأداء وفق هذه الطريقة هي: "قرىء على فلان، وأنا أسمع، فأقرّ به"[١١]

---

[١] السيوطي: المزهر، ج١، ص١٥٣.

[٢] المصدر السابق ج١، ص١٥٤.

[٣] المصدر السابق ج١، ص١٥٥.

[٤] المصدر السابق ج١، ص١٥٧.

[٥] إمام المحدّثين هو عبد الله بن وهب(ت١٩٧هـ-٨١٣م)وهو صاحب الإمام مالك بن أنس(ت ١٧٩هـ-٧٩٥م).

[٦] الخطيب البغدادي: الكفاية، ص٢٩٤.

[٧] الصالح: علوم الحديث، ص٩١.

[٨] المرجع السابق، ص٩١.

[٩] ابن الصلاح: في علوم الحديث، ص١٢٢.

[١٠] الصالح: علوم الحديث، ص٩٣.

[١١] ابن الصلاح: في علوم الحديث، ص١٢٣.

وقد ذهب بعض المحدّثين إلى مساواة القراءة بالسّماع، إلاّ أنّ الرأي المختار عند المحدّثين أنّ القراءة على الشيخ تلي السّماع درجة(١).

أمّا اللغويون فلم يزيدوا على أنْ عدُّوا كل فرع من فرعيها قسماً قائماً بذاته وسمّوا الأوّل (القراءة على الشيخ)(٢) والثاني (السّماع على الشيخ).(٣)

وكما هو الشأن في الحديث، فإنّ على راوي اللغة أنْ يقول عند أداء اللغة: "قرأت على فلان"(٤) في حال القراءة على الشيخ، ومثاله: "قال القالي في أماليه: قرأت على أبي بكر محمد بن أبي الأزهر"(٥) وعلى الراوي أن يقول: "قرىء على فلان وأنا أسمع"(٦) في حال السماع على الشيخ بقراءة غيره. ومثاله: "وقال: "أنشدني أبو بكر بن الأنباري قال: قرىء على أبي العباس أحمد بن يحيى لأبي حيّة النميري، وأنا أسمع."(٧)

٣) الإجازة.

كانت الإجازة في بداية عصر الرواية مثلبة يَغمزُ بها المحدّثون كل من يفعل ذلك في الحديث، وروايته، وإن كان ما في الصحيفة صحيحاً لا ينقض. فكانوا يقولون: "إنّ فلاناً ثقة وبعض روايته صحيفة"(٨) أو قولهم: "إذا حدّث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه فهو كتاب، ومن هنا جاء ضعفه"(٩) بل قد رفض بعض علماء الحديث الرواية عن الصحف رفضاً قاطعاً، فقالوا: "لا حجّة إلاّ فيما رواه الراوي من حفظه وتذكُّره.."(١٠)

وكأي أمرٍ من أمور كثيرة "فقد جرى أهل اللغة والأدب في أمر الإسناد على ذلك أيضاً" وكان أشدّ ما يهجى به الراوية إسناده إلى الصحف.. ولكن الصعوبات التي رافقت نشأة هذا النوع من "الإجازة" بدأت تتخلخل مع الأيام، فلم تَعُدْ على تماسكها القديم، وعلامة ذلك أنّ خلافاً بدأ يقوم بين علماء الحديث حول شرعية الإجازة، وصواب الأخذ بها، وانتقل هذا الخلاف إلى الدرس اللغوي، مما حدا أبا البركات بن الأنباري (٥٧٧هـ-١١٨١م) أنْ ينقل صورة لذلك الخلاف في

---

(١) الصالح: علوم الحديث، ص٩٤، وأنظر الخطيب البغدادي: الكفاية، ص٢٦٠.

(٢) السيوطي: المزهر ج١، ص١٥٨.

(٣) المصدر السابق ج١، ١٦١.

(٤) المصدر السابق ج١، ١٥٨.

(٥) المصدر السابق ج١، ص١٥٨.

(٦) المصدر السابق ج١، ص١٦١

(٧) المصدر السابق ج١، ص١٦١.

(٨) الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج١، ص٣٠٦.

(٩) العسقلاني: تهذيب التهذيب ج٨، ص٤٩.

(١٠) السيوطي: تدريب الراوي، ج١، ص٣٠٧.

معرض حديثه عن الإجازة وسيلة علمية من وسائل تحمُّل الرواية اللغوية وأدائها، وكان مع الذين أجازوه دعماً وتاييداً وعلى الذين منعوها ردّاً وتفنيداً.[١]

٤) المكاتبة.

وهي عند علماء الحديث أن يكتب الشيخ إلى الطالب وهو غائب، شيئاً من حديثه بخطّه أو يكتب له ذلك وهو حاضر، ويلتحق بذلك ما إذا أمر غيره بأن يكتب له ذلك عنه إياه."[٢]

ويُفضّل المحدّثون هذا الأمر، فيقسمون المكاتبة إلى نوعين: أحدهما المكاتبة المجرّدة عن الإجازة. وثانيهما: المكاتبة المقترنة بالإجازة.

وقد حرَص أهل اللغة حين استعاروا "المكاتبة" أنْ يحافظوا على جوهر مفهومها، فهي عندهم: "أنْ يكتب الراوية الثقة إلى غيره أبياتاً أو خبراً فيروي ذلك عنه"[٣]

ولهذا أمثلة عديدة في ثنايا كتب اللغة والأدب، كقول أبي العباس ثعلب (٢٩١هـ-٩٠٤م) "بعث بهذه الأبيات إليّ المازني"[٤] وكقول الآخر: "أخبرنا أبو أحمد الحسن بن سعيد العسكري فيما كتب به إليّ".[٥]

وما تَحْسُن الإشارة إليه هنا أنّ المكاتبة المقترنة بالإجازة رجحَت عند بعض العلماء حتى على السماع نفسه.[٦]

٥) الوِجادة.

اصطلح المحدّثون على بيان مفهوم الوجادة بقولهم: "أنْ يسوق الراوي ما يرويه على أنّه وجده في كتاب."[٧] وكان هذا الاصطلاح مشروطاً بأخذ العلم من الصحف من غير سماع، ولا إجازة، ولا مناولة."[٨]

هذا وقد اتخذ اللغويون الوجادة طريقة أخيرة في هذا الباب، كما هو الحال عند أصحاب الحديث، ونجد في كتب اللغة والأدب أمثلة كثيرة لهذا النوع ثبّتَ طائفةٌ منها صاحبُ (المزهر)

---

[١] الأنباري: لمع الأدلة، ص٩٢ خلاف العلماء في الإجازة.

[٢] ابن الصلاح: في علوم الحديث، ص١٥٣.

[٣] الرافعي تاريخ آداب العرب ج١، ص٣٣٣.

[٤] السيوطي: المزهر ج١، ص١٦٧.

[٥] المصدر السابق ج١، ص١٦٧.

[٦] الصالح: علوم الحديث، ص٩٨.

[٧] الرافعي: تاريخ آداب العرب ج١، ص٣٣٣.

[٨] الصالح: علوم الحديث، ص١٠١.

في جزئه الأول كقول القالي: "قال أبو بكر بن أبي الأزهر: وجدت في كتاب أبـي"[1] وكقول أبي عبيدة: "وجدت في كتاب لبعض ولد أبي عمرو بن العلاء"[2]

إنّ طرائق الأخذ والتحمّل سواء في الحديث أو اللغة يقابلها تماماً طرائق الأداء، والأداء هو رواية الراوي للتلميذ، "فالشخص الواحد يكون في الوقت نفسه متحمّلاً ومؤدياً باعتبار الشيخ مرّة والتلميذ مرة أخرى[3]

٢) ضوابط السامع :

لعل من المفيد أنْ نذكر بدايةً أنّ علماء الحديث قد وضعوا قواعد للجرح والتعديل. وتعود نشأةُ هذه القواعد إلى عهد الصحابة والتابعين، ومَنْ بعدهم ابتداءً من ابن عباس (ت٩٦هـ-٧١٥م) حتى ابن مالك (ت١٧٩هـ-٧٩٥م)، ثم بلغ هذا الأمر ذروته عند يحي بن معين (ت٢٣٣هـ-٨٤٧م)، وأحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ-٨٥٥م)[4]

وقد أدّى تطبيق تلك القواعد إلى تميّز الرواية المردودة عن الرواية المقبولة، فاتّضح بجلاء الراوي المعدّل الموثوق فيما يقول والراوي المجروح المرغوب عما يروي. وكان مجرّد وضع قوانين الرواية يعني "معرفة سبب الردّ؛ إذ سبب الرّد ليس إلاّ فقْد شرطٍ من شروط القبول فأكثر"[5] وقد أرجع بعضهم سبب الردّ إلى أمرين: أحدهما عدم الاتصال في السّند، والثاني وجود أمر في الراوي يوجب طعناً.[6]

وقد أفاض المحدّثون في بيان شروط الراوي.[7] ولكنّ شروطاً أربعة "لا بدّ منها لقبول الرواية، فلو فقدها الراوي أو فقد بعضها رُدّت روايته وترك حديثه"[8] وتلك هي: العقل والضبط والعدالة والإسلام. إضافة إلى الشروط التي وضعها كل من البخاري ومسلم، والتي سُمّيت "شروط البخاري" و "شروط مسلم" واتفقا في أمور كثيرة، وافترقا في أمور قليلة[9]

---

[1] السيوطي: المزهر ج١، ص١٦٧.

[2] المصدر السابق ج١، ص١٦٨.

[3] الصالح: علوم الحديث، ص١٠٤.

[4] الصالح: علوم الحديث، ص١٠٩.

[5] طاهر الجزائري: توجيه النظر إلى أصول الأثر، ص٢٤١.

[6] المصدر السابق، ص٢٤١.

[7] أنظر على سبيل المثال: الشافعي: الرسالة ص٣٦٩-٣٧٢، وابن الصلاح في مقدمته ص٤٩، ٥٠، ٥١ وكذلك الصالح: علوم الحديث ص١٢٦-١٢٨.

[8] الصالح: علوم الحديث، ص١٢٦.

[9] أمين: ضحى الإسلام ج٢، ص١١٣-١١٤.

فكلاهما اشترط في الحديث أنْ يكون إسناده متصلاً، وأنْ يكون كل راوٍ من رواته مسلماً صادقاً غير مُدلِّس، ولا مختلط، متصفاً بصفات العدالة، ضابطاً متحفظاً سليم الذهن، قليل الوهم، سليم الاعتقاد[1]

سار أهل اللغة وبيدهم قواعد التحديث لا يُبدّلون ولا يُعدّلون إلاّ الطفيف الطارىء، فقرروا تبعاً أنّ اللغة "تؤخذ سماعاً من الرواة الثقات ذوي الصدق والأمانة، ويُتّقى المظنون"[2] وعلى ذلك نبّه ابن فارس حيث قال: "فليتحرّ آخذ اللغة وغيرها من العلوم أهل الأمانة والثقة والصدق والعدالة فقد بلغنا من أمر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا."[3]

وفي هذا الموضوع تحدّث أبو البركات بن الأنباري (٥٧٧هـ-١١٨١م) حيث قال: "العدالة شرط في قبول النقل"[4] فهو ثابت يستمدُّ ثبوته من إقراره في الحديث. فاشترط اللغويون "أن يكون ناقل اللغة عدلاً، رجلاً كان أو امرأة، حرّاً كان أو عبداً، كما يشترط في ناقل الحديث عن النبي -ﷺ- لأن بها معرفة تفسيره وتأويله. فاشترط في نقلها ما اشترط في نقله، وإن لم يكن في الفضيلة من شكله، فإن كان ناقل اللغة فاسقاً لم يقبل نقله[5]

وانتقل أهل اللغة إلى موضوع خبر الواحد العدل، فأقروا الأخذ بروايته، وقالوا يقبل نقل العدل الواحد، ولا يشترط أنْ يوافقه غيره في النقل"[6] وهو ما أقرّه رجال الحديث من قبل، فأعلنوا أنّ ذلك حتمٌ، وأنّ عدم قبول نقل العدل الواحد، حتى وإنْ أدلى به بدون دليل، يعني القطع بتكذيب جميع آحاد الصحابة والتابعين، ومَنْ بعدهم من أئمة المسلمين متى انفردوا بالخبر، ولم تكن معهم دلالة على صدقهم، وذلك خروج عن الدين وجهل "بما صاروا إليه".[7]

أمّا بخصوص أهل الأهواء، فقد قال كثيرٌ من العلماء بقبول "أخبار غير الدعاة من أهل الأصل، فأمّا الدُعاة فلا يحتج بأخبارهم."[8] فإن كان الأمر كذلك في الحديث -وهو أمر ديني- فإنّ سير أهل اللغة على هذا المبدأ من باب الأولى وعليه فقد قرّروا متابعة أنّ "نقل أهل الأهواء

---

[1] المرجع السابق ج٢، ص١١٣.

[2] ابن فارس: الصاحبي، طبعة الشويمي، ص٦٢.

[3] المصدر السابق، ص٦٣.

[4] السيوطي: المزهر، ج١، ص١٢٥.

[5] الأنباري: لمع الأدلة، طبعة الدكتور عطيه عامر، ص٣٥.

[6] السيوطي: المزهر ج١، ص١٣٨.

[7] الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية، ص١٩.

[8] المصدر السابق، ص١٢١.

مقبول في اللغة، وغيرها إلاّ أن يكونوا ممن يتدينون بالكذب كالخطابية من الرافضة؛ وذلك لأنّ المبتدع إذا لم تكن بدعته حاملة له على الكذب فالظاهر صدقه"[1]

وكما رأى أهل الحديث أنّ العدالة "شيءٌ زائد على ظهور الإسلام، يحصل بتتبع الأفعال واختبار الأفعال"[2] رأى أهل اللغة أنّ أوّل ما يلزم اللغوي "الإخلاص وتصحيح النيّة لقوله -ﷺ- **(الأعمال بالنيّات)**، ثم التحرّي في الأخذ عن الثقات لقوله -ﷺ-: **(إنّ العلم دين، فأنظروا عمّن تأخذون دينكم)**. ولا شك أنّ علم اللغة من الدين"[3]

ومن المبادىء العلمية الرصينة في قواعد الجرح والتعديل عند أصحاب الحديث أنّ الثقة إذا روى عن غيره، وكان غيره مجهولاً، فلا تُعَدُّ رواية الثقة تلك تعديلاً لذلك (الغير). وقد علّلوا هذا الأمر بأنه "يجوز أنْ يكون العدل لا يعرف عدالته، فلا تكون روايته عنه تعديلاً ولا خبراً عن صدقه."[4] وعلى هذا فإنه "لا يجزىء التعديل على الإبهام من غير تسمية المعدّل. فإذا قال: (حدثني الثقة) أو نحو ذلك مقتصراً عليه، لم يكتف به"[5] لكن المحدّثين أدركوا أيضاً -كعهدهم في كل صغيرة وكبيرة- أنّ القائل إذا كان عالماً أجزأ ذلك[6]

وهذه التعليمات الدقيقة هي التي سرت في رواية اللغة، فتقرّر فيها "أنّ المجهول الذي لم يعرف ناقله نحو أن يقول أبو بكر الأنباري: (حدثني رجل عن ابن الأعرابي) غير مقبول؛ لأنّ الجهل بالناقل يوجب الجهل بالعدالة... فبان بهذا أنّه لا يلزم قبول المعروف قبول المجهول.[7]

ومثلما استثنى المحدّثون من قاعدتهم تلك الناقل العالم فعل أهل اللغة ذلك، وضربوا لذلك ما أورده سيبويه في كتابه من أقواله المشهورة: (حدثني الثقة)، و(حدثني من لا أتّهم) أمثلة على هذا الأمر، وكذلك شأن الأبيات الخمسين من شواهد سيبويه في (الكتاب)، حيث احتجوا بها، وإن كانت مجهولة القائلين.[8]

ومع كل هذه الضوابط فلم تبلغ الرواية اللغوية الدرجة العلمية التي كانت عليها رواية الحديث، ولكن وُجد من حقّق للرواية اللغوية الصفة العلمية المقبولة حتى لم يَعُد يشكّل على علماء

---

[1] الأنباري: لمع الأدلة، ص(٣٦،٣٧).

[2] الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية، ص٨٣.

[3] السيوطي: المزهر، ج٢ ص٣٠٢.

[4] الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية، ص٨٩.

[5] ابن الصلاح: في علوم الحديث، ص٩٩.

[6] المصدر السابق، ص١٠٠.

[7] السيوطي: المزهر ج١، ص١٤١.

[8] المصدر السابق ج١، ص ١٤٢-١٤٣.

اللغة زيادة الرواة، ولا ما وضعوا، ولا ما وضع المولّدون.[1] لأن عملية تحقيق الثقة في الرجال قائمة، فإنّ سيبويه" يُوثّق من ينقل عنه، وأنّ أبا عمر بن العلاء لم ينقل إلاّ ممن عرفوا بالفصاحة وسلامة اللغة."[2] وعلى الرغم من أنّ الجرح والتعديل في رواة اللغة لا يتصل بالدين بالدرجة التي يتصل بها جرح رواة الحديث وتعديلهم، فإنّ هناك من انتصر لعلمية الرواية اللغوية وإنْ كلّفه ذلك مجابهة أئمة في العربية كبار، ولعلّ من الأمثلة على ذلك "أنّ أبا عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ-٧٧١م) ينقد أحد الرواة الثقات؛ لأنّه أفتى بما يعرف أنّه مغاير لما صحّ عنده" [3] وها هو ذا ابن السكيت (٢٤٤هـ-٨٥٨م) يقدّم على ما رواه قطرب فينسفه نسفاً إذ يقول: "كتبت عنه قمطراً، ثم تبيّنت أنّه يكذب في اللغة فلم أذكر عنه شيئاً.[4]

وعلى كلٍّ فقد خرج علماء اللغة من بعد تعديلهم الرواة وتجريحهم مما يبعث الاطمئنان على أكثر المرويّ من اللغة، على الرغم من ذلك الوضع والتزيُّد، فقد تبيّن أنّ "الموثقين من علماء العربية كثير، والمطعون فيهم قليل."[5] ولعل ذلك مما وحّد أبحاث اللغويين بأبحاث المحدّثين في هذا الميدان. فقد التقى اللغويون بنتائجهم تلك مع أهل الحديث الذين خرجوا من تعديلهم الرواة وتجريحهم بأنّ أكثر الرواة للأخبار ثقات، وأنّ الدرجة الأولى منهم محتجٌّ به في الكتابين[6]

٣) علاقة ضوابط المسموع اللغوي بضوابط الحديث.

استعرضت قبل قليل الضوابط التي وضعها علماء الحديث من أجل أن يأتي الحديث النبوي خالياً من كل غمز أو لمز، بعد ذلك ولما آن الأوان لجمع اللغة وتنقية المسموع منها التفت علماء اللغة إلى المنقول اللغوي فقسموه إلى القسمين اللذين قسم إليهما رجال الحديث الشريف فقال اللغويون:

"إنّ النقل ينقسم إلى قسمين: تواتر وآحاد، فأمّا التواتر: فلغة القرآن، وما تواتر من السنة، وكلام العرب. وهذا القسم دليل قطعي من أدلة النحو يفيد العلم."[7] كما هو الحال في الحديث

---

[1] السيوطي: المزهر: ج١، ص١٧٤.

[2] السيد، عبد الرحمن: مدرسة البصرة النحوية (نشأتها وتطورها)، ط١، مطابع سجل العرب، توزيع دار المعارف بمصر١٣٨٨هـ-١٩٦٨م، ص٢٣٧. وسيشار إليه فيما بعد بـ (السيد: مدرسة البصرة).

[3] المصدر السابق، ص٢٣٧.

[4] السيوطي: بغية الوعاة ج١، ص٢٤٣.

[5] حسين: من وثّق من علماء اللغة، مجلة مجمع اللغة العربية العدد١٢،مطبعة التحرير -القاهرة ١٩٦٠، ص٥٢.

[6] الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ (ت٤٠٥هـ-١٠١٥م): المدخل في علم الحديث، تح.جيمس ربسول (١٣٧٢هـ-١٩٥٣م)، ص٢٤، والمقصود بالكتابين صحيحا البخاري ومسلم. وسيشار إليه فيما بعد بـ (الحاكم النيسابوري: المدخل في علم الحديث).

[7] السيوطي: المزهر ج١، ص١١٣ والقول لأبي البركات الأنباري.

المتواتر.[1] وشرط التواتر في اللغة هو شرطه في الحديث، أي أن يبلغ عددُ النقلة إلى حدٍّ لا يجوز على مثلهم الاتفاق على الكذب، مثل نقلة لغة القرآن وما تواتر من السُنة وكلام العرب.

امّا عن الآحاد فما تفرّد بنقله بعض أهل اللغة، ولم يوجد فيه شرط التواتر وهو دليل مأخوذ به، واختلفوا في إفادته."[2]

ثم نجد رجال اللغة يُقسّمون المسموع عن طريق الآحاد إلى أقسام عديدة تشبه إلى أبعد الحدود تلك التقسيمات التي وُجدت عند علماء الحديث.. فالصحيح "هو الذي يصفونه بالثابت المحفوظ"[3] ولا يتّصف الكلام بذلك إلا بشروط خمسة هي:[4]

أولها: ثبوت ذلك عن العرب بسند صحيح يوجب العمل.

ثانيها: عدالة الناقلين كما تعتبر عدالتهم في الشرعيات.

ثالثها: أن يكون النقل عمّن قوله حجة في أصل اللغة كالعرب العاربة، مثل قحطان ومعدّ، وعدنان.

رابعها: أنْ يكون الناقل قد سمع منهم مباشرة.

خامسها: أنْ يُسمع من الناقل مباشرة.

وهذا النوع يقابله في الحديث الشريف "الحديث الصحيح" أي "الحديث المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه ولا يكون شاذاً ولا معلّلاً"[5]

وكذلك تأثر اللغويون بالمسمّيات الأخرى. ففي اللغة يكون "**الضعيف** ما انحط عن درجة الفصيح، و**المنكر**: أضعف منه وأقل استعمالاً بحيث أنكره بعض أئمة اللغة ولم يعرفه، **والمتروك** ما كان قديماً من اللغات، ثم ترك واستعمل غيره[6] ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في المزهر منقولاً عن الجمهرة قال: "قال قوم: "بلق الدابة" وهذا لا يُعْرف في أصل اللغة، وفي (الصّحاح): جَرَعت الماء (بالفتح) لغة أنكرها الأصمعي، والمعروف جَرِعت (بالكسر)."[7] ومن أمثلة **المتروك** ما ورد أيضاً عند السيوطي في "المزهر" قوله: كان أبو عمرو بن العلاء يقول: "مَضَنّي" كلامٌ قديم قد تُرك"[8]

---

[1] طاهر الجزائري: توجيه النظر إلى أصول الأثر، ٣٢٧.

[2] السيوطي: المزهر ج١، ص١١٤ وكذلك ١٢٩/١.

[3] السيوطي: المزهر ج١، ص٧.

[4] المصدر السابق ج١، ص٥٨،٥٩.

[5] ابن الصلاح: علوم الحديث ص(١٠-١١).

[6] السيوطي: المزهر ج١، ص٢١٤.

[7] المصدر السابق ج١، ص٢١٨.

[8] المصدر السابق ج١، ص٢١٨.

أما **المرسل** فهو "الذي انقطع سنده مثل "أن يروي ابن دريد عن أبي زيد، وهو غير مقبول؛ لأنّ العدالة شرط في قبول النقل، وانقطاع سند النقل يوجب الجهل بالعدالة فإنّ من لم يُذْكر لا يعرف عدالته، وذهب بعضهم إلى قبول المرسل."[1]

وأمّا **الشاذ** فهو عكس المطّرد. فقد "جعل أهل علم العرب ما استمرّ من الكلام في الإعراب وغيره من مواضع الصناعة مُطّرداً، وجعلوا ما فارق ما عليه بقية بابه وانفرد عن ذلك إلى غيره شاذاً."[2]

و**الشّاذ عند علماء الحديث** -الذي يرادف النادر عند أهل اللغة، ويُرادف المنكر عند أبرز أهل الحديث. جاء في (الكفاية): "الحديث الشاذ: هو الحديث المنكر الذي لا يعرف"[3] وهذا النوع من الأحاديث لم يأخذ به المحدّثون، وكذلك فعل أهل اللغة.

وفي ظنّي أنّه لا حاجة إلى مطابقة آراء المحدّثين بما فعله أهل اللغة من تأثّر بما ورد عند المحدّثين، فهم أي علماء اللغة قالوا بقول المحدّثين وأخذوا بآرائهم.

إضافة إلى ذلك فهناك مصطلحات دخلت أبحاث اللغويين آتية من علم الحديث: منها مصطلح (المسلسل) أو (المشجّر). **فالحديث المسلْسل** هو: "الحديث المسند المتصل الخالي من التدليس الذي تكرر في وصف رواياته عبارات أو أفعال متماثلة ينقلها كل راوٍ عمّن فوقه في السند حتى ينتهي إلى رسول الله -ﷺ-."[4]

ولا بدّ لسوق مثال لهذا المسلسل في الحديث لأجل معرفة كيفية إفادة اللغويين منه. ومثاله: ما حدّث به أبو بكر محمد بن داوود بن سليمان الزاهد، فقال: حدّثنا أبو عبدالله محمد بن أحمد بن المؤمل الضرير، حدثني إبراهيم بن راشد الآدمي، حدّثني محمد بن يحيى الواسطي خادم أبي منصور. فقال: قال لي أبو منصور: قم فصبّ عليّ حتى أُريك وضوء منصور، فإن منصوراً قال لي: قم فصبّ عليّ حتى أُريك وضوء علقمة، فإنّ علقمة قال لي: قم فصبّ علي حتى أُريك وضوء ابن مسعود فإنّ ابن مسعود قال لي: قم فصبّ علي حتّى أريك وضوء النبي -ﷺ- فإنّ النبي -ﷺ- قال لي: **قم فصبّ عليّ حتى أريك وضوء جبرائيل عليه السلام**"[5]

التقط اللغويون هذا "**المسلسل**" واتخذوه مسلكاً للتصنيف في فنٍّ لطيفٍ هو "المشجّر". ولكي تتجلى صورة التأثر والاقتباس هذه أنقل هنا مثالاً مما جاء في (المزهر) تحت عنوان: معرفة المشجّر.

---

[1] المصدر السابق ج١، ص١٢٥.

[2] المصدر السابق ج١، ص٢٢٧.

[3] الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية ص١٤١.

[4] الصالح: علوم الحديث ومصطلحه، ص٢٤٩.

[5] المصدر السابق ٢٤٩.

العين: عين الوجه، والوجه: القصد، والقصد: الكسر، والكسر :جانب الخباء، والخباء: مصدر خبأت الرجلَ، إذا خبأت له خبأ وخبأ لك مثله، والخبء: السحاب من قوله تعالى: " **يخرج الخبء في السموات والأرض**"[1] **والسحاب: اسم عمامة كانت** للنبي -ﷺ- والنبي: التل العالي..."[2]

وعلى الرغم من هذا التشابه الواضح بين ما في الحديث وما في اللغة فقد أشار السيوطي إلى ذلك وقال: "هذا النوع يناظره من علم الحديث نوع المسلسل".[3]

---

[1] النمل آية ٢٥.

[2] السيوطي: المزهر: ج١، ص٤٥٤.

[3] المصدر السابق، ج١، ص٤٥٩.

الفصل الخامس

موقف القدماء والمعاصرين من السَّماع وأثره في تقعيد اللغة

أولاً: موقف القدماء

١- أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ-٧٧١م).

٢- الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ-٧٩١م).

٣- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (ت ١٨٠هـ-٧٩٦ م).

ثانياً: موقف المعاصرين

١- فردينان دي سوسير (ت ١٣٣٢هـ-١٩١٣م).

٢- ابراهيم مصطفى (ت ١٣٨٢هـ-١٩٦٢م).

٣- عبدالله عثمان العلايلي (ت ١٤١٧هـ-١٩٩٦م).

ثالثاً: أثر السّماع في تقعيد اللغة.

أولاً: موقف القدماء

١- أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ-٧٧١م).

٢- الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ-٧٩١م).

٣- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (ت ١٨٠هـ-٧٩٦ م).

أولاً: موقف القُدَماء من السّماع

١ - أبو عمرو بن العلاء. (ت ١٥٤هـ-٧٧١م)

اختلف الباحثون في اسم أبي عمرو بن العلاء، فمنهم مَنْ يرى أنَّه زبَّان بن عمّار[١] ، ومنهم يرى أنَّه أبو عمرو بدلاً من زبَّان حيث ورد ذلك في البيتين اللذين مدح بهما الفرزدق أبا عمرو بن العلاء فقال[٢] :

ما زلت أفتح أبواباً وأغلقُها حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمَّارِ
حتى أتيت فتىً ضخماً دسيعتُه مُرُّ المريرةِ حراً ابن أحرارِ

وفي ظني أنَّ اسمه هو أبو عمرو كما أورد خبره الأصمعي؛ لأنَّ للأصمعي حجَّتين في ذلك. **الحجَّة الأولى:** سماعه اسم أبي عمرو منه مباشرة، **والثانية:** حجة معاصرته له، لأنه تلميذه، وعصره أقرب لعصر أبي عمرو من غيره .. وهناك **حجة ثالثة:** وهي ما أورده يحي بن المبارك اليزيدي وهو تلميذ أبي عمرو، وذلك عندما كان يمدح النحويين البصريين ويوضّح دور شيخه فقال[٣] :

يا طالبَ النحوِ ألاَ فابكهِ بَعْد أبي عمروٍ وحمّادِ

فاسمه إذن هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبدالله بن الحصين، ولد بمكة سنة (٧٠هـ-٦٨٩م) وتوفي سنة (١٥٤هـ-٧٧١م)[٤] . وتؤكد المصادر التي ترجمت له على أنَّه مازني النسب، تيمي القبيلة، نشأ نشأته الأولى بمكة، ثم رحل إلى البصرة، ومات ودفن في الكوفة[٥] .

أخذ علمه عن ابن أبي اسحاق، وكان من جلّة القراء والموثوق بهم، وكان يقرئ الناس القرآن في مسجد البصرة[٦] .

---

[١] السيوطي: بغية الوعاة، ص ٢٦٧ .

[٢] أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، تح. محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الفكر العربي ١٩٧٤م، ص ٣٤، وشرحه: أي ما زلت أتصرف في العلم وأطويه وأنشره حتى لقيت أبا عمرو فسقط علمي عند علمه، ومرُّ المريرة: شديد الأنفة، تعاف نفسه أن يفعل أفعالاً ليست بعالية ولا شريفة.

[٣] هو حماد بن أبي سلمى بن دينار البصري، كان عالماً بالنحو، أنظر السيرافي: أخبار النحويين البصريين، طبعة بيروت ١٩٣٦م ، ص ٤٠ .

[٤] بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج٢ ص ١٢٩ .

[٥] القفطي: إنباه الرواة، ج٤ ص ١٢٦ .

[٦] الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٣٥ .

- *موقفه من السماع.*

قال كثير ممن ترجم لأبي عمرو بن العلاء وتحدث عنه أنه أكثر من السّماع عن العرب، ولكنه كان حذراً في الأخذ عن الأعراب؛ إذ عاش حياته يجمع أشعار العرب القدماء، ولا سيما شعراء الجاهلية، حتى قال الأصمعي: "جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج ما رأيته يحتج ببيت إسلامي"[1] .وكانت عامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية، أو عن أشياخ العرب الذين يسكنون وسط الجزيرة العربية. وكان يحسن الأخذ عنهم، ويألف طريقتهم في الجواب عن أسئلته، ويحذر أنْ تكون حياتهم في الحاضرة أحياناً أثّرت فيهم -فلان جلدهم- كما قال مرة لأعرابي- وضعفت فصاحتهم أمام لغة المتحضرين[2].

ولهذا كان أحياناً يلجأ إلى امتحانهم؛ ليعرف أظلّت الفصاحة سليمة فيهم أم باينتهم تحت وطأة الحضارة. فقد قال الأصمعي: "سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: ارتبت بفصاحة أعرابي فأردت امتحانه، فقلت بيتاً من الشعر وألقيته عليه وهو:-

كم رأينا من (مُسْحَبٍ) مُسْلَحِبٍّ صار لحمَ النسورِ والعقبانِ.

ففكّر فيه ثم قال: رُدَّ عليَّ ذكرَ (المسحوب) حتى قالها مرات، فعلمتُ أنَّ فصاحته باقية.[3]

ومن الأمثلة التي تدلُّ على حذر أبي عمرو بن العلاء في الأخذ عن الأعراب عندما سأل أبا خيرة عن قولهم: "استأصل الله عرقاتهم". فنصب أبو خيرة التاء من "عرقاتهم". فقال له أبو عمرو: "هيهات يا أبا خيره، لان جلدك."[4] أي أنَّ أبا خيرة صار من أهل الحضر؛ وذلك أن أبا عمرو استضعف النصب؛ لأنه كان قد سمعها منه بالجر، وكان أبو عمرو بن العلاء بعد ذلك يرويها بالنصب والجر.[5] ولذلك وثّق العلماء أبا عمرو، واتفقوا على توثيقه.

---

[1] الجاحظ: البيان والتبيين، ج١ ص ٣٢١ .

[2] أنظر الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٣٥-٤٠ .

[3] الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج١ ص ٢٥٤، والسيوطي: المزهر، ج٢ ص ٣٩٩. ويريد بقوله (مسحب) اسم مفعول من (سحب) الثلاثي، امتحاناً له بالخطأ، فأبت عربيته الخالصة أن ينطق به إلاّ على الصحيح وهو (مسحوب).

[4] الأنباري: نزهة الألباء، ص ٢٦، والعرقاة الأصل الذي يذهب في الأرض سفلا.

[5] الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج١ ص ٢٥٤.

إنَّ مرويَّات أبي عمرو بن العلاء تمثل ظاهرة هامة تجعل لهذه المرويَات المسموعة قيمة تاريخية خاصة؛ وذلك أنَّه روى عن أعراب أدركوا الجاهلية.[1] وهذا يعني أنَّ أبا عمرو امتلك قدرة خاصة أهَّلتْهُ لمخاطبة الأعراب مبدؤه أنَّه حريص على أنْ يختبر صحة لفظة سمعها أو نقلها، ويريد التأكد من أنَّ صاحبها ما زال محافظاً على فصاحته، كما حدث مع أبي خيرة.

لقد كان احتجاج أبي عمرو بن العلاء بما يسمع لا يخضع عنده إلى الكثرة، وطول القصائد، ولا شهرة الشاعر، وإنَّما كان مقياس الفصاحة عنده أن يكون الشعر جاهلياً، ومدى قربه من البادية.[2]

ودليل آخر على حرص أبي عمرو بن العلاء على مسموعاته قوله في الأخطل: "لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدَّمت عليه أحداً."[3] وقد دُهش أبو عمرو حين رأى ذا الرُمة يجلس في دكان طحَان في البصرة يكتب فقال: ما هذا يا ذا الرمَّة ؟ قال: أكتم عليَّ يا أبا عمرو[4] ، فكأنه شعر بخطأ وهو سيُقلِّل من قيمته اللغوية.

أما سيبويه فقد كان شديد العناية بالنقل عن أستاذه أبي عمرو بن العلاء، فهو أحد شيوخه الثقات الذين شافهوا الأعراب، ورووا عنهم شعر الجاهليين الفصحاء؛ ولذلك نراه يعرض آراءه النحوية، وفيها ما يخالف قواعد سيبويه[5] ويحتجّ بإنشاده الشاهد النحويّ، كموقفه من أعراب البادية الفصحاء[6] ويحتجُّ بإحدى قراءاته[7] ويسوق تعليله لكلمة قالتها العرب[8] .

لقد كان أبو عمرو بن العلاء يُوَظِّفُ سماعه للغة في تقعيد القواعد العربية مثال ذلك: ما تحدَّث به أبو عمرو عن توابع المنادى، فقال سيبويه: "وقد زعم يونس أنَّ أبا عمرو كان يقول: يا أخانا زيد، وهو قول العرب، وهو على تكرار النداء ويقيسه على قولهم: يا زيد أخانا، بمنزلة يا أخانا، فيحمل على وصف المضاف إذا كان مفرداً بمنزلته إذا كان منادى، ويا أخانا زيداً أكثر في كلام

---

[1] ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ-١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر -بيروت ١٩٦٩م، ج٣ ص ٤٦٦. وسيشار إليه فيما بعد بـ(ابن خلكان: وفيات الأعيان).

[2] الشلقاني: مصادر اللغة، ص ٣٣٧ .

[3] الأصفهاني: الأغاني، ج٨ ص ٢٨٥ .

[4] الشلقاني: مصادر اللغة، ص ٣٤ .

[5] انظر سيبويه: الكتاب، ج٢ ص ١٨٤، ١٩٦، ٢٨١، ج٣ ص ٣٨، ١٠٠ .

[6] المصدر السابق، ج٣ ص ٥٠٦ .

[7] المصدر السابق، ج٢ ص ٢١٠ .

[8] المصدر السابق، ج٣ ص ٥٠٦ .

العرب؛ لأنهم يردُّونه إلى الأصل حيث أزالوه عن الوضع الذي يكون فيه منادى، كما ردُّوا "ما زيدٌ إلاَّ منطلقٌ" إلى أصله، كما ردّوا "أتقول" حين جعلوه خبراً إلى أصله"[1] .

وفي الاختصاص قال أبو عمرو بن العلاء: "**بنا تميماً يُكْشَف الضَبَاب**" من أُرجوزة لرؤبة بن العجّاج وهو تميمي، والشاهد فيه نصب (تميماً) على الاختصاص.[2]

وتحت باب تحقير ما حذف منه، ولا يُرَدُّ في التحقير ما حذف منه يقول سيبويه: "وأمّا يونس فحدثني أنّ أبا عمرو بن العلاء كان يقول في مُرٍ مُرَيّ، وفي يرى يُرَيّ يهمز ويجر، لأنّ بمنزلة "ياء قاضٍ" فهو ينبغي له أنْ يقول: مُيَيّت، وينبغي له أن يقول في ناس أُنَيس؛ لأنهم إنّما حذفوا ألف أناس، وليس من العرب أحدٌ إلاّ يقول: نُوَيس"[3] .

٢ - *الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ-٧٩١م).*

أخذ يختلف منذ نعومة أظفاره إلى حلْقات المحدّثين والفقهاء وعلماء اللغة والنحو[4] . كان من الزهّاد في الدنيا، والمنقطعين إلى العلم[5] . روى عن أيوب السختياني وعاصم الأحول وغيرهما. كان يحجُّ سنة ويغزو سنة.[6]

اعتمد الخليل في تأصيله لقواعد اللغة على السّماع والتعليل والقياس. والسّماع عند الخليل إنّما يعني نبعين كبيرين: نبع النقل عن القُرّاء للذكر الحكيم، وكان هو نفسه من قُرّائه، وحملته. ونبع الأخذ من أفواه العرب الخُلّص الذين يوثق بفصاحتهم. ومن أجل هذا رحل إلى مواطنهم في الجزيرة يُحدّثهم ويشافههم، ويأخذ عنهم الشعر واللغة.[7] وهذان النبعان وحدهما اللذان يدوران على لسانه فيما نقله عنه تلميذه سيبويه. ويظهر أنه هو الذي ثبّت فكرة عدم الاستشهاد بالحديث النبوي؛ لأنّ كثيرين من حمَلته كانوا من الأعاجم.[8]

---

[1] سيبويه: الكتاب، ج٢ ص ١٨٥ .

[2] المصدر السابق، ج٢ ص ٢٣٤.

[3] المصدر السابق، ج٣ ص ٤٥٧ .

[4] ضيف، شوقي: المدارس النحوية، دار المعارف، ط٧-١٩٩٢م، ص ٣٠ . وسيشار اليه فيما بعد بـ(ضيف: المدارس النحوية).

[5] السيوطي: بغية الوعاة، ج١ ص ٥٥٧ .

[6] المصدر السابق، ج١ ص ٥٨٥ .

[7] ضيف: المدارس النحوية، ص ٤٦ .

[8] المرجع السابق، ص٤٧ .

لكن الدكتور محمود حسني محمود يرى أن الخليل لم يكن يرفض الاحتجاج بالحديث، بدليل أنّه احتج بحديث النبي ﷺ :- **(لا تدخل الجنة إلاّ نفس مؤمنة مسلمة)** (١)

ويُروى أنّ الكسائي سأله -وقد بهره كثرة ما يحفظ- "من أين أخذت علمك هذا ؟ فأجابه: من بوادي الحجاز، ونجد، وتهامة".(٢)

وليست المسألة مسألة سماع وشواهد وحسب، فقد جعله استقراؤه للغة العرب تستقر في نفسه سليقتهم استقراراً مكّنه من ضبط القواعد النحوية والصّرفية ضبطاً يبهر كل من يقرأ مراجعات سيبويه له، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:-

أولاً:- إنْ (إنْ) الشرطية إذا وليها مضارع مجزوم لم يحسن دخول لام اليمين في الجواب، فلا يقال: إنْ تأتني لأكرمنّك؛ لأنّ اللام تعوق (إنْ) عن العمل. وقد ظهر عملها في فعل الشرط، أمّا إذا كان فعل الشرط التالي لها ماضياً، فإنّ عملها لا يكون حينئذٍ ظاهراً فيه؛ ولذلك يجوز دخول لام اليمين على جوابها، فيقال: إنْ أتيتني لأكرمنّك. ويُعلّق الخليل على ذلك بشواهد من القرآن الكريم والشعر، مثل: "**وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**"(٣) بخلاف قوله تعالى: "**وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين**"(٤) ؛ لأنّ (إنْ) عملت في فعل الشرط فوجب عملها في الجواب.

واستدل ايضاً بقول زهير : "**وإنْ أتاه خليلٌ يوم مسألةٍ يقول لا غائبٌ مالي ولا حرم.**"

فقد توقف عملها في الجواب؛ لأنّ فعل الشرط ماضٍ.(٥)

ثانياً:- منع العلم من الصّرف. إذا كان على وزن فعلان مثلّثة الفاء والنون فيه زائدة مثل عثمان، غطفان. يقول سيبويه: "وسألته عن رجل يسمى دهقان. فقال: إنْ سمّيته من التدهقن فهو مصروف، وإنْ جعلته من الدّهق لم تصرفه .. وسألته عن رجلٍ يسمى (مُرّانا) فقال: اصرفه، لأنّ المرّان إنّما سُمّي للينه فهو فُعّال، كما يُسمّى الحمّاض لحموضته، وإنّما المرانه اللين .. وسألته عن رجل يُسمى (فينانا). فقال: مصروف؛ لأنه فيْعال وإنّما يريد أنْ يقول لشعره فنون كأفنان الشجر،

---

(١) محمود، محمود حسني: احتجاج النحويين بالحديث، مقال في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد المزدوج (٣-٤) ١٩٧٩، ص ٤٨ .

(٢) القفطي: إنباه الرواة، ج٢ ص ٢٥٨ .

(٣) الأعراف آية ٢٣ .

(٤) هود آية ٤٧ .

(٥) سيبويه: الكتاب، ج٣ ص ٦٦. والخليل: المحتاج ذو الخلة، بالفتح، والمسألة: السؤال. والحرم، ككتف وبالكسر الحرام. أي إذا سئل لم يعتل لسائله بأن ماله غائب، أو محرم على طلابه. والشاهد فيه رفع (يقول) على نية التقديم وتقديره يقول إن أتاه خليل. وجاز هذا لأن إن غير عاملة في اللفظ. والمبرد يقدره على حذف الفاء.

وسألته عن (ديوان) فقال: بمنزلة قيراط؛ لأنّه من دوّنت. وسألته عن (رُمَّان) فقال: لا أصرفه، وأحمله على الأكثر، إذ لم يكن له معنى يُعْرَف. وسألته عن (سعدان) و (المرجان). فقال: لا أشكُّ في أنّ هذه النون زائدة؛ لأنّه ليس في الكلام مثل فعلال إلاّ مضعفاً.[1]

يتضح مما سبق أنّ الخليل يعتمد في إصدار أحكامه على محفوظاته في اللغة، وهي محفوظات كانت تعينه على معرفته الدقيقة بأصول الألفاظ واشتقاقاتها واستقرائها لمثيلاتها. وكأنّ اللغة أسلمت له قيادها كي يحكم آراءه ويضبط ما يشاء من قواعد الصَرف والنحو جميعاً.

فالخليل كما نرى أرسى قواعد السماع، فلا بُدَّ أنْ يشتق كل قانون نحويّ إمّا من استقراءات القراءات للذكر الحكيم، وإمّا من مشافهة البدو الخُلّص الذين لم تفسد سلائقهم ولا ألسنتهم، ولا بُدَّ لكل قانون من علّة أو علل عقلية تسنده، ولا بُدَّ له من أنّ يقوم على القياس قياسٌ يجري على الكثرة المطّرده من كلام العرب.

وقد كان للخليل فوق هذا فضلٌ في تقييد السّماع، وتحرّي الفصاحة، ويتضح لنا ذلك في كتاب تلميذه سيبويه، وفي منهجه أيضاً. فسيبويه يُرَجّح اللسان الحجازي[2] ؛ لأنّ أستاذه اعتمد لغة الأعراب في بوادي الحجاز، ونجد، وتهامة[3] . وسيبويه يقيّد سماعه بالفصاحة الموثوق بها. فهو يكثر من مثل هذه العبارة: "**العرب الذين تُرضى عربيتهم**"[4] . أو "**العرب الموثوق بعربيتهم**"[5] وهذا حتماً من إيحاء المنهج الذي سلكه الخليل في دراساته النحوية.

ومن الأمثلة على اعتماد الخليل على سماعه واستقرائه لهذا السماع، أنّه أخذ ينظر في أبنية الكلمات: في أوائلها وأواخرها نظرةً فاحصة ليعرف ما ألفه العرب وما لم يألفوه فانتهى إلى النتائج التاليه:-

(١) رأى العرب يستثقلون اجتماع الواوين كما يستثقلون اجتماع الهمزتين، فلم يجئ في كلامهم واوان في أول الكلمة، وبنى على هذه الظاهرة اللغوية مذهبه في إبدال الهمزة مكان الواو، إذا اضطرهم التأليف إلى اجتماع واوين، كما مرّ من إبدال الهمزة مكان الواو في مُصغّر (واصل)، فكان العرب يقولون: (أُوَيْصل)، مع أنّ ظاهر القياس يقتضي أنْ يقولوا: (وُوَيْصل) كما يقولون: (قُوَيْعد) في قاعد، و(سُوَيْكن) في ساكن.

---

[1] سيبويه: الكتاب، ج٣ ص ٢١٧، ٢١٨ .

[2] المصدر السابق، ج٣ ص ٢٧٨ .

[3] أنظر القفطي: إنباه الرواة، ج٢ ص٢٥٨ .

[4] سيبويه: الكتاب، ج١ ص ١٨٢، ج٤ ص ٤٧١ .

[5] المصدر السابق، ج١ ص ٣٠٤، ج٣ ص ٩٨ .

وكما مرَّ من إبدال الهمزة مكان الواو إذا صيغ فُعّل من (وأيت) فيمن خَفَّف الهمزة، فقد كان الخليل يقول: أوى كما ترى، وكان يقول:"لا بُدَّ من الهمزة لأنَّه لا يلتقي واوان في أول الحرف".[1]

(٢) ورأى أنَّه لم يأت في كلامهم حرف آخره واوان متحركان، وإذا اقتضى التأليف ذلك أبدلوا؛ ولذلك كانوا يصوغون ما جاء في آخره واوان متحركان من الأفعال على فَعِلت (بفتح فكسر) حتى يتيسر لهم قلب الثانية ياءً كما في (قويت)، و(حويت)، وهما من (القوَة) و(الحوْة) ولم يصوغوه على فَعلت (بفتحتين) أو فَعُلت (بفتحة وضمَّة) لئلا يعدموا الحيلة في قلب الثانية، فثبت لهما الواوان.

وقد سأله سيبويه عن عدم إجراء العرب (قويت، حويت) مجرى غزوت، فلم يقولوا (قووت، وحووت) فأجابه بأنَّهما من المضاعف، فيضطر المتكلم إلى أنْ يرفع *لسانه* ثم يعيده، وفي ذلك من الثقل ما يتجنبه العرب في كلامهم. أمَّا (غزوت) فليس فيها إلاَّ رفعة واحدة، ولذلك أجازوا أمثالها.[2]

ورأى أنَّه لم يجئ في كلامهم كلمة فأوّها واو، ولامها واو، فليس في كلامهم مثل (وعوت) وقد كرهوا ذلك كما كرهوا أنْ تكون العين واواً واللام واواً ثانية.[3] فإذا اقتضى التأليف ذلك لجئوا إلى الإبدال في الثانية.

وعلى هذا لا نكاد نُفرّق بين ما لامه (واو)، وما لامه (ياء)، من مثل قولهم: (وعيت)، (وفيت)، (ونيت)، (وقيت)، و(وشيت) إلى غير ذلك من المعتلات التي هي من اللفيف المفروق، لأنهما جميعاً على فَعَل يفعِل، ولا تثبت الواو في الماضي كما لا تثبت في المضارع أمَّا في الماضي فلفتح ما قبلها.

ورأى أنَّه ليس في كلامهم حرف آخره واو، أو ياء مفتوح ما قبلهما.[4] وإذا اضطرهم التأليف إلى مثله لجئوا إلى الإبدال، فأبدلوا الألف مكان الواو، والياء. وعلى هذا الأصل بنى الخليل جميع المقصورات في الكلام العربي. وألحق بها الأفعال المضارعة المعتلة الآخر بالواو أو بالياء إذا بنيت لما لم يُسمَّ فاعله نحو قولهم: يُنْوى، يُرْمى، ويُستقصى، وأسماء المفعول من غير الثلاثي كالمُصطفى والمُستقصَى.

---

[1] سيبويه: الكتاب، ج٤ ص ٣٣٣ .

[2] المصدر السابق، ج٤ ص ٤٠١ .

[3] المصدر السابق، ج٤ ص ٤٠١ .

[4] المصدر السابق، ج٣ ص ٢٦٤ .

وكان الخليل وسيبويه يسميان المقصورات منقوصات؛ وذلك يرجع إلى أن تبدل الألف مكان الياء والواو، فلا يدخلهما نصب ولا رفع ولا جر.[1] ومن هذه المقصورات (أشياء)، يعلم أنّها منقوصه؛ لأنّ نظائرها من غير المعتل إنّما تقع أواخرهن بعد حرف مفتوح، وذلك نحو معطى، مشترى، وأشباه ذلك؛ لأنّ مُعْطى مُفْعَل، وهو مثل مُخْرَج، فالياء بمنزلة الجيم، والراء بمنزلة الطاء. فنظائر ذا تدلك على أنّه منقوص، وكذلك مشترى إنّما هو مفتعل، وهو مثل معترك، فالراء بمنزلة الراء والياء بمنزلة الكاف.

ومثل هذا مغزى، وملهى، إنّما هما مَفْعَل، وإنّما هما بمنزلة مَخْرَج فإنّما هي واو وقعت بعد مفتوح. كما أنّ الجيم وقعت بعد مفتوح، وهما لامان، وأنت تستدل بذا على نقصانه.[2]

ولكن ما الذي كان يفعله الخليل إذا تعارض السماع والقياس ؟ يقول د. محمد خير الحلواني[3] : إنّ السّماع الصحيح عن العرب لا يُعتَرض عليه بالقياس. وهذا واضح في كلام سيبويه: "قال الخليل: كل شيء من ذلك عدلته العرب تركته على ما عدلته عليه، وما جاء تاماً لم يُحدث العرب فيه شيئاً فهو على القياس، فمن المعدول الذي هو على غير قياس قولهم في (هذيل) هُذَليّ. وفي فُقَيْم كنانة: فُقَميّ و ...."[4]

لقد كان الخليل يحتكم إلى السماع عند مناقشته مسألة نحوية، ويأتي بالشاهد كي يبرهن على صحّة موقفه. ومن ذلك موقفه من الاحتجاج بالقراءات القرآنية. فقد سئل عن كسر همزة (إنّ) في قراءة من قرأ: "**وما يشعركم إنّها إذا جاءَت لا يؤمنون.**"[5] فقال له: إنّما قال: وما يشعركم. ثم ابتدأ فأوجب. فقال: إنّها جاءَت لا يؤمنون. ولو قال: وما يشعركم أنّها. كان عذراً لهم. ثم عرض سيبويه لقراءة أهل المدينة بفتح الهمزة، فعلّلها الخليل بقوله: "هي بمنزلة قول العرب: إئت أنّك تشتري لنا شيئاً. أي: لعلّك، فكأنه قال: "لعلها إذا جاءَت لا يؤمنون."[6]

ومجمل القول في موقف الخليل من السّماع أنّه درس لغة العرب، ولم يَدَع شعراً ولا نثراً، ولا قراءة قرآنية[7] إلا كان يبحث فيها ويستنبط منها مع ملاحظته مستويات اللغة.

---

[1] سيبويه: الكتاب، ج٣ ص ٥٣٦ .

[2] المصدر السابق، ج٢ ص ١٦١ .

[3] الحلواني، محمد خير: المفصّل في تاريخ النحو العربي، مؤسسة الرسالة، ط١-١٩٧٩م، ج١ ص ٢٧٤ .

[4] سيبويه: الكتاب، ج٣ ص ٣٣٥ .

[5] الأنعام آية ١٠٩ .

[6] سيبويه: الكتاب، ج٣ ص ١٢٣ .

[7] المصدر السابق، ج٣ ص ٤٧٧، ج٤ ص ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٣ .

أمّا علاقة الخليل بالأصوات فهي نموذج آخر يدل على اهتمام الخليل بالسماع .. وحول هذا الموضوع يقول الدكتور حلمي خليل[1] : "إنّ الخليل قد استفاد من الملاحظات الصوتية التي تداولها قراء القرآن الكريم والنحاة منهم خاصة. ويضيف بأنّ دراسة الخليل للأصوات العربية كما نراها في مقدمة كتاب (العين) تُعدُّ أول دراسة شاملة لهذه الأصوات، فقد كان منهجه فيها **أنْ رتّبها ترتيباً صوتياً حسب الحيّز والمخرج، معتمداً في ذلك على الأداء الصوتي**، فهو يُقرّر في بداية حديثه عن هذه الأصوات وعددها **أنّها لا تظهر إلاّ بالمشافهة**، ولهذا نراه يعتمد في وصف هذه الأصوات **على ما يشعر به من اختلاف في أوضاع النطق عند التلفظ بأيّ صوت منها، وهو ما أسماه "ذوق الحروف"**. كما اعتمد أيضاً **على الجانب السمعي، كما يتمثل في وقع الصوت في الأذن.**[2]

لقد استعان الخليل على (تذوق الحروف) وتبيين مقاطعها وتحديد مخرجها بتسكينها؛ لأنه رأى أنّ مخرج الحرف إنّما يتمثل ويَتبيَّن إذا كان ساكناً[3] ولما لم يستطع الابتداء بالساكن بدأهُ بالهمزة المفتوحة؛ لأنّ الفتحة أسهل الحركات وأخفُّها. فكان يفتح فاه بالهمزة المفتوحة، ويقف على الساكن فيقول مثلاً: أبْ، أتْ، أعْ إلى آخر الحروف، فاهتدى بذلك إلى تحديد المخارج، ورتّب الحروف كما يأتي:[4]

العين الحاء الهاء الغين الخاء- القاف الكاف- الجيم الشين الضاد- الصاد السين الزاي- الطاء التاء الدال- الظاء الذال الثاء- الراء اللام النون- الفاء الياء الميم- الألف الواو الياء الهمزة-.

هذا هو مقياس الخليل في تذوق الحروف مع ما فيه من سذاجة، وهذا هو ما استطاع الوصول إليه كلما سمحت له به ظروفه العلمية، وكان هذا بالنسبة إلى الدارسين في عهده حدثاً عظيماً، وقد وُفّق توفيقاً عظيماً في كثير من النتائج التي توصّل إليها. **ومقياسه هذا لا يعدو أنْ يكون قائماً على التذوق الشخصي والملاحظة بوساطة الأذن. وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أنْ تنهض بهذه الدراسة قبل تقدُّم العلم، وعمادها الأذن، والتذوق الشخصي.**

أما المحدثون فقد استفادوا من التقدم العلمي، وساروا على طريقة حديثة قوامها التسجيل الآلي. وطريقة التسجيل الآلي لم تكن لتكون إلاّ بعد تقدّم العلم واكتشاف آلات وأجهزة دقيقة، لتحديد

---

[1] خليل، حلمي: العربية وعلم اللغة البنيوي، دار المعرفة الجامعية ١٩٨٠م، ص ٢٤، ٢٥ .

[2] المرجع السابق، عن مقدمة كتاب العين، ص ٥٦، ٦٤، ٦٥ .

[3] مصطفى: إحياء النحو، ص ٨٣ .

[4] المخزومي: الخليل بن أحمد الفراهيدي، أعماله ومنهجه، دار الرائد العربي-بيروت، لبنان، ط٢ / ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص ١٠٩ .

مخارج الأصوات، وتسجيل حركات النطق، وتسجيل تموجات الهواء التي تحدث بواسطة النطق.[1]

ومن جهة أخرى لحظ الخليل أنّ **الحروف التي درسها لم تكن من طبيعة واحدة، ولا ذات طابع واحد، ففي بعضها يظل النفس جارياً لا يعوقه عائق، ولا يجد المتكلم صعوبة في جريانه، وفي بعضها يتعثر النفس ويقف عند مَدْرَجَة معينه من مدارج الفم فلا يتأتى للمتكلم أنْ يتابع نَفَسَه.**[2]

ووَجَد الخليل أنّ الحروف التي يجري معها النفس عشرة هي: الهاء والحاء والخاء والكاف والشين والسين والتاء والصاد والثاء والفاء. وسمّاها الحروف المهموسة، **والمهموس عنده حرف لأن مخرجه دون المجهور، وجرى مع النفس. فكان دون المجهور في رفع الصوت**[3]. وسمى الحروف الأخرى التي ليس لها صفة المهموس **المجهورة**. وقد **بنى الخليل التفرقة بين المجهور والمهموس على ما أحسَّ به في أثناء تذوقه الحروف من وقوف النفس وجريانه، وارتفاع الصوت وانخفاضه.**

٣- سيبويه (١٨٠هـ-٧٩٦م).

اسمه عمرو بن عثمان بن قَنْبَر -بفتح القاف والباء وسكون ما بينهما-، وهو فارسي الأصل والنشأة الأولى؛ حيث ولد بقرية البيضاء من قرى شيراز. وقد أتم مرحلته التعليمية الأولى في شيراز، وبعد ذلك رحلت أسرته إلى البصرة، حيث التحق سيبويه بحلقات الفقهاء والمحدّثين، ولزم حلْقة حماد بن سلمة بن دينار المحدّث المشهور حينئذٍ.[4]

ارتاد سيبويه كبار الشيوخ والائمة يستكمل علمه منهم، وألمع هؤلاء الشيوخ: **حمّاد بن سلمه، والأخفش الأكبر ويعقوب بن إسحق الحضرميّ وعيسى بن عمر الثقفي البصري ويونس بن حبيب والخليل بن أحمد الفراهيدي، وأبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري وغيرهم.**[5] أمّا أشهر

---

[1] أنظر أنطوان مايه ولانسون: منهج البحث في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، وأضيف إلى الطبعة الرابعة من كتاب "النقد المنهجي عند العرب" لمحمد مندور، ص ٤٣١ .

[2] ابن منظور: لسان العرب، حرف الهاء.

[3] المخزومي: الخليل بن أحمد الفراهيدي، ص ١١٤ .

[4] أنظر ترجمته في أبي الطيب اللغوي: مراتب النحويين، ص٦٥، والسيرافي: أخبار النحويين البصريين ص٤٨.

[5] أنظر سيبويه: مقدمة الكتاب، ج١ ص ٨-١٦ .

تلاميذه الذين عرفهم التاريخ فهم: **أبو الحسن الأخفش، سعيد بن مسعدة وقطرب أبو محمد بن المستنير البصري والناشي.**[1] ولعل أفضل ما قدَّم للمكتبة العربية كتابه الذائع الصيت "**الكتاب**".

- موقفه من السّماع.

لم تفصح لنا كتب الطبقات أو التراجم عن رحلة سيبويه أو سماعه عن العرب، وإنْ قيل إنَّ سيبويه سمع عن العرب، وأنَّه كان عالماً بلغاتهم وما فيها من كثرةٍ وقلّةٍ، وما تتصف به من قوة وضعف. فالقول صحيح، ولكنَّ معرفته بها وما تتصف به كانت معرفة بما عرفه شيوخه الذين تلمذ لهم أو نقل عنهم، ولم يكن له باللغات العربية علم سماع مباشر يعتمد على المعاينة والمشافهة، ولو عَرَف ذلك معرفة ميدانية بينية -أي معرفة رحلة واختلاط- ما وقع في أغلاط كان رأيه فيها مخالفاً للغات العرب، وما هي عليه من شيوع وانتشار في مجالاتها اللغوية العامة. ومن هذه المسائل:

أولاً:- المسألة الزُّنبوريّة.[2]

وهي مناظرة بن الكسائي وسيبويه، وخلاصة القول فيها أنَّ الكسائي قال لسيبويه: **كيف تقول: "قد كنت أظن أنَّ العقربَ أشدُّ لسعة من الزُّنبور، فإذا هو هي أو فإذا هو إيَّاها ؟"** فقال سيبويه: **فإذا هو هي، ولا يجوز النَّصب.** فقال الكسائي: **"لحنتَ، العرب ترفع ذلك كله وتنصب."**

وأهم ما يعنينا في هذه المسألة ما قاله سيبويه. ومع ذلك فإنَّ الذي ذهب إليه الكسائي صحيح لأنَّه يُعبِّر عن لغة من لغات العرب، والأهم من ذلك أنَّ هذه المسألة كشفت لنا عن قصور سيبويه في معرفته التامة ودرايته الكاملة بلغات العرب، إذ اكتفى بالرفع، فردَّ عليه الكسائي وقال: "العرب ترفع في ذلك كله وتنصبه" أي أنَّ الرفع لغة والنصب لغة أخرى.

وفي رأيي أنَّ سيبويه لم يسمع عن العرب، بل سمع عن شيوخه، فاكتفى بما نقله عنهم مهما كان قليلاً أو محدوداً في معرفة اللغات الغربية وهي كثيرة ومتنوعة، ولو شافه العرب ما كان خلافه مع الكسائي.

---

[1] أنظر المصدر السابق، المقدمة ج١ ص ١٥-١٦ .

[2] أنظر هذه المسألة في الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٤٠-٤٤، والأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف، ج٢ ص ٤١١-٤١٥ .

ثانياً:- تصغير (ناب).

ومن دلائل المنهج النقلي عند سيبويه، وأنّه لم يسمع عن العرب، قوله في تصغير (ناب): "ومن العرب من يقول في ناب نُوَيْب، فيجيء بالواو؛ لأنّ هذه الألف مبدلة من الواو أكثر، وهو غلط منهم."[1]

ومذهب البصريين في هذه المسألة أنّ ما كان ثانيه ألفاً من الأسماء الثلاثة وَجَبَ ردُّه إلى أصله عند التصغير مثل: باب – بُوَيْب، وناب نُيَيْب، ويرى الكوفيون[2] أنّ هذه الألف الثانية تقلب (ياءً) سواء أكانت هذه الألف منقلبة عن ياء في مثل (ناب) أو أصلية كالتي في مثل (شيخ) فنقول: ناب – نُيَيْب، شيخ – شُيَيْخ، ومذهب الكوفيين أشمل بلغات العرب، ومنطقٌ سائرٌ بينهم خاصة في دول الخليج العربي وما جاورها حيث يقولون: بيت – بُيَيْت، و شيخ – شُيَيْخ، وفي ذلك دليل على عدم معرفة سيبويه بلغات العرب؛ لأنه لم يسمع عنهم وإنّما سمع عن شيوخه، وفي (الكتاب) شهادة بذلك؛ لأنّ قوله السابق مسبوق بقوله: "وسألت الخليل ... ومن العرب من يقول في ناب نُوَيْب."[3]

والأمثلة على أنّ سيبويه كان يسمع كثيراً جداً عن شيوخه كثيرة ليس هذا محل تفصيلها. وليس معنى هذا أنّ سيبويه كان قاصراً في فهم اللغة، أو معرفة أحكامها ولكن العِلّة في ذلك أنّه كان ينقل عن شيوخه.

ومع كل الذي يقال عن سيبويه ورحلاته إلى البادية وسماعه العرب في منازلهم، فقد ورد بما لا يدع مجالاً للشك عن سيبويه أنّه **كان يُحكّم السماع في بعض المسائل التي كانت تُناقش بين العلماء. ومثال ذلك موضوع (العطف على المنادى العلم المعرّف بأل)**؛ حيث أنّ الأصل في النداء النصب، وما ورد من أسماء مرفوعاً في حالة النداء فهو في موضع نصب[4] وقد يعطف على المنادى، فيرفع المعطوف إذا كان علماً، وينصب إذا كان مضافاً[5] وتختلف الحال إذا كان المعطوف معرفاً بأل. فقد تباينت مذاهب النحاة فيه، وخاصة نحاة البصرة، فقد ذهب أبو عمرو ويونس وعيسى بن عمر وأبو علي الجرمي إلى أنّه منصوب[6]، فإذا قلنا: يا زيد والرجل، كان

---

[1] سيبويه: الكتاب، ج٣ ص ٤٦٢ .

[2] حسن: النحو الوافي، دار المعارف بمصر، ط٥ ج٤ ص ٧٠٧ .

[3] ومن الأمثلة الأخرى مسألة الفعل وَدَع بتخفيف الدال، ومسألة وقوع (كل) المضافة إلى النكرة مفعولاً به. أنظر سيبويه: الكتاب، ج٢ ص ١١٤، ج٤ ص ١٠٩ .

[4] سيبويه: الكتاب (هامش)، ج٢ ص ١٨٢ .

[5] ابن يعيش: شرح المفصّل، عالم الكتب – بيروت ومكتبة المتنبي– القاهرة، ج٢ ص ٣، ٤ .

[6] المبرد: المقتضب، ج٤ ص ٢١٢ .

(الرجل) منصوباً، والألف واللام فيه بمنزلة الإضافة والواجب في الإضافة النصب وذهب الخليل وسيبويه والمازني إلى أنّه مرفوع.[1]

وقد استند سيبويه في حكمه على السماع؛ حين قرأ (الأعرج) كلمة (الطير) بالرفع[2] في الآية الكريمة: "**يا جبال أوّبي معه والطير**"[3] كما اعتمد على كثرة الاستعمال؛ حيث ذكر سيبويه **أنّ العرب كثيراً ما قالوا: يا زيد والنضرُ، برفع المعرفة المعطوفة على المنادى العلم.**[4]

وقد أظهر العلماء ضعفاً في رواية قراءة الآية: "**يا جبال أوّبي معه والطير**"؛ حيث يذكر في الإتحاف ما نصّه[5] : "وأمّا ما روي عن (روح) من رفع الراء من (والطير) نسقاً على لفظ (جبال) أو على الضمير المستكن في (أوبي) للفصل بالظرف. فهي انفرادة لابن مهران.[6]

ومن الأمثلة على لجوء سيبويه إلى السماع واعتماده عليه **هو ما أُثير حول (الآن) فقد كاد** النحويون يجمعون على أنّ (الآن) ظرف مبني، ولكنهم يختلفون في علّة بنائه. فقد ذهب سيبويه إلى أنّ (الآن) مبني لمضارعته (أين) في أمرين: أنه ظرف وكثر به في الكلام[7] . وقد استند في حكمه على السماع؛ حيث ذهب إلى أنّ فتحة (الآن) فتحة بناء، معتمداً على أنّ العرب تقول: "من الآنَ إلى غدٍ"[8] وكذلك كثرة الاستعمال، وهو ضرب من السماع يعتمد عليه في بناء القاعدة عند ملاحظة كثرة ورود تركيب ما على نحو مُعَيَّن، وهو ما لحظه سيبويه في (الآن).[9]

إنّ لجوءَ سيبويه إلى السماع في معالجة بعض المسائل النحوية يصدر عن استقراء سليم لكلام العرب، إذ كثيراً ما أشار إلى ذلك بعبارات يلحظ فيها وجود هذا الاتجاه لديه يدل عليه قوله:

---

[1] المصدر السابق، ج٤ ص ٢١٢ .

[2] سيبويه: الكتاب، ج٢ ص ١٨٧ .

[3] سبأ آية ١٠ .

[4] سيبويه: الكتاب، ج٢ ص ١٨٧ .

[5] الدماميني، أحمد بن محمد:إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، نشر عبدالحميد أحمد حنفي، القاهرة ١٣٥٩هـ، ص ٢٥٨، وروح هو روح بن عبدالمؤمن أبو الحسن البصري(ت ٢٣٤هـ-٨٤٨م) وهو مقرئ جليل، روى الحروف عن جماعة عن أبي عمرو. (حجة القراءات، ابن أبي زرعة، تح. سعيد الأفغاني، ص ٦٥).

[6] ابن مهران هو سليمان بن مهران الأعمش، كان من أقرأ الناس لكتاب الله وأحفظهم لحديث رسول الله(ت ١٤٨هـ-٧٦٥م) (معرفة القراء، الذهبي، تح. محمد جادالحق، ص ٨٠) .

[7] هذا ما استند إليه سيبويه في علة بناء الآن في الكتاب، سيبويه: الكتاب، ج ٣ ص ٢٩٩ .

[8] المصدر السابق، ج٢ ص ٤٠٠ .

[9] المصدر السابق، ج٣ ص ٢٩٩ .

"وأرى قولهم: إضرب أيُهم أفضل"[1] . على أنّهم جعلوا هذه الضمة بمنزلة الفتحة في خَمْسَةَ عَشَرَ . وبمنزلة الفتحة في (الآن) حين قالوا: "من الآن إلى غدٍ" كما يظهر ذلك في قوله: "واعلم أنّ العرب تدع (خَمْسَةَ عَشَرَ) في الإضافة والألف واللام على حال واحدة، كما تقول: اضرب أيُهم افضل، وك(الآن)، وذلك لكثرتها في الكلام."[2]

ومن المسائل التي اعتمد سيبويه في معالجتها على السماع مسألة "هل المنادى العلم المنون للضرورة مضموم أم منصوب ؟". فقد أجمع النحويون على جواز تنوين المنادى العلم المبني للضرورة.[3] وهو ما يذهب إليه نحاة البصرة إلاّ أنّهم يختلفون في كون هذا التنوين تنوين ضم أو تنوين نصب.

فقد ذهب أبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وعيسى بن عمر والجرمي والمبرّد إلى ترجيح النصب[4] ، ولهم حجتهم في ذلك. بينما ذهب الخليل وسيبويه والمازني إلى ترجيح الضم.[5] **وقد اعتمد سيبويه وأصحابه على وروده في السّماع؛ حيث ورد بيت الأحوص على النحو التالي:**[6] **سلام الله يا مطرٌ عليها ...**

ومن الأمثلة على لجوء سيبويه إلى السماع واتّكائه عليه، ومعالجته لبعض موضوعات (الكتاب) ما ورد تحت باب الإدغام؛ حيث تحدّث في هذا الباب عن عدد الحروف العربية ومخارجها ومهموسها ومجهورها، وأحوال مجهورها ومهموسها واختلافها.[7]

وحديثه عن هذه الحروف (التسعة والعشرين) يدل على أنّه استطاع أنْ **يصنف** هذه الحروف وصفاً دقيقاً، وهو الذي نراه يقول في كتابه: "**وهذه الحروف التي تتمّتها اثنين واربعين جَيِّدها ورديئها أصلها التسعة والعشرون، لا تُتَبَيَّن إلاّ بالمشافهة.**"[8]

---

[1] سيبويه: الكتاب، ج٢ ص ٤٠٠ .

[2] المصدر السابق، ج٣ ص ٢٩٨، ٢٩٩ .

[3] السيوطي: همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية، تح. عبدالعال سالم مكرم، دار البحوث العلمية_الكويت ١٩٧٩م، ج١ ص ١٧٣ .

[4] انظر المبرد: المقتضب، ج٤ ص ٢١٢، ٢١٥ .

[5] المصدر السابق، ج٤ ص ٢١٣ .

[6] سيبويه: الكتاب، ج٢ ص ٢٠٢ .

[7] المصدر السابق، ج٤ ص ٤٣١ .

[8] المصدر السابق، ج٤ ص ٤٣٢ .

فالتمييز بين المجهور والمهموس –على سبيل المثال– **كان عن طريق السماع** .. أيْ أنّ هناك منهجاً كان سيبويه يسير عليه، ذاك هو المنهج الوصفي؛ حيث اعتمد سيبويه **الملاحظة المباشرة التي تُعدُّ جزءاً من المنهج الوصفي والتي تسمى "ذوق الحروف" والتي تقوم على سماع الأذن ووصف الحروف، أي أنّ الفاحص والمفحوص هو الشخص نفسه أي سيبويه نفسه، أي كان ينطق الصوت ثم يصفه.**

وتحت باب (الراء) نجد سيبويه يقف على صوت الراء ويُقَدِّم وصفاً دقيقاً له معتمداً على سماعه الدقيق حيث نراه يقول[1] : "والراء إذا تكلمت بها خرجتْ كأنها مضاعفة، والوقف يزيدها إيضاحاً فلما كانت الراء كذلك قالوا: هذا راشدٌ، وهذا فراشٌ، فلم يميلوا لأنهم كأنهم قد تكلموا براءين مفتوحتين، فلما كانت كذلك قويت على نصب الألفات وصارت بمنزلة القاف، حيث كانت بمنزلة حرفين مفتوحين ... الخ.

ويقصد سيبويه بـ(مضاعفة) أي مكررة، والتكرير يعني ارتعاد طرف اللسان بالراء مكرراً لها، والتضعيف هذا أو التكرير ما هو إلا **مصطلح سمعي**.

ومما يدلُّ على اتكاء سيبويه على السماع في تفسيره للقضايا الصوتية قوله في تعليل قول بعض العرب: **(يستيع) بدل يستطيع "إن شئت قلت: أبدلوا التاء مكان الطاء ليكون ما بعد السين مهموساً مثلها، كما قالوا: ازدان (اصلها: ازتان) ليكون ما بعدها (الزاي) مجهوراً.**[2]

هذا وقد حرَص سيبويه على دراسة الظواهر الفونولوجية العربية[3] استناداً إلى اللغة المحكية (spoken language) في زمنه وعصره لا إلى اللغة المكتوبة المدوَّنة. ودليلنا على ذلك إشارته الذكية إلى الأصوات (الحروف) المتفرعة عن الحروف الأصلية التي لا يمكن الرمز لها برموز كتابية.

ومن الأمثلة على ذلك كلام سيبويه على المماثلة بين الصاد المهموسه المطبقة والدال الشديدة المجهورة، فيقول: "الصاد جاءت في كلامهم (مزدر، فزد) كالزاي التي بين الصاد

---

[1] سيبويه: الكتاب، ج٤ ص ٤٣٥ .

[2] المصدر السابق، ج٤ ص ٤٨٤ .

[3] الفونولوجيا: هي معالجة الظواهر الصوتيه بحسب وظيفتها داخل بنية الكلمة، فإذا قلنا إنّ "النون" صوت صحيح مجهور وأسناني، وأغن، فإنّ هذا الوصف يدخل في نطاق علم الصوتيات المجردة، أمّا إذا أشرنا لتنوُّع النون بحسب موقعها في الكلمة، وسياقها الصوتي، فهذا هو البحث الفونولوجي. (د. حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، ص ١٠٥).

والزاي.[٤] وهو صوت يبدو أنّه كان شائعاً في اللغة المحكية وليس له رمز كتابي يشير إليه أو ينمّ عليه. وهو كالصوت الذي يشيع في أيامنا في كلمة (ضابط) و(مضبوط) باللهجات الشامية والأردنية والمصرية الدارجة. ويتطرق سيبويه إلى ظواهر فونولوجية لم يتطرق لها المحدثون. وهي ظواهر لا تفصح عنها اللغة المكتوبة وأعني **ظاهرة الإمالة، وظاهرة التفخيم، وظاهرة الروم أو الإشمام.**

والإمالة تكون في الألف، وهي انحراف بها نحو الكسرة، لا سيما إذا كانت الكلمة فعلاً أجوف، نحو: طاب، وهاب، وخاف. فقد قرئت في القرآن ممالة. وإذا سبقت الألف بياء مثل: كيال، بياع[١] . ويبدو من وصف سيبويه لهذه الظاهرة **أنها شبيهة بنطق الألف في اللهجة الشامية واللبنانية في عصرنا**، إذ يقولون من بياع بييع، وكيال كييل مع فتح فاء الكلمة، ولكن الإمالة لا تكون إلاّ مع الاصوات المخالفة للألف كما يقول سيبويه. أمّا القريبة منها فتَمتَنع الإمالة.

أمّا الرُوم فهو أنْ تقف على الكلام المتحرك، وتشير إلى الحركة: كأنّك تروم الرفع أو النصب أو الكسر. وأمّا الإشمام فهو أنْ تخطف الحركة في الوقف خطفاً بالإلماع إليها دون أن ينبو بها اللسان، وأنْ يمتد بها الصوت. أما التفخيم فهو كنطق اللام في كلمة (الله) إذا كان الذي قبلها مفتوحاً أو مضموماً. ولا شك في أنّ السامع يُفرّق بيُسْر بين فخامة اللام في قول "والله" ورقتها في قولنا "بالله" وهذا أيضاً ينطبق على الألف في كلمة مثل طال، والراء في كلمة مثل ضرب، وقد تناول المحدثون هذا النوع من التفخيم تحت اسم التفخيم السياقي.[٢]

نخلص مما تقدم إلى أنّ سيبويه قد اعتمد اعتماداً كبيراً على السَماع، فهو الأصل الأم الذي اتكأ عليه وهو يعالج كثيراً من الموضوعات التي ذكرتُ قسماً منها. فالذي يبحث في (الكتاب) يرى أنّ القضايا التي وصفها سيبويه معتمداً على السماع كثيرة جداً منها المهموس والمجهور، وتقريب الأصوات (المماثلة)، وضعف أصوات العِلّة، والنبر، ومنهجه في تذوق الحروف ... كل هذه المسائل قائمة على السماع .. فالسماع ركيزة قام عليها علم سيبويه النحوي.

---

[٤] سيبويه: الكتاب، ج٤ ص ٤٧٨ .

[١] سيبويه: الكتاب، ج٤ ص ١٢١ .

[٢] الخولي، محمد علي: الأصوات اللغوية، مكتبة الخريجي، الرياض ط١ / ١٩٨٧م، ص ٢١٦ .

(ب) موقف المعاصرين

- فردينان دي سوسير (ت ١٣٣٢هـ-١٩١٣م).

- ابراهيم مصطفى (ت ١٣٨٢هـ-١٩٦٢م).

- عبدالله عثمان العلايلي (ت ١٤١٧هـ-١٩٩٦م).

ثانياً: مَوْقِف المعاصرين من السّماع

١ - فردينان دي سوسير (ت ١٣٣٢هـ- ١٩١٤م)

قبل أن يقع الاختيار على (سوسير) كنت حائراً؛ إذ مَنْ من الغربيين يَصلُح أن نستشهد به من أجل بيان موقفه من السّماع اللغويّ .. كانت الإجابة سريعة من أستاذي د. فوزي الشايب أستاذ اللسانيات في جامعة اليرموك .. حيث أرشدني إلى هذا العَلَم الذي يُعَدُّ في الجامعات الغربية أبا اللسانيات .. فهو مؤسس علم اللغة الحديث دون نزاع وهو صاحب فكرة المنهج الوصفي. وللوقوف على ما يقال عنه، وهل هو حقيقة أبو اللسانيات اجتهدت أن أُقدّم بشيءٍ عن حياته.

ولد فردينان دي سوسير في سويسرا في ١٧ نوفمبر ١٨٥٧م من أصل فرنسي، ودَرَس في جنيف، ثم انتقل إلى ليبزج ليبدأ دراسته الجامعية وهو في الثامنة عشرة، وتلمذ للفيلولوجي الألماني المشهور (G. Curtius).[١]

وحين توفي (فردينان) سنة ١٩١٣م لم يكن كتابه "محاضرات في علم اللغة العام" قد نشر، فقد جمعه تلاميذه بعد وفاته بمقابلة المذكرات التي كانوا يكتبونها عنه أثناء إلقائه هذه المحاضرات.[٢]

ويتفق الدارسون على أنّ هذا الكتاب هو أهمُّ عمل بدأ تحديد الأسس التي صدَر عنها علم اللغة الحديث. ويتقدم دي سوسير خطوة أخرى ليقدّم أهمّ ما تمثّله إضافته في الدرس اللغوي، وذلك ما تناوله في الفصل الذي كتبه بعنوان: (Static and Evolutionary Linguistics) والذي عرض فيه نظريته في منهج البحث. لقد كان النحويون الشبان قد قرروا أنّ الطريقة الوحيدة لدراسة اللغة هي دراستها تاريخياً. عارض دي سوسير هذا الاتجاه وقرّر أنّ اللغة ينبغي أنْ تدرس في مرحلة خاصة أو في حالة (للغة)، أي أن تدرس في حالة استقرارها في بيئة مكانية وزمانية محددة.[٣] وهو ما اصطلح عليه في العصر الحاضر المنهج الوصفي.

ولعل من أهم الأفكار التي نادى بها (سوسير) هي:[٤]

(١) سموّ المنطوق على المكتوب (أي سمو اللغة المنطوقة على اللغة المكتوبة).

(٢) اللغة جزء من علم الإشارات (Semiology).

(٣)المنهج الوصفي (السنكروني) والمنهج التاريخي (الديكروني).

(٤) الدليل والدال والمدلول.

---

(١) الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، ص ٢٤، ٢٥ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٥ .

(٣) المرجع السابق، ص ٢٩ .

(٤) أنظر غازي، يوسف: مدخل إلى الألسنية، منشورات العالم العربي الجامعية، دمشق.ط١-١٩٨٥م،ص٩٩-١١٢.

(٥) التميز بين اللغة والكلام.

وحتى نستطيع الوقوف على موقف (سوسير) من السَماع فإنّه لا بُدَّ من معرفة ما الذي جعل من (سوسير) علامَة بارزة على مفترق الطرق، وما الذي جعل منه رائداً للمدرسة اللغوية الحديثة.

كانت القواعد التقليدية هي التي كانت سائدة ومنتشرة في أوربا حتى مطلع القرن الحالي؛ وذلك لأنّ معظم النظريات الحديثة وبخاصة في النصف الأول من القرن الحالي كانت ردود فعل لتلك القواعد. فما هي هذه القواعد، وما هي مميزاتها.

وقبل الإجابة على هذا السؤال علينا أنْ نفهم أنّ عبارة القواعد التقليدية التي يستعملها علماء اللغة الغربيون لا تُعبّر في الواقع عن منهج موحد استعمل في جميع العصور السابقة للقرن العشرين، بل ربّما تدلّ بشكل أصح على ذهنية معينه. فالقواعد التقليدية مزيج من المبادئ والأساليب التي ظهرت بأشكال مختلفة في عصور مختلفة، واستخدمتها مدارس لغوية متعددة. ففي القواعد التقليدية مثلاً آراء عن تركيب الجملة ترجع إلى أفلاطون وأرسطو، وفيها نظريات عن أجزاء الكلام، كما يوجد فيها فرضيات عن علاقة اللغة بالعقل كانت شائعة بين فلاسفة القرن السابع عشر، وفيها آراء عن اللغة الصحيحة أو الفصحى منحدرة من قواعد وضعت في القرن الثامن عشر في بريطانيا، وفيها دراسات عن تاريخ اللغة تعود إلى القرن التاسع عشر.(١)

ولكن ما الذي يُميّز تلك الدراسات ؟ يمكن إيجاز ذلك في أمرين: **الأوّل** يتعلق بمحتوى تلك القواعد، و**الثاني** يتعلق بطريقة العرض.(٢)

لقد كانت تلك القواعد مبنية على دراسة اللغة المكتوبة، وبخاصة لغة كبار الأدباء، والقدماء منهم بالذات. وهذا يعني أنّ تلك القواعد لم تكن تهتم باللغة المنطوقة التي كانت مستخدمة عند وضع القواعد والتي كانت تُعَدُّ مَسْخاً للغة الصحيحة، وبذلك تكون تحليلاً للغة لا يستعملها عامة الناس، ولا حتى المثقفون منهم. وثانياً: إنّ معايير الصحَّة والخطأ مفروضة على الناس الذين يستعملون اللغة فعلاً وليست نابعة من استعمالهم الفعلي لها. كما يعني ذلك أيضاً عدم العناية بالجوانب الصوتية للغة، وهي التي تؤلف جزءاً هاماً جداً من نظامها العام والتي لا تستطيع أية لغة مكتوبة أنْ تُعبّر عنها تعبيراً كاملاً. فلم يكن النظام الصوتي للغة جزءاً من كتب القواعد التقليدية، بينما هو الآن جزءٌ أساسي منها. ثم إنّ تلك القواعد كانت تركّز كثيراً على بعض النواحي اللغوية

---

(١) see D. Crystal: Linguistic, (Penguin, 1971, P. 40).

(٢) see: Eddy Roulet: Linguistic Theory, Linguistic Description and Language Teaching, (longman, 1973, pp. 5-17).

غير الهامة، بينما تهمل جوانب أخرى أكثر أهمية. وكانت تعطي الوزن الأكبر للصرف وتهمل النحو إلى حدٍّ كبير.

أمّا من ناحية العرض فإنّ أهم ما يعيب تلك القواعد أنّها[1] لم تتخذ معايير معينة تبقى ثابته عند بحث جميع الجوانب اللغوية، ولذلك فإنّها على الرغم من أنّها تشبه أحدث المدارس اللغوية المعاصرة من أنّها لم تُصوّر اللغة كمجموعة من القوانين أو القواعد؛ إلاّ أنّ طريقة الوصول إلى تلك القواعد لم تكن تعتمد على معايير واحدة دائماً، ولذلك فإنّ كثيراً من تلك القواعد ليست من النوع الذي يمكن الوثوق به والاعتماد عليه في جميع الحالات.

لقد اتخذت القواعد التقليدية للغات الحديثة قواعد اللغتين اليونانية واللاتينية نماذج لها، على الرغم من أنّ هاتين اللغتين لغتان إعرابيتان بينما معظم اللغات الحديثة ليست كذلك .. فشكل الاسم في اللغة الإنجليزية مثلاً لا يتغير إلاّ في حالة الإضافة فقط كما في التعبير (The Box Hat) بينما للاسم في اللغة اللاتينية ست حالات إعرابية مختلفة يتغير شكله في كل حالة منها. ومع ذلك فقد كانت كتب قواعد اللغة الإنجليزية التقليدية تعتمد تلك الحالات الست جميعاً.[2]

خلاصة القول أنّ القواعد التقليدية كانت موضوعة للغات لم تكن مستعملة فعلاً عند وضع تلك القواعد، ولذلك كانت معيارية لا وصفية، واتخذت لغة الكتابة المتوفرة في الكتب الأدبية والدينية مثلاً أعلى يُقاس به الصواب والخطأ، وأهملت الجانب الصوتي الهام من جوانب اللغة، ولم تُقدّم نظرية متكاملة للغة.

ولذلك فقد كان من الطبيعي أنْ يحين الوقت الذي يظهر فيه علماءُ لا يرضون عن هذا الوضع الذي استمر قروناً طويلة.. وكان سويسر أحد هؤلاء..

موقف سويسر من السَماع.

كان (سوسير) واحداً من العلماء الذين ابتعدوا عن النظر في اللغات من وجهة النظر التاريخية أو المقارنة، وأكّد أنّ أفضل منهج لدراسة اللغة هو أنْ نحاول وصفها كما هي في فترة زمنية محددة، وأنْ نصل من هذا الوصف إلى القواعد أو القوانين العامة التي تحكمها، أو نتوصل على الأقل إلى معرفة البنية أو التركيب الهيكلي لها. تماماً كما فعل اللغويون العرب عندما أرادوا دراسة اللغة من أجل وصفها، ووضع قوانين خاصة بها ولتحقيق ذلك وضعوا منهاجاً خاصاً قام على ركنين هامين هما:

---

[1] خرما، نايف: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، طبعة ١٩٧٨م، ص ١٠٤. وسيشار اليه فيما بعد بـ(خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة).

[2] المرجع السابق، ص ١٠٧ .

- **عنصر المكان:** حددوا قبائل من العرب مخصوصة، كان أبناؤها هم الذين عنهم نقلت اللغة العربية، وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب وعلى رأس تلك القبائل قريش..[1]

- **عنصر الزمان،** فقد قسّموا الشعراء إلى طبقات أربع من حيث الزمان هي: الجاهليون المخضرمون، الإسلاميون والمحدثون أوالمولدون،[2] وقرروا وجوب الاحتجاج بالطبقتين الأوليين، واختلفوا في الطبقة الثالثة أما الطبقة الرابعة فقد أجمعوا على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة العربي.[3]

لقد أكد (سوسير) على أهمية اللغة المسموعة (المنطوقة) أو لغة الحديث على أساس أنّها الأصل الأم للغة، وأنّ اللغة المكتوبة مظهر ثانوي، وأنّه على الرغم من أهمية هذا المظهر إلاّ أنّه ليس اللغة الفعلية التي يتعامل بها الناس فيما بينهم، كما أنّ اللغة المكتوبة تختلف اختلافاً كبيراً ومن جوانب عديدة عن لغة الحديث.

فإذا تذكرنا ما أشرت إليه قبل قليل من أنّ جميع كتب القواعد التقليدية في أوروبا كانت تتخذ اللغة المكتوبة معياراً للصحة والسلامة، وتبنى قواعدها على أساسها (وهذا ينطبق إلى حدٍّ كبير جداً على قواعد اللغة العربية حتى عصرنا هذا) استطعنا أنْ نرى كم كانت نظريات سوسير ثورية في الوقت الذي ظهرت فيه.

أمّا النظرية الهامة الأخرى التي طلع بها (سوسير) على العالم والتي كان لها أثر كبير في اتجاهات علماء اللغة في النصف الثاني من القرن الحالي فهي تميزه بين مظهرين للغة دعا أحدهما (Languange) وهو ما يمكن أن نترجمه بتعبير اللغة أو اللسان باللغة العربية ودعا الأخر (parole) وهو ما يمكن أن نسميه الكلام أو الحديث..

فالكلام هو تلك اللغة يستعملها الناس في المجتمع الواحد، وهذا يختلف طبعاً من شخص إلى آخر، ومن فئة إلى أخرى اختلافاً قليلاً أو كثيراً، ولكن يربط بينها جميعاً قواعد لغوية وسلوكية عامة تجعل منها لغة واحدة ومفهومه في المجتمع الواحد.[4]

أما اللغة فهي الظاهرة الاجتماعية الموحدة لمجتمع معين، والتي يمكن عن طريق دراسة النماذج الكلامية الصادرة عن أفراد ذلك المجتمع الاهتداء إلى القواعد أو العوامل المشتركة التي

---

[1] السيوطي: المزهر ج١، ص٢١١.

[2] القيرواني: العمدة، ج١، ص١١٣.

[3] السيوطي: الإقتراح: ص٢٧.

[4] أنظر خرْما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ١٩٧٨، ص١٠٨.

تجعل منها لغة مشتركة بين جميع أفراد المجتمع المذكور، فهي بهذا المفهوم النموذج المثالي الذي يُوجّه كلام الأفراد، والذين يحاولون أن يظلوا ضمن ضوابطه اللغوية أو السلوكية لكي يكونوا مفهومين من سواهم.[1]

إنّ (سوسير) يعتقد أنّ دراسة أيّ لغة ووضع القوانين الخاصة بها لا يمكن أنْ يتم بطريقة صحيحة إلاّ من خلال السماع اللغوي، أي سماع لغة الذين يتكلمون بها وبكافة فئاتهم، وفي جميع الميادين: في الشارع والحقل والمصنع وعن الأطفال والنساء.. والسّود والبيض.. ثم دراسة هذا المسموع وتحليله تحليلاً دقيقاً، ثم الخروج بالنتائج.. وهذه هي المدرسة التي تسود الآن في أمريكا...

واعتقدَ (سوسير) أنّه غير مسبوق بهذا العمل. ولما أُلّفت الكتب حول هذا الموضوع وظهر ما يسمى باللسانيات الحديثة عُدّ (سوسير) أبا اللسانيات وأنّ الفضل يعود أولاً وأخيراً إلى هذا الرجل الذي استطاع أن يلفت الانتباه إلى اللغة التي يتكلم بها الناس.. وأنّها هي الأكثر صدقاً وموضوعية في دراسة اللغة..

إنّني أعتقد أنّ علماء اللغة العرب كانوا أسبق من (سوسير) وغيره من علماء اللغة الغربيين في دراسة اللغة دراسة وصفية، فأية دراسة علمية لا بُدّ أنْ تقوم على مادة تصبح هي موضوع الملاحظة والتصنيف ثم التجريد والتعميم.. وفي الدراسة اللغوية نجد أنّ المادة اللغوية المنطوقة هي مادة البحث التي حدّدها علماء اللغة العرب، أو كما يقال اللغة المنطوقة، فالسّماع عند علماء العربية يؤكد أصالة مبدأ دراسة اللغة المنطوقة وسبقها على اللغة المكتوبة، وهو عكس ما سار فيه تطور الفكر اللغوي الغربي الذي بدأ بالنصوص المكتوبة لينتهي إلى اللغة المنطوقة أو المسموعة.

لقد اعتنى علماء البصرة بالسماع، وجمع المادة اللغوية عناية لا تقل عن اهتمام أهل الكوفة ولذلك كان معظم علماء اللغة منذ النصف الثاني من القرن الأول تقريباً سواء في البصرة أو الكوفة من الرواة.[2] وقد حرصوا جميعاً على توثيق المادة اللغوية سواء عند سماعها من مصدرها الأصلي، أو نقلاً عن هذا المصدر، ولذلك اشترطوا العدالة والضبط وغيْرها من شروط الجرح والتعديل عند رواة الحديث النبوي فيما ينقل عن المصدر الأصلي.

بالإضافة إلى ذلك فقد أخضعوا البيئة اللغوية لقواعد عامة اشترطوها قبل السماع، وتتلخص كما قلت قبل قليل في أمور منها الجنس، حيث اشترطوا أنْ تؤخذ اللغة عن عربي الأصل غير

---

[1] خرّمَا: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص١٠٨.

[2] أنظر السيرافي: أخبار النحويين البصريين، ص١٧، ٢٠، ٢٢، ٢٥، ٢٧، ٣٠.

مولد، واشترطوا المكان ومواصفاته وسط الجزيرة العربية وتشمل نجد والحجاز وتهامة واشترطوا الزمن وحددوه نهاية القرن الثاني الهجري في الحواضر ونهاية القرن الرابع في البوادي[1] ثم نقلوا عن الصبيان والمجهول والمجنون والمعتوه والنساء[2] وهذا إنْ دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ دراسة اللغة كانت وصفية ميدانية...

والذي أريد أنْ أخلص إليه في هذه الوقْفَة مع (سوسير) أنّه أي (سوسير) كان من المؤمنين بدراسة اللغة دراسة وصفية سماعية، تؤخذ من أفواه أصحابها مشافهة ثم يتم تمحيصها ودراستها دراسة علمية إلى أنْ يتم وضع قواعدها وقوانينها ونظامها.

إلاّ أنّ الفرق بين دراسة اللغة العربية دراسة وصفية سماعية ودراسة اللغة الأوروبية دراسة وصفية سماعية أنّ العناية التي وجدتها اللغة العربية، والضوابط التي وضعت لسامع اللغة ومسموعها وقواعد الجرح والتعديل لم تحْلُم بها لغة في الدنيا سوى اللغة العربية، وأنّ دراسة (سوسير) ليس ثورة وليس هو أبا اللسانيات لأنّ ما قام به لم يكن جديداً في الحياة اللغوية العربية، فقد سُبِق بالخليل بن أحمد وسيبويه، فالفضل كل الفضل لهما.. والغربيون الآن يقتاتون على مائدة الخليل وغيره من علماء اللغة العربية.

---

(1) السيوطي: الإقتراح، ص٥٦.

(2) أنظر خليل، حلمي: العربية وعلم اللغة البنيوي، دار المعرفة الجامعية، ص٣٣، ٣٤، ٣٥. وسيشار إليه فيما بعد بـ (خليل: العربية وعلم اللغة البنيوي).

٣- إبراهيم مصطفى. (١٣٨١هـ-١٩٦٣م)

عالم بالنحو، من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ابتدأ دراسته في الأزهر، وتخرج بدار العلوم، وعمل مدرساً فأستاذاً للأدب العربي في جامعة الإسكندرية، فعميداً لكلية دار العلوم. من مصنفاته: "إحياء النحو"، وشارك في تأليف عدة كتب، وفي تحقيق (سرّ صناعة الإعراب) لابن جني، و(إعراب القرآن) للزجاج[١] وحتى نتعرف على موقف إبراهيم مصطفى من السماع فلا بدّ من الإطلاع على كتابه "إحياء النحو" ففيه بغيتنا؛ حيث نشر آراءه فيه.

ظهر كتاب "إحياء النحو" عام ١٩٣٧م، وهو أوّل كتاب ظهر في العالم العربي في العصر الحديث هدفه نقد نظريات النحو التقليدية[٢] وقد أسرف صاحبنا في نقد النحاة وتخطئتهم. واتخذ لنفسه أسلوباً أشبه بأسلوب البحث العلمي الموضوعي، وهذا لم يكن مألوفاً في تلك الفترة، بالإضافة إلى مقدمة الكتاب التي كتبها (طه حسين)، ونوّه فيها بأهمية الكتاب وأثره. وقد أثار هذا الكتاب ضجة واسعة، وتناوله غير واحدٍ من الباحثين بالنقد والتحليل.[٣]

في بداية الكتاب (مقدمته) حدّد المؤلف هدفه من تأليف كتابه فقال: "أطمع أنْ أُغيّر منهج البحث النحوي للغة العربية، وأن أرفع عن المتعلمين إصرٌ هذا النحو، وأبدلهم منه أصولاً سهلة يسيرة تقربهم من العربية، وتهديهم إلى حظ من الفقه بأساليبها."[٤] أي أنه يَعُدّ قواعد اللغة العربية الموضوعة نتيجة الاستقراء القائم على السماع في فترة زمنية محددة وقبائل معينة صعبة.. وعليه فقد دعا في كتابه (إحياء النحو) إلى عدد من الإجراءات هي بمثابة إصلاحات وهي:

أولاً: ما دامت حركات الإعراب دوالٍ على معانٍ يقصدها المتكلم، وما دامت من عمل المتكلم فقد دعا المؤلف إلى إلغاء نظرية العامل من أساسها، وكذلك كل ما أقامه حولها النحاة من أصول فلسفية، وما رتّبوه عليها من أحكام أصابت النحو بالتعقيد والصعوبة.[٥]

وفي ظنّي أنّ إبراهيم مصطفى مُصيبٌ في دعوته هذه؛ لأنّ نظرية العامل -بالصورة التي نراها في كتب النحو- بناء فلسفي غريب عن واقع اللغة، وطبيعة نظامها. والعوامل التي شغل بها النحاة، واعتبروها أساس تحديد الموقع الإعرابي لمكونات الجملة ليست سوى واحد من عناصر متعددة .. تتظافر جميعاً على أداء تلك الوظيفة. فإعطاء العوامل قوّة اقتضاء الإعراب

---

(١) كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، ط١/ ١٤١٤هـ-١٩٩٣م/ ج١، ص٧٢.

(٢) ايوب، عبد الرحمن: دراسات في النحو العربي، القاهرة، ١٩٥٧م، ص/ج (هامش/١).

(٣) منهم: د.أحمد أحمد بدوي (الرسالة ١٩٣٧م)، والشيخ محمد محمد عرفة (النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة، القاهرة ١٩٣٧م)، والشيخ عبد المتعال الصعيدي: النحو الجديد، القاهرة ١٩٤٧م)، والشيخ محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، دمشق ١٩٦٠م.

(٤) مصطفى: إحياء النحو، القاهرة، ١٩٣٧م. المقدمة، ص(أ).

(٥) المرجع السابق، ص٢٩-٣٠.

مبالغة شديدة من جانب النحاة، وإغفال للقرائن الأخرى التي لا تقلّ أهمية في هذا العمل عن تلك العوامل.[1]

ولكن لتحقيق هذه الدعوة -أي الإلغاء- لا بدّ من بيان موقفين يستحقان النظر وهما:

١) إنّ الذي يستحق الإلغاء إنّما هو نظرية العامل ببنائها الفلسفي المألوف[2] أمّا ما أطلق عليه العوامل من أفعال ونحوها فهي وحدات وقرائن لها دورها كبقية الوحدات- في تحديد المعنى الوظيفي والموقع للمكونات الأخرى في التركيب اللغوي، وهي لذلك من صميم ذلك التركيب، ويجب أخذها في الاعتبار.

٢) إنّ ادّعاء إبراهيم مصطفى ومن قبله ابن مضاء-من أنّ المتكلم هو الذي يرفع وينصب تصوّر غير دقيق لطبيعة الإعراب، وأسباب وجوده[3] فالمتكلم الفرد لا يحدّد الحالة الإعرابية لكلمة ما، ولا العلاقة الدالة على ذلك، على أساس من اختياره الحرّ أو الشخصي، وإنّما "تبعاً لنظم اقتضاها العرف الاجتماعي للغة[4]" التي يتحدث بها. ونطقه للعلامة الإعرابية في تركيب ما لا يعني أنّه موجدها من الناحية اللغوية، وإن كان ذلك صحيحاً من الناحية العقلية. ولست أظن أنّ النحاة كانوا من السذاجة بحيث يعتقدون أنّ العوامل هي المحدث الحقيقي للعلاقات الإعرابية. وقد صرّح بعضهم بأنّ "مُحْدث هذه المعاني في كل اسم إنّما هو المتكلم. وكذلك مُحدث علاقاتها، ولكنه نسبت أحداث هذه العلاقات إلى اللفظ الذي بواسطته قامت هذه المعاني بالاسم[5]

وفي رأيي أنّ إبراهيم مصطفى رغم أنّه مسبوق بابن مضاء القرطبي إلاّ أنّ إعادة تسليط الضوء على نظرية العامل قد أفاد من ناحيتين هما:

أ- أنّه أبرز بوضوح أبعاد نظرية العامل وآثارها السيئة على النحو.

ب- أنّه حاول تقديم التفسير الصحيح للظواهر الإعرابية وعلاماتها ليكوّن بديلاً لنظرية العامل الملغاة.

ثانياً: مواضع أجاز فيها النحاة وجهين:

وتحت هذا الباب يدعو إبراهيم مصطفى إلى إلغاء أحد الوجهين المسموعين عن العرب حيث يقول: "الأصل الذي تقرّر.. لا يجوز أنْ يكون للكلام وجهان من الإعراب يلابس المتكلم

---

(١) أنظر حسّان: اللغة العربية مبناها ومعناها، القاهرة ١٩٧٣م، (١٨٥-١٨٦)، (ص٢٠٥-٢٠٧).

(٢) لخّص إبراهيم مصطفى أصول نظرية العامل وآثارها السيئة في النحو في كتابه ص(٢٣-٣٠).

(٣) ابن مضاء، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن: (ت٥٩٢هـ-١١٩٦م) الرد على النحاة، تح. د.شوقي ضيف، القاهرة ١٩٤٧، ص٨٧.

(٤) عيد، محمد: أصول النحو، القاهرة ١٩٧٣م، ص٢٧٥.

(٥) الاستراباذي، الشيخ رضي الدين محمد بن الحسن (٦٨٦هـ-١٢٨٧م) الكافية في النحو، عن النحو الجديد، عبد المتعال الصعيدي ص٦٢.

أيهما شاء، فمتى ثبت أنّ للحركة أثراً في تصوير المعنى تجتلب لتحقيقه لم يكن للمتكلم أنْ يعدل عن حركة إلى أخرى حتى يختلف المعنى الذي يقصد إلى تصويره؛ فيختلف الإعراب تبعاً له[1] والمباحث التي تقصد في هذا الموضوع هي:

اسم لا، ومعمولي ظنّ في حالتي الإلغاء والتعليق، والاشتغال، والمفعول معه.

لقد أطال المؤلف كثيراً في عرض آراء النحاة حول تلك الأبواب، وفي التحايل على تخريجها تخريجاً قال عنه: إنّه قائم على أساس المعنى. والحقّ أنّه لم يأت في أيّ من تلك الأبواب بشيء ذي قيمة، حيث بدأ يخلق مشكلة لا أساس لها. إذ قول النحاة ما لم يقولوا -وهو أنّهم يرون أنّ الوجهين في تلك الأبواب سواء يلابس المتكلم أيّهما شاء- ثم أجْهَد نفسه ليجعل هذه المشكلة المفتعلة بآراء تخيّرها من آراء النحاة أنفسهم. والحقّ أنّ النحاة "لا يعنون بجواز الأمرين. إلاّ أن لا مانع لفظياً من أن ترفع أو تنصب، فإذا كان معناك الذي تريده يجري على الرفع رفعت، وإذا كان يجري على النصب نصبت.[2] والأسباب التي يبديها النحاة لترجيح أحد الوجهين هي عند التحقيق تبنى على المعنى، وإنْ كانت صياغتها توحي بأنّها تستهدف الحفاظ على قواعد الإعراب. ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

جاء في الأشموني في باب المفعول معه:[3] والعطف إن يمكن بلا ضعف، من جهة المعنى، أو من جهة اللفظ، أحق وأرجح من النصب على المعيّة كما في "جاء زيد وعمرو"، والنصب على المعيّة مختار لدى ضعف النسق إما من جهة المعنى كما في قولهم: "لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها".

وأمّا من جهة اللفظ كما في نحو جئت وزيداً، (ويُعلّق الصبان قائلا): محل جواز الأمرين إذا قصد المتكلم مطلق النسبة. فإن قصد التنصيص على المعيّة وجب النصب، وإنْ قصد عدم التنصيص عليها وبقاء الاحتمال تعيّن الرفع." وهو تقريباً ما جاء به إبراهيم مصطفى في هذا الباب.

---

(1) مصطفى: إحياء النحو، ص١٢٩.

(2) عبد الوارث، سعيد: في إصلاح النحو. عن عبد المتعال الصعيدي. النحو الجديد، ص٧٥.

(3) الصبّان، أبو العرفان محمد بن علي (ت١٢٠٥هـ-١٧٩١م): حاشية الصبان على شرح الأشموني على الفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج٢، ص١٣٨، ١٣٩.

ثالثاً: أمّا الموضوع الثالث الذي دعا إبراهيم مصطفى إلى إلغائه هو التنوين..

فقد جاء المؤلف بقاعدة أقرّ بأنّها على غير ما وضع النحاة، بل على عكس ما وضعوه وهي: الأصل في العلم ألاّ ينوّن، ولك في كل علم ألاّ تنوّنه، وإنّما يجوز أنْ تلحقه التنوين إذا كان فيه معنى من معاني التنكير.[1]

وقد حاول إبراهيم مصطفى بكل ما أوتي من قوة وجهد لدعمها. وما ادّعاه من الصدق والإطراد تصادم واقع اللغة ونصوصها مصادمة ظاهرة،[2] فهناك مئات الشواهد في أوثق النصوص "تنتقض كل هذه الكليات البديعة نقضاً..." ومن الأمثلة على ذلك ما يلي: "**وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل**"[3] ، "**محمد رسول الله**"[4] ، "**لقد نصركم الله ببدر**"[5]، "**ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم**"[6] ، "**ولما قضى زيد منها وطراً**"[7] كل هذه الاعلام يمتنع فيها مثقال ذرة من التنكير لزمها التنوين لزوماً امتنع عدمه، ودعوى أنّ لك ألاّ تنونها وضعٌ لك ليس لأحد فيها حقّ على خلاف استعمال أهلها. وقد أجمعت الأمة والأئمة على لزوم التنوين."[8]

كذلك فإنّ العربية تفرّق في اللفظ بين المعرّف والمنكّر. فالنكرة توصف بالنكرة، ولا توصف بالمعرفة، والمعرفة توصف بالمعرفة، ولا توصف بالنكرة. والأعلام المنونة لا يجوز وصفها بالنكرة، وكذلك الأوصاف الممنوعة من التنوين، فلو كانت معرفة لما وصفت بها النكرة في قول الله تعالى: (**فعِدَّةٌ من أيامٍ أخر**)[9] ومما لا خلاف عليه أنّ جميع الأعلام المنونة لا يحرم أيّ منها من التنوين حتّى ولو "عُيّن تمام التعيين وامتنع أنْ يكون فيه معنى العموم" خلافاً لما ذهب إليه المؤلّف[10]

---

[1] مصطفى: إحياء النحو، ص١٧٩.

[2] أنظر المرجع السابق، ص١٧٤-١٨١.

[3] آل عمران آية ١٤٤ .

[4] الفتح آية ٢٩ .

[5] آل عمران آية ١٢٣ .

[6] التوبة آية ٢٥ .

[7] الأحزاب آية ٣٧ .

[8] عبد الوارث، سعيد: في إصلاح النحو، ص١٠٩ عن كتاب النقود على تفاصيل عقود، كتاب إحياء النحو، موسى جادالله، ص١٤.

[9] البقرة آية ١٨٤ .

[10] مصطفى: إحياء النحو. ص١٧٩.

٣- عبد الله عثمان العلايلي (ت١٤١٧هـ-١٩٩٦م)

هو عبد الله عثمان العلايلي، ولد في مدينة بيروت عام ١٩١٤م أيام الحرب العالمية الأولى، تلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة (الحرش) التي أسستها جمعية المقاصد الإسلامية ١٩١٧م. وبقي فيها حتى سنة ١٩٢٤م حيث سافر بعدها إلى مصر، وهناك تتلمذ على أيدي عدد من الأساتذة منهم أبو الفضل الجيزاوي (ت١٩٢٧م) الذي أصبح شيخ الأزهر فيما بعد، والشيخ السمروطي، والشيخ المرصفي (ت١٩٣١م) وشاكر (ت١٩٣٩م) والرجوي (ت١٩٤٦م) والشيخ محمد نجيب مفتي الديار المصرية آنذاك.[١]

كان من أهم مكونات ثقافته علوم اللغة والدين، التي تلقاها على يد أستاذه سيد علي المرصفي ، ولما عاد إلى لبنان بسبب الحملة الإيطالية الألمانية على مصر سنة ١٩٣٧م تتلمذ على يد عددٍ من الأساتذة منهم: عبد الرحمن سلام، ومصطفى الغلاييني.[٢] وخلال هذه الفترة استطاع أن يضيف إلى المكتبة العربية عدداً من المؤلفات منها: في قضايا العربية القومية ألّف (دستور العرب القومي)، و (تاريخ المجد العربي)، وفي مجال التاريخ ألّف (سمو المعنى في سمو الذات)، و (تاريخ الحسين نقد وتحليل)، و (أيام الحسين عرض وقصص)[٣] وفي مجال الدين ألّف (مقدمة التفسير)، و(الاقتصاد في الإسلام) و (الإسلام كمذهب أيديولوجي)[٤] وفي مجال النقد: (المعري ذلك المجهول)، وفي مجال الشعر ألّف (رحلة إلى الخلد)، وفي مجال القصة: (خديجة مثلهنّ الأعلى) وفي مجال اللغة: (مقدمة لدرس لغة العرب).[٥]

ولعل السبب الذي جعله يُقدم على تأليف كتابه الأخير (مقدمة لدرس لغة العرب) هو أنّه رأى المؤسسات الكبرى (المجامع) -التي من شأنها أن تنهض بالعربية نهضتها المرجوّة- تعلّقت بالقشور لا باللباب من ناحية، ومن ناحية أخرى كان طابعها طابع التحاور أكثر منه طابع التقرير الذي ينتهي إلى غاية وثمرة، وبعد تفحّص ما يؤدي إلى إخفاق هذه المؤسسات التي تضمّ نخبة لا تنكر فيمتها، وبعد أن طالع مجمع القاهرة الجماهير بطائفة من المقررات، كانت أشبه بالدوران في حلْقه مفرغة، تبيّن له أنّهم لم يدركوا السّر الحقيقي في نماء العربية القديمة، فأخذته الغيرة على اللغة، وأصدر هذا الكتاب (مقدمة..) ليدلّ المؤسسات على معالم الطريق.

---

(١) أنظر: علي، أسعد أحمد: تهذيب المقدمة اللغوية، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق ط٤/١٩٨٨م ص١٤.
وسيشار إليه فيما بعد بـ (العلايلي: مقدمة لدرس لغة العرب).

(٢) أنظر بيضون، أحمد: حوار مع الشيخ عبدالله العلايلي؛ مقابلة نشرت في مجلة الفكر العربي، العدد (٨،٩)، ط١٩٧٩م، ص١١٣.

(٣) علي: تهذيب المقدمة اللغوية، ص١٦.

(٤) المرجع السابق، ص١٧.

(٥) المرجع السابق، ص١٨.

والغريب أنّ عمره -عندما صدر هذا الكتاب- كان ثلاثة وعشرين عاماً.[1]

أهمية كتابه (مقدمة لدرس لغة العرب).

تأتي أهمية كتاب العلايلي من أنّه يُعَدّ محاولة جريئة للثورة على الأنظمة والقوانين التي وضعها علماء العربية في القرن الثاني الهجري وما تلاه. فالعلايلي يَعْذُر علماء العربية الأوائل الذين عدُّوا القواعد في لغة العرب بمثابة المنطق في الفلسفة، كلاهما قانون ثابت: ذاك اللسان، وهذا العقل. ويعذر العلايلي علماء اللغة؛ لأنهم شعروا شعوراً باطناً أنّ القواعد التي وضعوها -والتي كانت نتيجة استقراء مصادر السّماع المذكورة سابقاً- هي السياج الذي يحول بين العربية والعجمة التي كادت تغزو لغة العرب، وتذهب بريحها. وإذن يكون المذهب القديم في اللغة ضرورة اقتضتها حالات اجتماعية وسياسية واقتصادية قامت في تلك الأزمان، هذا فضلاً عن أنّ لغة العرب -وهذه حدودها- قد وسعت العلوم والمعارف التي ذاعت إذ ذاك ولم تقصر عن التعبير عن شيء منها، فلم يشعر أهل اللغة بحاجة إلى التوسع في أقيستها توسعاً يلائم حاجات قامت في عصرهم قياماً فعلياً.[2]

إلى جانب هذا المذهب ظهر مذهب آخر يقول:[3] بأنّ ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب فإذا سمعنا من العرب قولهم خنّوس للأسد، وقسنا عليه أسماء الحيوانات تعيش في الأشجار وقلنا لواحدها شجُوْر فذلك من كلام العرب، وإذا سمعنا من العرب لفظة كوسج وقلنا شوجر فذلك من كلام العرب. غير أنّ انتشار العجمة في ذلك العهد وكثرة الموالي والدخلاء جعل الغلبة للمذهب الأول (السّماع)؛ ذلك أنّ العربي كان يعتز بلغته اعتزازه بقوميته، فلجأ إلى الأمن من السُبل احتفاظاً بتراثه اللغوي أن يُسْتَهدف لأذواق لم تصقلها السليقة العربية.

كما تأتي أهمية الكتاب من أنّ العلايلي عدّ اللغة كالجسم الحي، يولد ثم ينمو ثم يتوالد.. واللغة حيّ يموت كما تموت جميع الأحياء، إذا امتنع عليه النماء وتعذّر عليه التوالد، وللغة كل خصائص الأحياء مع قياس الفارق. فإذا لم يكن في اللغة القدرة على التغذّي بعناصر جديدة وتمثيل تلك العناصر تمثيلاً يُحوّلها جزءاً من أصل بنيتها، فإنّ اللغة تموت كما يموت الحيّ إذا فقدت القدرة على هذه الأشياء[4]

فأهمية الكتاب تأتي من أنّه ينبذ السّماع مذهب الصلابة والتقيُّد، ويدعو إلى القياس مذهب التوسع والسّماحة. وبهذا نستطيع القول إنّ العلايلي أوّل من يرسل الصيحة الأولى في العصر

---

[1] أنظر بيضون: حوار مع الشيخ عبد الله العلايلي، مجلة الفكر العربي، ص١١٢، ١١٣ .

[2] العلايلي، عبدالله عثمان: مقدمة لدرس لغة العرب، المطبعة العصرية-مصر ص(د).

[3] المصدر السابق/ (د).

[4] المصدر السابق/ (د،هـ).

الحديث لقيام مذهب التوسع في اللغة. أي أنّه ينهج نهج ابن جني القائل "**بـأنّ كـل مـا قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب**".[1]

وحتى نستطيع الوقوف على موقف (العلايلي) من السّماع لابُدّ من معرفة مضمون كتابه (مقدمة لدرس لغة العرب)-

يتكون هذا الكتاب -مصدر دراستنا- من مقدمة تقع في ثلاثة أقسام: تناول في القسم الأوّل[2] متفرقات لا يجمع بينها إلاّ ملابسات الموضوع الواحد مثال ذلك: اللغة غاية لا وسيلة، العربية واللغات، والخط، الإملاء، البيان ... الخ وفي القسم الثاني[3] تحدث عن تاريخ النشوء اللغوي وتطور اللهجة، وانتهى إلى فرض أنّ الجدول الهجائي بأصواته هو لغة الإنسان القديم، وأنّ نشوء العربية كان أحادياً فثنائياً فثلاثياً، وتحقيق أنّ العربية انتقلت من دور كانت فيه صوتيه تماماً على أدوار متعاقبة، وأنّ القرآن تناولها ولما تستقر؛ فكان سبباً قوياً في تهيئة استقرارها، وبقي يشوبها علائق الفوضى في الموازين، وصيغ المجموع وأبواب الأفعال.

وفي القسم الثالث[4] يتحدث العلايلي عن السّماع؛ حيث يبدأه بذكر السؤال الموجه إلى أبي عمرو بن العلاء عن ما لو سمع من العرب شيء مخالف لعلمه. فقال: "**أسمي ما وافقني قياساً، وما خالفني لغات**". ويعزو (العلايلي) إلى أنّ هذا السؤال هو الذي دفع أبو عمرو بن العلاء ومدرسته إلى أخذ العربية بهذا النوع من التقييد، والضرب من التحكم. ويضيف إلى أنّ أبا عمرو بن العلاء عدّ السّماع أقرب سبيل إلى ضبط العربية، حين يخفى ما يمكن أنْ يكون علّة جامعة.

ثم يذكر الأسباب التي جعلت علماء اللغة المتأخرين يتمسكون بالسماع، حيث أجملها في خمس نقاط هي:-[5]

١- أنّه (أي السماع) أقرب طريق للحصر والشرح.

٢- تشبعهم بنظرية التوقيف في اللغات.

٣- الخوف على سلامة اللغة. أي إحاطتها دون أن تعبث بها الأهواء، وتنال بالفوضى حتى تبعد بها عن صبغتها الأولى.

٤-خدمة البيان القرآني في اعتقادهم. فإنّهم ذهبوا مع الظن بأنّ إطلاق القياس في العربية يبعد بها عن لغة القرآن.[6]

---

[1] العلايلي، عبدالله عثمان: مقدمة لدرس لغة العرب/ (هـ،و).

[2] أنظر المصدر السابق، ١٥-١١٥ .

[3] أنظر المصدر السابق، ص١٢٥-١٧٩ .

[4] أنظر المصدر السابق، ص١٩٧ وما بعدها .

[5] المصدر السابق، ص١٩٧، ١٩٨ .

[6] المصدر السابق، ص١٩٨ .

٥- الأنانية العلمية أو الأرستقراطية العلمية، فإنّ أهل الاختصاص من اللغويين إذا تسامحوا بالقياس لم يَعُدْ لهم المقام السامي الذي يتمتعون به، مما جعلهم يتشددون بالسماع إذا كان السبب الوحيد الذي يحفظ لهم هذه الرعاية المهددة إذا أباحوا للناس القياس.[١]

هذه الأسباب التي يعتقد (العلايلي) أنّها وراء اعتداد اللغويين بالسماع، لكنه يشير إلى أنّ هذا الاعتداد هو اعتداد منكر وممجوج. ويتابع قوله إلى أنّ هذا الاعتداد أدّى إلى تقييد العربية على الوجه الذي نشكو منه ونتألم له. وأدّى إلى الجمود والتحجُّر والالتواء المطلق.

ويشير (العلايلي) إلى أنّ التمسك بالسّماع مهّد إلى العبث بالكذب والاختلاق وأنّ أكبر ما حمل اللغوي على الاختلاق هو السّماع. فكان إذا وضح له شيء من أسرار العربية يجد نفسه مضطراً ليثق الناس بما انتهى إليه، وليسمع عنه ما يقول، أنْ يدّرع بشاهد أو بشواهد، وربما بقصيده أو بقصائد.[٢] ودليله على ذلك أنّ هذه الشواهد لا تحفظ في الغالب الكثير إلاّ شطراً أو شطرين، ولو طلبت للشطر آخر وللبيت مثلا لأعياك الطلب، كأنّ الشطر لُقطة الطريق، والبيت بيضة العقْر. والذي يدعو إليه العلايلي هو الإباحة للواضع على قانون العربية في أشيائها النادرة.[٣]

ومجمل الحديث في هذا الموضوع أنّ (العلايلي) يرى أنّ صعوبة تعلم قواعد اللغة مردُّه إلى السّماع. ولتسهيل تعلُّم اللغة لا بُدّ من الإجراءات التالية:[٤]

أولا: حذف السّماع من اللغة إلاّ على المعنى الذي أقرّه في بحث (السّماع) من المقدمة وهو الإباحة للواضع على قانون العربية في أشيائها النادرة. وبذلك تخلص العربية من علائق الفوضى في أفعالها. ونقرّها على بابٍ واحدٍ هو باب ضرب يضرب. كما يتم تناول القواعد على النحو الذي يجب أن تكون عليه جرياً مع معقول العربي في لغته في قواعد الإعلال... وفي كل ما يتفرع عن بحث الأفعال ثلاثية وغير ثلاثية من اشتقاق وغيره.

ثانياً: السماح بصوغ موازين الثلاثي برمتها من أي ثلاثي كان، وكذلك موازين الرباعي؛ لأن التزايد المستمر في اللغات السامية يخضع لقانون الاشتقاق أي الموازين، أو قل التحرك من الداخل.. كما قرّر علم اللغة المقارن، ولأنّ العربية غنيّة في موازينها التي تبلغ الثلاثمائة للثلاثي الواحد، كما أثبتها سيبويه في كتابه النحوي "الكتاب"[٥]

---

[١] العلايلي، عبدالله عثمان: مقدمة لدرس لغة العرب، ص١٩٨ .

[٢] المصدر السابق، ص١٩٨ .

[٣] أنظر المصدر السابق، ص١٩٨ .

[٤] المصدر السابق، ص٨.

[٥] المصدر السابق، ص٨.

ثالثاً: السماح في توحيد معاني المشتقات جميعها للمادة الواحدة، على شكل أن نتوسل بورود المرجاس من رجس بمعنى مقياس الماء، إلى أن نشتق من رجس بمعنى مقياس الماء. وليس في هذا خروج على مذهب الوضع العربي، فإنّ العرب قالوا: (رجس الماء بالمرجاس) قاسه، وقدّره. وعليه فقد اكتسبت مادة الأصل من معنى الفرع بالتخصيص.[1]

نخلص مما تقدم إلى القول أنّ (العلايلي) عدّ السّماع رمز الجمود اللغوي والصلابة، وأنّ كل ما في اللغة من صعوبة وتعقيد سببه الأول والأخير السّماع، وأنّه لا بدّ من اعتماد التوسع في اللغة، والثورة على القيود التي لابستها مع كرّ السنين وتلاحق الأيام، ليقابل به حاجات هذا العصر ومتطلباته العلمية والفنية والأدبيّة والاقتصادية والاجتماعية.

وإنّني أعتقد أنّ أفكار عبد الله العلايلي لم تأتِ من فراغ، بل جاءت نتيجة تأثره بمدرسة الكوفة التي كانت تقول بالقياس، بدليل أنّ أفكار العلايلي التي نشرها في كتابه (مقدمة لدرس لغة العرب) وجدت من المؤيدين الكثير كـ (الأدب انستاس الكرملي، وإبراهيم مصطفى، وعبد الغني حسن، وسلامة موسى، ومارون عبود، وميخائيل نعيمة، وسعيد عقل وغيرهم.[2]

وكل هؤلاء -في ظني كانوا يقفون إلى جانب مدرسة الكوفة التي تقول بالقياس، إضافة إلى ذلك فقد قال كثير منهم -وفي حدود ما اطّلعت عليه- بضرورة نفض الثوب القديم عن اللغة العربية والخروج عن تلك القواعد التي وضعها اللغويون القدماء. وقد أحيطت قواعدهم بهالة من القداسة "حتى ليخيل للمرء أنّ المساس بها تهجماً على حرفتها، وانتهاكاً لقداستها."[3] متناسين أنّ ما وضعه علماء العربية هو سور حصين للمحافظة على العربية، وحمايتها من اللحن والفساد، وانقضاض اللغات الأُخَر عليها.

وتبقى ثورة عبد الله العلايلي على السّماع مجرد صَيْحَة هدفُها الإصلاح -إصلاح النحو العربي-.

---

[1] العلايلي، عبدالله عثمان: مقدمة لدرس لغة العرب، ص٨.

[2] أنظر فواز، حكمت كشلي: الشيخ عبد الله العلايلي ومعجماته اللغوية، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١ ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، ص٢٣.

[3] العلايلي: مقدمة لدرس لغة العرب، ص"ب".

ثالثاً: أثر السَّماع في تقعيد اللغة.

إنّ الدارس لقواعد اللغة -سواء كان هذا الدارس كبيراً أو صغيراً- يلحظ صعوبة في استيعاب هذه القواعد، وضبطها، وحبّها. وسؤالنا هنا هل هذا الجفاف وتلك الصعوبة مردّهما إلى تمسّك أهل اللغة بالسّماع كأصل أمْ من أصول التقعيد أم أنّ هناك أسباباً أخرى مسؤولة عن هذه الصعوبة..

١) إنّني أعتقد أنّ السّماع قد أسهم إسهاماً -لا بأس به- في الصعوبة التي نلحظها واضحة في قواعد اللغة.. ودليلنا على ذلك الخلاف الذي وقع بين نحاة البصرة والكوفة حول تحديد الزمن الذي لا يجوز لهم تجاوزه من حيث الاحتجاج اللغوي. وكان سنة (١٥٠هـ) بالنسبة للبصريين، ونهاية القرن الرابع بالنسبة للكوفيين. ومع هذا التحديد فقد أهملوا عِظم امتداد هذه الفترة التي تبدأ في سنٍ مبكرةٍ من العصر الجاهلي، والتطور الذي أصاب اللغة عبر هذه الفترة الزمنية الطويلة، فقد تطورت اللغة شأنها في ذلك شأن سائر اللغات، فأصبح للكثير من المفردات أكثرُ من مدلولٍ، مما أثار خلافات في الرأي حول ما وضع لهذه المفردات من قواعد، وأحكام عند وضع أصول النحو.

ويشير الدكتور محمد خير الحلواني إلى هذه المسألة بقوله: "وانصراف النحاة عن العامل الزمني في السّماع كان سبباً من أسباب الخلاف التي أسهمت في صعوبة التقعيد؛ فقد حمل التطور اللغوي في الحقبة التي سبقت الدراسات النحوية صيغاً وكلمات تحجّرت مع الزمن، زالت منها أصوات، وأضيفت إليها أخرى، كأسماء الأفعال، وأسماء الأصوات، والأفعال الجامدة مثل: نعم، وبئس، وحبّذا، وليس."[١] ثم يذكر الحلواني أنّ هذه الكلمات أثارت -بسبب ما أصابها من تطوّر- جدلاً بين النحاة.[٢] فذهب بعضهم إلى أنّها أسماء وذهب آخرون إلى أنّها أفعال كما في حبّذا، ووجد فريق ثالث (ليس) حرفاً، ورآه غيره فعلاً ناقصاً."

مما تقدم يتبيّن أنّ التحديد الزمني لعصر السّماع قد أدّى إلى مرور كثير من مفردات اللغة في أكثر من طور، فكان لذلك أثر في اختلاف النظر إلى هذه المفردات، وبالتالي أثرٌ في تقعيد قواعد اللغة وبالنتيجة تعقيد قواعد اللغة.

ويظهر هذا بجلاء في "دون" فقد كان أحد الطورين اللذين مرّت بهما هذه الكلمة أنها استخدمت ظرفاً، وفي الطور الآخر استخدمت اسم فعل أمر بمعنى "خذ"، وهذا يعني أنّها أخذت وظيفتين نحويتين تتحددان وتتمايزان حسب القرائن وسياق الاستعمال.[٣]

---

[١] الحلواني: الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف، دار القلم العربي بحلب، ص٦٥.

[٢] المرجع السابق، ص٦٦.

[٣] موسى، نهاد: في تاريخ العربية، عمان، الجامعة الأردنية/١٩٧٦م، ص٢١٣

لكن النحاة لم يلتفتوا إلى مسألة تعدُّد الأطوار عند النظر فيما يتعلّق بهذه الكلمة من أحكام. فقد ذهب الكسائي (١٨٩هـ) والكوفيون إلى جواز تقديم معمول اسم الفعل عليه، مُستدلين بقول الراجز:[١]

يا أيُّها المائحُ دلوي دونكا إنّي رأيتُ الناسَ يحمدونكا
يُثنونَ خيراً ويُمَجِّدونكا

وقد استندوا في ذلك إلى أنّ "دون" اسم فعل بمعنى خذ، ودلوين مفعول به مُقدَّم لاسم الفعل، وذهب البصريون إلى أنّ "دون" ظرف، وتقدير ذلك عندهم: هذا دلوي دونكا، أو خذ دلوي دونكا، فنفوا بذلك أنْ يكون في الرجز السابق دليل على تقديم معمول اسم الفعل عليه.[٢]

ولو استشعر الكوفيون والكسائي استخدام "دون" ظرفاً، عند النظر في الرجز المشار إليه، لتفادوا الخلاف مع البصريين حول هذه المسألة.[٣]

ومسألة تعدّد الأطوار مسألة يتفق فيها أكثر الباحثين وهم على صواب في ما يذهبون إليه، ودليل ذلك أنّ هناك كلمات استخدمت بمضمون مُعيَّن قبل مجيء الإسلام.

٢) أشار كثير من الباحثين إلى فصاحة لغة البادية مصدر السّماع؛ لوقوعها في وسط جزيرة العرب وبعدها عن التأثر باللغات الأجنبية؛ وفي الوقت ذاته، أشار هؤلاء الباحثون إلى عدم فصاحة لغة الحواضر، والأطراف[٤] بسبب اختلاط أهلها بأناس ليسوا عرباً؛ وعندما شرع النحاة في وضع النحو، أخذوا هذا البعد في الحسبان، فقصروا سماع اللغة وأخذها وتسجيلها على قبائل البادية التي كانت تقطن في وسط الجزيرة؛ لأصالة لغاتها، وبعدها عن التأثيرات الأجنبية؛ فكانت القبائل التي سُمعت منها نصوص العربية هي: **قيس وتميم وأسد ثم هذيل، وبعض كنانة وبعض الطائيين.**[٥]

وعلى الرغم من فصاحة النصوص اللغوية المأخوذة عن هذه القبائل، إلاّ أنها كشفت عن اختلاف في لهجاتها.[٦] وعند وضع أصول علم النحو، اجتهد النحاة في وضع تفسيرات لهذا الاختلاف، نشأ عنها خلافات في الرأي ما زالت ماثلة فيما بين أيدينا من مصادر نحوية كثيرة.

---

[١] الأنباري: أسرار العربية، تح.فخر صالح قداره، دار الجيل-بيروت، ص١٥٧.

[٢] الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف، تح.محمد محي الدين عبد الحميد ج١، ص٢٣٤،٢٣٥.

[٣] يرجّح الدكتور نهاد الموسى ما ذهب إليه البصريون؛ إذ لا يُعقل أن يخاطب المائح بأسلوب الأمر، ثم يثني عليه هذا الثناء العظيم، ويغلب في ظنّه انّ العبارة إشعار للمائح بأنّ الدلو دونه. والمائح هو الرجل الذي يكون في جوف البئر يملأ الدلاء. (نهاد الموسى، في تاريخ العربية، ص٢١٤،٢١٥).

[٤] ابن جني: الخصائص، ج٢، ص٢٩.

[٥] السيوطي: المزهر، ج١، ص٢١١.

[٦] الحلواني: الخلاف النحوي، ص٦٥ وكذلك، حسن: اللغة والنحو، ص٦٣،٦٤.

٣) لم يكن هدف اللغويين والنحاة العرب في عصر التدوين وصف اللغة العربية بالمعنى الذي يفهمه علم اللغة الحديث وإنّما كان هدفهم "أنْ يجمّدوا اللغة العربية في مرحلة اختاروها من بين مراحل تطورها التاريخي بحيث يحتفظون لها بكل خصائصها في تلك المرحلة.[١] وذلك لتظل كما هي في تلك المرحلة -ممثلة للغة القرآن- وبالتالي طريقاً مأموناً ومعبداً أمام المسلمين يوصلهم إلى فهم كتابهم الكريم، ولعلّ في ارتباطهم بهذا الهدف الذي انفردت به العربية من دون اللغات ما يبرر وجود تلك الشوائب التي شابت منهجهم.

٤) إنّ اقتصار سماع اللغة عن القبائل الست أدى إلى أنْ يجري النحويون في أثر اللغويين، وانتزعوا القواعد مما جمعه هؤلاء. فجاءت قواعدهم قاصرة مضطربة؛ لانتزاعها من تلك اللغات المتنوعة ومن بعض القبائل دون بعض، فإذا استنبطوا القاعدة من تلك اللغات المختلفة المقصورة على هذه القبائل القليلة صدموا بأمثلة تخالف أحكامهم فلا يجدون بُدّاً من أن يتأولوها، أو يصفوها بالقلّة أو بالشذوذ أو نحو ذلك من أسماء تدل في عرفهم -بغير حق- على أنّها مما لا ينصح القياس عليه مهملين التحديد الدقيق للمراد من كل اسم.[٢]

٥) يرى بعض الباحثين أنّ السّماع الذي كانت نتيجته تقعيد اللغة الفصحى هو المسؤول عن هذا التعقيد، وهذه الصعوبة التي نراها ماثلة في اللغة؛ وذلك بسبب بعدها عن اللهجات الدارجة بعداً كبيراً.. ونحن نتساءل: هل من الضروري أن نتمسك بجميع تلك القواعد التي وضعها أو دوّنها اللغويون منذ قرون عديدة؟ وهل يتحتم علينا أن نصرف قُوانا في سبيل نشر وتعميم جميع تلك القواعد والأساليب؟ ألا يمكن أن نبسّط اللغة ونهذّبها تهذيباً معقولاً، يكسبها شيئاً من السهولة، ويقترح هذا الباحث لتسهيل هذه القواعد بضرورة البحث عن الحدود الفاصلة بين الفصحى والعامية وبيان تلك الفروق لمعالجتها...[٣]

٦) إنّ عدم الدقة في تحديد دور الإمكانات الصوتية، وعادات النطق عندْ المتكلم، ثم مدى حساسية أذن السامع في سماعها للأصوات اللغوية أثره في اضطراب التحليل النحوي للمسموع.[٤] ولعل من أوضح الأمثلة التي تؤيد ما ذهب إليه أبو المكارم ما قرره العلماء من جواز عمل (لم) النصب، استناداً إلى ما زعموه من وجود قراءة تنطق قوله تعالى: "**ألم نشرح لك صدرك**"[٥] بفتح (الحاء) في (نشرح) منسوبة إلى أبي جعفر المنصور.

---

[١] أنظر بدوي، السعيد محمد: مستويات العربية المعاصرة في مصر، دار المعارف، القاهرة/١٩٧٣، ص٣٨.

[٢] حسن: اللغة والنحو بين القديم والحديث، ص٦٤.

[٣] أنظر مجلة اللسان العربي عدد ١٣/ط١٩٧٦م، ص٣٢،٣٣.

[٤] أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، ص٢٣.

[٥] المرجع السابق، ص٢٣.

ويعلّق الدكتور أبو المكارم على هذه القراءة بقوله: "ومن المرجّح أنّ هذه ليست قراءة مستقلة؛ إذ يبدو أنّ الذين سمعوا أبا جعفر المنصور لم يفطنوا إلى حقيقة نطقه، فهو لم يفتح الحاء، وإنّما أسرف حين "بيّن الحاء وأشبعها في مخرجها فظنّ السامع أنّه فتحها".[1]

وهكذا أسلمت العادات الصوتية ثم عدم حساسية السامع إلى إضافة ظواهر عارضة في النص اللغوي، لم يفطن إلى عدم أصالتها النحاة، فتصوروا صحتها، ومن ثم لم يكن بُدٌّ من مراعاتها في التقعيد. ومن ثم لجأوا إلى أحد موقفين: فإمّا حصر الظاهرة في نطاق لهجة خاصة كما فعل اللحياني[2]، وإمّا تأويلها بما يتفق مع اللغة العامة دون اعتبارها لهجة خاصة كما فعل جمهور النحاة.[3]

ولعلّ من أهم الآثار التي تركها السّماع في تقعيد اللغة الصعوبة التي جعلت دارسي اللغة ينفرون منها، وأدّت إلى وجود اضطراب في فكر هؤلاء الدارسين .. ومن الأمثلة على ذلك ما جاء تحت باب (لا) حيث جعل النحاة للاسم بعد (لا) أنواعاً من الإعراب:

(أ) يجعلونها عاملة عمل ليس[4]، فيرفع بعدها الاسم وينصب الخبر، ويروون لذلك قول الشاعر:

مَن صدَّ عن نيرانها فأنا ابن قيسٍ لا براحُ

وقول الآخر:

تَعزَّ فلا شيءٌ على الأرض باقياً ولا وزرٌ مما قضى اللهُ باقيا.

(ب) ويجعلونها عاملة عمل "إنّ" فينصب الاسم بعدها غير مُنَّون ويرفع الخبر[5] ولذلك أمثلة كثيرة مثل: "**ذلك الكتاب لا ريب فيه**"[6] و "**لا تثريب عليكم**"[7] و "**لا عاصمَ اليومَ من أمر الله إلاّ من رحِمَ**"[8].

---

(1) أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، ص٢٣.

(2) أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، ص ٢٤ عن همع الهوامع، ج٢ ص ٥٦ .

(3) المرجع السابق، ص ٢٤، عن مغني اللبيب، ج١ ص ٣٧٧ .

(4) النجار، محمد عبدالعزيز: ضياء السالك إلى أوضح المسالك، مطبعة السعادة، ط٢-١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، ج١ ص ٢٧٥، ٢٧٦ .

(5) المصدر السابق، ج١ ص ٣٥١ .

(6) البقرة آية ٢ .

(7) يوسف آية ٩٢ .

(8) هود آية ٤٣ .

(جـ) ويجعلونها مهملة فيُرفع بعدها المبتدأ والخبر مثل: "**لاخوف عليهم ولا هم يحزنون**"[1] ويجيزون في نحو "**لاحول ولا قوة إلاّ بالله**"[2] خمسة أوجه من الإعراب ويطيلون في توجيه كل إعراب منها.

وعند البحث في محاولة معرفة الفرق بين ما تعمل عمل ليس، فيرفع الاسم بعدها، وما تعمل عمل إنّ فينصب بعدها لتميز مواضع الرفع عن مواضع النصب وجدناهم يقولون: إنّ الأولى تنفي الواحد، فنفيها محدود خاص؛ نقول: "لا رجلٌ في الدار بل رجلان." والثانية تنفي الجنس فنقول: "لا رجل في الدار." فلا يصح أن تعقّب بعده بمثل بل رجلان فيتضارب أول الكلام وآخره.

هذه -في ظني- الأوجه الكثيرة والتفريعات والشروح وتحميل النحو أكثر مما يحتمل قد أسهم إسهاماً كبيراً في تعقيد النحو في أذهان دارسيه. فماذا لو اتفق النحاة واللغويون على رأي واحدٍ مُوحّد.

إضافة إلى ذلك فليس هناك ما يثبت إعمال (لا) عمل ليس سوى شاهدين: "**تعزّ فلا شيءٌ على الأرض باقيا**". وقول الآخر: ..."**فأنا ابن قيس لا براح**" وحول هذا قال أبو حيان: "إنّه لم يرد من إعمال (لا) عمل ليس صريحاً إلاّ ببيت واحدٍ وهو "تعزّ فلا شيءٌ على الأرض باقيا" وقد أنكر الأخفش هذا العمل، واتبعه الإمام الرضي، وجعله ابن الحاجب سماعاً، ونصّ ابن هشام على أنّه خاص في الشعر.

وهذا الخليل بن أحمد الفراهيدي لا يكتفي بوجه واحدٍ من وجوه الإعراب، بل كان يعرض في المثال الواحد كل الوجوه الممكنة، من ذلك أنّه كان يجوّز في نحو ذلك قوله: "**رجعت عودي على بدئي**" أن تعرب (عودي) حالاً، وأن تعرب مفعولاً به لرجعت[3] وأجاز في نحو قولنا: هو رجلٌ صدق معلوماً بذلك، أن تنصب معلوماً على الحالية، وأن ترفعها على أنّها خبر مقدم لـ(ذاك).[4]

كما أجاز في نحو قولنا: "إنّ أفضلهم كان زيد" أن تعرب "أفضلهم" خبراً لكان مقدماً، ويكون إسم إنّ -وهو ضمير الشأن- محذوفاً والتقدير: إنّه كان أفضلهم زيد، وأن تعرب اسماً لأنّ، ويكون خبر كان محذوفاً، والتقدير إنّ افضلهم كان زيد.[5]

---

[1] البقرة آية ٣٨ .

[2] النجار، محمد عبدالعزيز: ضياء السالك إلى أوضح المسالك، ج١ ص٣٨٧.

[3] أنظر سيبويه: الكتاب، ج٢ ص ٢٧٦-٢٨٦ .

[4] المصدر السابق، ج٢ ص ٩٢ .

[5] المصدر السابق، ج٢ ص ١٥٣ .

٧ :- لعل من أهم الآثار التي كانت ثمرة من ثمار السماع هي وضع قواعد للغة. فإذا أردت أن تدرس لهجة لم توضع لها قواعد من قبل فيتوجب عليك أنْ تجمع مادة لغويّة من تلك اللهجة لتستنبط أحكامها وقواعدها بناءً على ما تلحظه من مظاهر لغوية، فإذا وجدت أنّ الفاعل أو المتكلَّم عنه في الجملة يرد دوماً بحالة الرفع، مثل: قام زيدٌ، وزيدٌ رجلٌ كريمٌ، فإنّك تُقعّد، أي تضع قاعدة تقول: الفاعل مرفوع، والمتكلَّم عنه مرفوع.(١)

وهكذا فعل القدماء من النحويين: جمعوا اللغة، واستقروا النصوص، وهي نص القرآن الكريم على اختلاف القراءات إذا صحّ السند، وإذا كان لها وجه من وجوه العربية وكلام العرب الخُلَّص.

ولعلّ من المآخذ التي أُخذت على السّماع أن القدماء لم يَصْدُروا عن خِطّة محكمة، بل كان بعضهم يستشهد حسب هواه. ثم إنّهم لم يحققوا أحياناً في أمانة الرواة، أضف إلى هذا حبّ الغريب في اللغة، والنادر فيها، مما أتعب أهل العربية وهذا ولّد نتيجة خطيرة وهي الحكم على اللغة بعدم النمو والجمود ... فالسّماع أو الاحتجاج بالقديم فقط يحد من خاصية التوليد ومن الارتجال والإبداع في اللغة، فقد كان بعض القدامى يستنكف أن يحتج بعربية من أتى بعد العصر الأموي، وفي هذا إجحاف وتزمت.(٢)

ولا بُدّ من الإشارة إلى أنّ من عمل في جمع اللغة من اللغويين. ومن أسهم من قدامى النحويين قد نظر إلى اللغة العربية نظرة فلسفية، وكانوا في ذلك -حسب رأي أنيس فريحه- متأثرين بنظرة أرسطو الفلسفية إلى اللغة ولكن ليس مباشرة، لأنّهم لم يكونوا قد عرفوا أرسطو عندما بدأوا بوضع صرح النحو، فقد تأثروا بالسريان الذين وضعوا أحكام لغتهم على نمط الإغريق ..(٣)

وكان أرسطو يقول: "إنّ اللغة الإغريقية لغة منطقية تعكس الكون المنطقيّ، هذا الكون يتألف -بحسب نظرية أرسطو- من ذات (أي من مادة) ومن فعل أو حركة، ومن أداة تربط بينهما، كذلك اللغة، فإنّ موادّها الأوّلية تتألف من ذرات وهي (الأسماء) ومن أفعال وتمثل الحركة ومن أدوات وقد سمّاها الكوفيون فعلاً أدوات. أمّا أهل البصرة فسمّوها حروفاً.

لقد انسحب هذا التقسيم الفلسفي على اللغة. فالطلبة في المرحلة الابتدائية يجدون صعوبةً في التمييز بين الكلمات: خبز، هذا، أين، ما الموصولة، جميل على أنّها جميعاً من صنفٍ واحدٍ، ولكن المنهج الوصفي قد قسّمها تسهيلاً وتوضيحاً إلى أسماء وصفات وضمائر.(٤)

---

(١) فريحه: نظريات في اللغة، ص ٧٩ .

(٢) المرجع السابق، ص ٧٩، ٨٠ .

(٣) المرجع السابق، ص ٨٤، ٨٥ .

(٤) المرجع السابق، ص ٨٥ .

وفي ظني أنّ هذا المنهج يُسَهّل كثيراً على دارسي اللغة سواء كانوا صغاراً أو كباراً. ولنضرب على ذلك مثالاً على ما أورده الدكتور تمام حسان في كتاب (اللغة: مبناها ومعناها) حول أسماء الأفعال[1] ... فقد أطلق د. تمام اسم الخوالف، وهي كلمات تستعمل في أساليب إفصاحيّة، أي في الأساليب التي تستعمل للكشف عن موقف انفعالي ما والإفصاح عنه .. فهي من حيث استعمالها قريبة الشبه بما يسمونه في اللغة الانجليزية (Exclamation). وهذه الكلمات ذات أربعة أنواع..

١- خالفة الإخالة ويسميها النحويون (اسم الفعل) ويقسمونها اعتباطاً ودون سند من المبنى أو المعنى إلى اسم فعل ماض كهيهات واسم مضارع كـ(وي)، واسم فعل أمر كـ(صه).

٢- خالفة الصوت ويسميها النحاة (اسم الصوت). ولا يقوم دليل على اسميّتها لا من حيث المبنى ولا من حيث المعنى.

٣- خالفة التعجب ويسميها النحاة صيغة التعجب وليس هناك من دليل على فعليتها.

٤- خالفة المدح أو الذم ويسميها النحاة (فعلي المدح والذم) ولكنهم اختلفوا حول المعنى التقسيمي لهاتين الخالفتين. قرأها بعضهم أفعالاً، ورآها آخرون أسماء.

---

[1] أنظر حسان: اللغة مبناها ومعناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة-١٩٨٥، ص ١١٣،١١٤،١١٥.

الخاتمة.

يُعَدُّ السَّماع الطريق الصحيحة إلى فهم خصائص اللغة، والتوصُّل إلى كشف أسرارها. فهو أهم وسيلة في الثقافة اللغوية؛ ولهذا فهو ركن مهمٌّ من أركان النحو، وقد بدئ به قبل القياس والإجماع واستصحاب الحال؛ إذ كيف نقيس على ما لم يُسْمَع، وقد أولاه البصريون عناية فائقة؛ لأنَّه أقرب سبيل إلى ضبط العربية.

وقد تناول الباحث في بحثه هذا، ومن خلال الفصول السابقة أهم الموضوعات التي يمكن أن تبحث تحت هذا العنوان السابق "السَّماع اللغوي". وقد خلص الباحث إلى عددٍ من النتائج منها:

- كان الدور الذي قام به الرواة -كالفراء، وأبي عبيدة، وأبي زيد الأنصاري، والأصمعي- كبيراً جداً، إذ على أكتافهم قام السَّماع، فقد رحل معظمهم إلى البوادي، وساروا آلاف الأميال حتى وصلوا إلى القبائل العربية التي لم يتسرب اللحن إلى لغتها، وأقاموا بينهم، وسمعوا لغتهم مشافهة، وسجَّلوا في دفاترهم. ثم عادوا إلى بلادهم، حيث الاستقراء والدراسة ثم ثمرة جهادهم مؤلفات أنارت الطريق أمام الآخرين ..

- أعتقد أن صاحب وثيقة الفارابي ليس أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفيلسوف وذلك لأن الكتاب الذي وردت فيه الوثيقة غير موجود، ولم يشر إليه سوى واحدٍ من العلماء. فإن قال قائل إنَّ روح هذه الوثيقة موجود في كتاب الحروف، نردُّ عليه بأنَّ أبا حيان الأندلسي، والسيوطي وغيرهما قد أشاروا إلى أنَّ الوثيقة وقعت في أول كتاب الألفاظ والحروف، وروح الوثيقة موجود في نهاية الكتاب تقريباً؛ إضافة إلى ذلك هناك خلط في عدد القبائل التي أخذت منها اللغة، وعدم الإشارة إلى القبائل التي كانت تسكن الأطراف -تلك التي أشار إليها أبو حيان الأندلسي_ وهذا يعني أنَّ الوثيقة ليست من صنع الفارابي وإنَّما هي من صنع أحد اللغويين ..

- أعتقد أن قريشاً ليست أفصح القبائل العربية، وإنَّما هناك قبائل أفصح منها، ونظراً لمكانة قريش في الجاهلية والإسلام، ولشهرتها الدينية، وقوتها السياسة وأنَّها تُعَدُّ من جمرات العرب، ومنها خرج نبي الأمة محمد ﷺ قيل ذلك تجوزاً.

- أخطأ اللغويون عندما أخذوا عن قبائل دون أُخرى، فلو أخذوا عن كل القبائل العربية، واعتمدوا الضوابط التي وضعها المحدّثون، وأخذها اللغويون وامتحنوا من خلالها ناقل اللغة، لجاءَنا الشيءُ الكثير، ولربما لم يكن حال اللغة كما هي عليه، ولعل ما في القواعد العربية من كثرة للآراء والتأويل سببه فساد المقياس الذي سار عليه اللغويون، وأنا أتساءَل كيف يؤخذ عن نصف

القبيلة ويترك النصف الآخر، وكيف نُمَيِّز بين النصفين ؟! أو كيف نضبط هذين النصفين مع وجود علاقات اجتماعية ونسب ومصاهرة ؟... الخ

– إنّ الضوابط التي وضعها المحدّثون –وتأثر بها اللغويون، وقاموا بأخذها واعتمادها وتطبيقها على السامع والمسموع– إنْ دلت على شيء، فإنّما تدل على أنّ اللغة العربية قد لقيت من العناية ما لم تلقه أيّةُ لغة في الدنيا، وهذا مؤشر على أنّ ما وصل إلينا من لغة، وضوابط لغوية كان غاية في الدّقّة، وأنّه لا مجال لغامزٍ أو مفترٍ على هذه اللغة، وأنّ كل الذين يحاولون الإساءة إلى اللغة، وأنّها عاجزة عن مواكبة التطور العلمي ما هم إلاّ حاقدون على هذه الأمة.

– إنّ السماعَ مصدرٌ مهمٌ جداً؛ ونظراً لأهميته فقد وقف أبو عمرو بن العلاء موقف الحذر منه والغاية من ذلك حتى تكون المادة المسموعة نقية صافية. ووقف الخليل وسيبويه موقف الآخذ بعناية، فقد وضع الخليل ما يسمى بتذوق الحروف وعن الخليل أخذ سيبويه هذه الطريقة في وصف الأصوات.

– لقد سبق علماءُ اللغةِ العربُ لغويي الغرب المحدثين في معالجة السماع من جانب الصوت. فالدراسات اللسانية التي قامت في الغرب عند سوسير وغيره ليست جديدة، إنما هي صدى لدراسات الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه، فالمحدثون من الغربيين لم يأتوا بجديدٍ، وإنّما الجديد الذي جاء به سوسير –كما أرى– هو إحياء تلك الدراسات اللسانية التي تنبّه إليها علماء اللغة العرب حديثاً، بينما أعاد سوسير إحياءَها حوالي سنة ١٩١٣م يوم كان عالمنا العربي يغط في نوم عميق ..

– أعتقد أنّ الذي وراء التمسك بالسّماع ما هو إلاّ نظرية التوقيف تماماً كما رأينا هذه القضية في القرآن الكريم بخصوص رسمه، إذ هل يجوز أنْ يكتب القرآن كما نكتب اليومَ .. فالمسألة ليست بتلك السهولة؛ حيث شدّد علماءُ الأمة على أنّ هذا لا يجوز، إذ لو سمح به لحدث ما لم يكن في الحسبان؛ إذ يخرج علينا في كل عام من يريد أن يُبدّل أو يُغَيّر مما يؤدي إلى ضياع هيبة هذا الكتاب العظيم. فلقد نظر اللغويون إلى أنّ تلك اللغة ما هي إلاّ وقف من الله تعالى. فيجب المحافظة عليها، وعليه قام العلماء بجمعها ودراستها ...

وخلاصة القول أنّ السماع موضوع ممتع ودقيق ولكن مياهه عميقة ومساحته واسعة والإحاطة به –في تصوري– دونها خرط القتاد.

ملخّص الدراسة.

عالجت هذه الدراسة موضوع السّماع اللغوي. هذا الموضوع الذي يُعَدُّ من أهم الأصول التي تثْبُتُ بها اللغة، ومع أهميته فقد مرّ به العلماءُ مروراً سريعاً، ولم يتوقفوا عنده طويلاً؛ ربما بسبب انشغال العلماء بالأصول الأخرى التي انبثقت عنه وهي القياس والإجماع، واستصحاب الحال.

وقد خصّص الباحث الفصل الأوّل من دراسته للحديث عن مفهوم السماع ونشأته؛ حيث تحدّث في هذا الفصل عن مفهوم السماع، والأسباب التي أدّت إلى نشأته، كما بيّن أثر فشوّ اللحن في النشأة، ودور الرواة في نشأة هذا الموضوع.

أما الفصل الثاني فقد تناول وثيقة أبي نصر الفارابي في سماع اللغة؛ حيث بيّن حقيقة شخصية أبي نصر، وحقيقة كتاب (الألفاظ والحروف) مصدر الوثيقة. ثم تحدّث عن فصاحة قريش. وبَيّن أنّها ليست هي الأفصح، بل هناك ما هو أفصح منها، ولكن ونظراً لتوفّر عددٍ من العوامل التي لم تتوفر لغيرها، فقد عُدّت الأفصح. كما أشارت الدراسة إلى القبائل الست التي سمعت منها اللغة، والقبائل الأخرى التي استبعدت من السّماع. وخُتِم هذا الفصل ببيان أثر الوثيقة في علماء اللغة والنحو والأدب.

وعالج الباحث في الفصل الثالث مصادر السّماع الثلاثة: القرآن الكريم، والحديث النبوي، وكلام العرب شعرهم ونثرهم. وبيّن أن علماء اللغة أجمعوا على الاحتجاج بما ورد في القرآن الكريم. بينما أشار بعضهم إلى القراءات القرآنية، ووقفوا منها مواقف متباينة تماماً كما وقفوا من الحديث النبوي الشريف، من حيث الاعتماد عليه في التقعيد أو لا. أمّا كلام العرب فقد أُخذ على علاّته واحتُج به.

وفي الفصل الرابع عَرَض الباحث فيه طرائق السماع، وضوابط السامع والمسموع، وعلاقتها كلها بعلم الحديث؛ حيث بيّن طرائق السّماع التي عن طريقها نقلت اللغة، ووقف على الضوابط التي وضعت لناقل اللغة، كما وقف على الضوابط التي وضعت لمسموع اللغة. وختم هذا الفصل ببيان أثر علماء الحديث بعلماء اللغة.

وفي الفصل الخامس والأخير بيّن الباحث موقف القدماء والمحدثين من السماع، وأثر هذا السماع في تقعيد اللغة؛ حيث بيّن موقف كل من أبي عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه من السماع، وفي المقابل بيّن موقف المحدثين. فعرض لموقف فردينان دي سوسير، وإبراهيم مصطفى، وعبدالله العلايلي. ثم ختم بحثه ببيان أثر السماع في تقعيد اللغة.

ABSTRACT

-BACHTOUR OF ARTS / ARABIC LANGUAGE
YARMOUK UNIVERSITY. 1989
-DIPLOMA IN ARABIC METHODOLOGY.
YARMOUK UNIVERSITY. 1980

By:
ALI AHMAD AL-OBADI AL-FREIH

Supervisor:
Dr. SALMAN AL-QUDAH

The study has discussed the "verbal Listening" which is considered to be one of the most remarkable subjects. Dispite its importance, many scholars ignored it or dealt with it superficially.

The researcher has talked about the Listening concept and its origins in the first chapter where he has distinghished between the Listening concept and arration. He has also mentioned the reasons which cansed the formation of the concept and the effects of in for in it. Then he has explained the role of the narrators in the enactment of the concept.

The second chapter has been especially assigned for discussing Abu-Naser Al-Farabis document. That is, the researcher has illustrated the real

personality of Abu-Naser Al-Farabi and the reality of the book of the pronoun citations and prepositions which is believed to be the source of the document.

The researcher talked about Quraish fluency acknowledged in the document not to mention the other six tribes-the source of the Language. The researcher didn't ignore the other tribes which were discarded from being heard to by ancient scholars. Then he finalized by elucidating the effect of the document on the Language scholars and then contrasting the Language scholars and then contrasting it with that of I Ben-Kaledon's

In the third chapter, the researcher has examined the three sources of the Listening concept: Holy Koran, prophetic tradition and the prose and poetry of the Arab. He demonstrated that the Holy is agreed upon by all the Language scholars. Some and Prophetic traditions while some of the rejected the third source-the prose and poetry of the Arab.

In the fourth Chapter, the researcher proposes the modes of Listening, the hearer's regulations as well the audible and its relation with the science of the prophetic traditions. He mentioned the means by which the Language has been transmitted. He concentrated on the rules with which the hearer must be familiar. He focused on the regulations which were imposed on the audible. He concluded the chapter by clarifying the influence of Al-Hadieth scholars on the Language scholars.

The final chapter has been assigned to examining the old scholars view point by contrasting it with that of the modernists. This has been done by demonstrating its the effects of the verbal Listening on forming the grammar of the Language. He claryfied the view points of Abi Amr Ben Al-Ala'a Al-Kaleel Ben Ahmed and seebaiwih, on the other hand he demonstrated the view points of the, odernists from the concept. He exposed the stand point of Abdullah AL-Alaily, Ibraheem Mustafa and Ferdinan De swisser.

أولاً: المصادر والمراجع والدوريات

(أ) المصادر العربية المطبوعة،

(ب) المراجع العربية المطبوعة،،

(ج) المراجع الأجنبية المطبوعة،،،

(د) الدوريات العربية المطبوعة،،،،

ثانياً: الفهارس الفنية

(أ) فهرس الأحاديث النبوية الشريفة،،

(ب) فهرس الأعلام،

(ج) فهرس الأمكنة،،،

(د) فهرس الشواهد الشعرية،،،،

(هـ) فهرس الشواهد القرآنية الكريمة،،،،،

(و) فهرس القبائل،،،،،،

(ز) فهرس الكتب،،،،،،

(أ) المصادر العربية المطبوعة

• الآمدي، سيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي بن محمد (ت٦٣١هـ-١٢٣٤م)

١. الإحكام في أصول الأحكام، مطبعة المعارف-القاهرة. (د. ت).

• الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة المجاشعي (ت٢١٥هـ-٨٣١م).

٢. معاني القرآن، تح. د.فائز فارس، (د. ن). (د. ت).

•ابن الأشعث السجستاني الأزدي، أبي داود سليمان (ت٢٧٥هـ-٨٨٧م).

٣. سنن أبي داود، تح.محمد محي الدين عبد الحميد، نشر دار إحياء السنة النبوية. (د.ت)

•الأزهري، الشيخ خالد.

٤. التصريح على التوضيح، دار إحياء الكتب العربية، (د. ت).

•الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد (ت٣٧٠هـ-٩٨١م).

٥. تهذيب اللغة، تح.عبد السلام محمد هارون ومراجعة محمد علي النجار، المؤسسة المصرية للتأليف/١٩٦٤م.

•الأصبغ السلمي، عرّام. (القرن الثالث)

٦. كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها، تح. عبد السلام هارون، مطبعة أمين عبد الرحمن القاهرة/١٣٧٣هـ.

•الأصفهاني، أبو علي الحسن بن عبد الله.

٧. بلاد العرب، تح.حمد الجاسر وصالح العلي. الرياض/١٩٦٨م.

•الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ-٩٦٧م).

٨. الأغاني-طبعة ساسي. (د.م). (د. ت).

•ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت٦٦٨هـ-١٢٧٠م)

٩. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الفكر-بيروت (د. ت).

•الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن كمال الدين بن محمد (ت٥٧٧هـ-١١٨٢م).

١٠. لمع الأدلة في أصول النحو، تح.سعيد الأفغاني، دار الفكر، دمشق، ط٢/ ١٩٧١م.

١١. نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح. د.عطية عامر، ستكهولم، نشر مكتبة الأندلس، بغداد ١٩٦٣م، و تح. د.إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس، ط٢/ ١٩٧٠م.

١٢. الإنصاف في مسائل الخلاف، تح.محمد محي الدين عبد الحميد د.ت

١٣. أسرار العربية، تح. فخر صالح قداره، دار الجيل، بيروت

•ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم (ت٣٢٨هـ-٩٣٩م).

١٤. الأضداد تح. أبو الفضل إبراهيم مطبعة المكتبة العصرية، -صيدا- بيروت/١٩٨٧م.

♦البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبد الطائي (ت٢٨٤هـ-٨٩٧م)
١٥. ديوان البحتري، تح. حسن كامل الصيرفي، دار المعارف- مصر/١٩٦٤م.
♦بروكلمان، كارل.
١٦. تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية د.عبد الحليم النجار، دار المعارف ط٥ د.ت.
♦البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت١٠٩٣هـ-١٦٨٢م).
١٧. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح.عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر-القاهرة،١٩٧٩م.
♦البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت٤٨٧هـ-١٠٩٤م).
١٨. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تح.مصطفى السقا، عالم الكتب-بيروت (د. ت).
♦الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ-٨٦٩م).
١٩. البيان والتبيين، تح.عبد السلام محمد هارون، دار الجيل-بيروت/١٩٩٠م. والهيئة المصرية العامة للكتاب/١٩٧٧م..
٢٠. الحيوان، تح.عبد السلام محمد هارون، دار المعارف-القاهرة/١٩٧٦م.
٢١. رسائل الجاحظ، تح. وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي-القاهرة/١٩٦٥م.
♦الجرجاني، علي بن عبد العزيز (ت٣٦٦هـ-٩٧٧م).
٢٢. الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي. ط١٩٦٦م.
♦ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (٨٣٣هـ-١٤٣٠م)
٢٣. النشر في القراءات العشر، تصحيح ومراجعة علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية-بيروت لبنان. (د. ت.)
♦الجمحي، محمد بن سلام (ت٢٣١هـ-٨٤٦م).
٢٤. طبقات فحول الشعراء، تح.محمود شاكر، مطبعة المدني-القاهرة (د.ت).
♦ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت٣٩٢هـ-١٠٠١م).
٢٥. الخصائص، تح.محمد علي النّجار، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان/١٩٥٢م.
٢٦. اللمع في النحو، تح. د.فائز فارس، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط٢/١٤١١هـ-١٩٩٠م.
♦الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ (ت٤٠٥هـ-١٠١٤م).
٢٧. المدخل في علم الحديث، تح.جيمس ربسول/١٣٧٢هـ-١٩٥٣م.
♦ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت٤٥٦هـ-١٠٦٤م).

٢٨. جمهرة أنساب العرب، تح.عبد السلام محمد هارون، دار المعارف-القاهرة/١٩٦٢م.
♦ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل (ت٣٦٧هـ-٩٧٧م).
٢٩. صورة الأرض، دار مكتبة الحياة-بيروت. (د. ت).
♦أبو حيان، أثير الدين محمد بن يوسف (ت٧٤٥هـ-١٣٤٤م).
٣٠. البحر المحيط، تح.عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية-بيروت (د. ت).
♦أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف الغرناطي (ت٧٤٥هـ-١٣٤٤م)
٣١. تذكرة النحاة، تح. د.عفيف عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة- ط١/١٩٨٦م.
٣٢. ارتشاف الضرب من لسان العرب، تح. د.أحمد مصطفى النمّاس- ط١/١٩٨٤م.
♦ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت٣٧٠هـ-٩٨١م).
٣٣. مختصر شواذ القرآن، تح. برجستراسر. (د. ت).
♦الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد (ت٤٦٣هـ-١٠٧٠م).
٣٤. تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتاب العربي-بيروت/١٩٣١م.
٣٥. الكفاية في علم الرواية،مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية،حيد أباد-الركن/١٣٥٧هـ.خلدون
♦ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ-١٤٠٥م).
٣٦. المقدمة، دار الكتاب العربي-بيروت، ودار إحياء التراث العربي-بيروت (د.ت).
♦ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ-١٢٨٢م).
٣٧. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. إحسان عبّاس، دار صادر، ودار بيروت (١٩٦٩م-١٩٧٢م).
♦ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت٣٢١هـ-٩٣٣م)
٣٨. جمهرة اللغة-الهند/١٣٤٥هـ.
♦الدماميطي، أحمد بن محمد بن أحمد.
٣٩. إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، نشر عبد الحميد أحمد حنفي، القاهرة،١٣٥٩هـ.
♦ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ-١٣٤٧م)
٤٠. ميزان الاعتدال في نقد الرجال طبعة الخانجي ١٣٢٥هـ.
♦الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن عبدالله الإشبيلي (ت٣٧٩هـ-٩٨٩م).
٤١. لحن العوام، تح.عبد العزيز مطر-الكويت/١٩٦٨.
٤٢. طبقات النحويين واللغويين، تح.محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٢/١٩٧٣.

♦الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق (ت٣٣٧هـ-٩٤٩م).
٤٣. الإيضاح في علل النحو، تح.مازن المبارك، دار النفائس، ط٤/١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
٤٤. الأمالي، تح.عبد السلام محمد هارون، ط١/١٣٨٢هـ.
♦ الزجاج، أبو اسحق إبراهيم بن السري بن سهل (ت٣١١هـ-٩٢٣م).
٤٥. إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج، تح.إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية-القاهرة/١٩٦٣م.
♦الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت٧٩٤هـ-١٣٩٢م)
٤٦. البرهان في علوم القرآن، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية-ط١/١٩٥٧م
♦الزمخشري، جاد الله محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ-١١٤٣م)
٤٧. الفائق في غريب الحديث، تح. أبو الفضل إبراهيم والبجاوي-القاهرة/١٩٧١م.
♦أبو زيد الأنصاري، سعيد بن أوس (ت٢١٥هـ-٨٣٠م).
٤٨. النوادر في اللغة، تح. ودراسة محمد عبد القادر أحمد، منشورات جامعة الفاتح، (د.م) ط١. (د. ت).
♦السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢هـ-١٤٩٧م)
٤٩. فتح المغيث شرح ألفيه الحديث العراقي، طباعة الهند. (د. ت).
♦السراج، أبو بكر محمد بن سهل (ت٣١٦هـ-٩٢٨م)
٥٠. الأصول في النحو، تح. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة. ط١/١٩٨٥م.
♦ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الأزهري (ت٢٣٠هـ-٨٤٥م)
٥١. كتاب الطبقات الكبرى، بريل، ليدن-١٣٢٢هـ.
♦ابن السكيت، يعقوب بن اسحق (ت٢٤٤هـ-٨٥٨م).
٥٢. إصلاح المنطق، تح.أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف-مصر.ط٣ (د. ت).
♦سيبويه، ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ-٧٩٧م).
٥٣. الكتاب، تح.وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية-بيروت، نشر مكتبة الخانجي القاهرة، ط٣/١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.سيرا
♦السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله (ت٣٦٨هـ-٩٧٩م).
٥٤. أخبار النحويين البصريين، تح.محمد إبراهيم البناء، دار الاعتصام- (د.م) ط١/١٩٨٥م.
♦السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ-١٥٠٥م).

٥٥. الاقتراح في علم أصول النحو، تـح.أحمد سليم الحمصـي وزميلـه، ط١/١٩٨٨، طبعـة دار المعارف بحلب-سوريا د.ت

٥٦. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح.محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة عيسى الحلبي-القاهرة، ط١/١٩٦٥م

٥٧. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح.محمد جاد المولى وزميله، دار الفكر د.ت.

٥٨. الإتقان في علوم القرآن، تح.محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث-القاهرة ١٩٦٧م.

٥٩. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تح.عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، د.ت.

٦٠. همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية، تح.عبد العـال سـالم مكـرم، دار البحـوث العلمية-الكويت ١٩٧٩.

♦الشافعي، محمد بن ادريس (ت٢٠٤هـ-٨٢٠م).

٦١. الرسالة، تح.أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي-مصر. ط١/١٩٤٠م.

♦الصبّان، أبو العرفان محمد بن علي.

٦٢. حاشية الصبّان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار إحياء الكتـب العربيـة مطبعـة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

♦الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ-١٣٩٢م).

٦٣. الوافي بالوفيات، باعتناء يوسف فان أس. ط٢/١٩٨٢م.

♦ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن (ت٦٤٣هـ-١٢٤٦م).

٦٤. مقدمـة ابـن الصـلاح فـي علـوم الحديـث، تـح.نـور الديـن عـتر، منشـورات دار الحكمـة-دمشق/١٩٧٢م. والمكتبة العلمية بالمدينة المنورة، ١٩٦٦م.

♦الصيمري، أبو محمد عبد الله بن علي (من نحاة القرن الرابع).

٦٥. التبصرة والتذكرة، تح. د. فتحي أحمد مصطفى علي، دار الفكر-دمشق. ط١/١٩٨٢.

♦طاهر الجزائري، طاهر بن صالح بن أحمد الجزائري الدمشقي.

٦٦. توجيه النظر إلى أصول الأثر، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة (د. ت).

♦الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ-٩٢٣م).

٦٧. تاريخ الرسل والملوك، تح.محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف. د.م/١٩٥٧م.

٦٨. تفسير الطبري، دار المعارف-مصر. (د. ت).

♦الطنطاوي، محمد.

٦٩. نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، تعليق عبد العظيم الشناوي وزميله ط٢ (د.ت).

♦أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي (٣٥١هـ-٩٦٢م).

٧٠. مراتب النحويين، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي (د.م(ط٢/١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.
♦ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت٣٢٧هـ-٩٣٨م).
٧١. العقد الفريد، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/١٩٤٠م. وطبعة الاستقامة (د. ت).
♦أبو عبيده، مُعمَّر بن المثنى (ت٢٠٩هـ-٨٢٤م).
٧٢. مجاز القرآن- تح.محمد فؤاد سزكين، مطبعة السعادة، مصر، (د.ت)
♦العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر (ت٨٥٢هـ-١٤٤٨م).
٧٣. فتح الباري بشرح البخاري-بولاق ١٣٠١هـ.
٧٤. شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، تح.محمد عوض ومحمد غياث الصبّاغ، مكتبة الغزالي-دمشق ومؤسسة مناهل العرفان-بيروت. ط٢/١٩٩٠م.
٧٥. تهذيب التهذيب، نشر دار صادر-بيروت وطبعة الهند/١٣٢٥هـ.

♦العكبري، أبو البقاء عبدالله بن الحسين (ت٦١٦هـ-١٢١٩م).
٧٦. إعراب الحديث النبوي، تح. د. حسن الشاعر، وزارة الثقافة والشباب/١٩٨١م.
♦العلايلي، عبد الله عثمان (١٤١٧هـ-١٩٩٦م).
٧٧. مقدمة لدرس لغة العرب، المطبعة العصرية-مصر. د.ت
♦القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى (ت٥٤٤هـ-١١٥٠م).
٧٨. الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، تح.السيد أحمد صقر، دار التراث-القاهرة، ط١/١٩٧٠م.
♦الفارابي، أبو إبراهيم اسحق بن إبراهيم (ت٣٥٠هـ-٩٦١م).
٧٩. ديوان الأدب، تح. أحمد مختار عمر ومراجعة إبراهيم أنيس-القاهرة/١٩٧٤م.
♦الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفيلسوف (ت٣٣٩هـ-٩٥١م).
٨٠. الحروف، تح.مهدي محسن، دار المشرق-بيروت/١٩٧٠م.
٨١. الألفاظ المستعملة في المنطق/ تح.محسن مهدي (د. ت).
♦ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (٣٩٠هـ-١٠٠٠م)
٨٢. مقاييس اللغة، تح. عبد السلام هارون، مطبعة الحلبي-القاهرة. ط٢/١٩٦٩م.
٨٣. الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها. تح.عمر فاروق الطباع. مكتبة المعارف. بيروت (د. ت) ومطبعة مصطفى الشويمي-بيروت/١٩٦٤م.
♦الفارسي، أبو علي النحوي (ت٣٧٧هـ-٩٨٨م).

٨٤. المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات، دراسة وتحقيق صلاح الدين السّكاوي مطبعة العاني-بغداد/١٩٨٣م.
♦الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله (ت٢٠٧هـ-٨٢٢م).
٨٥. معاني القرآن،تح.أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، دار السرور، بيروت-لبنان. (د.ت).
♦ابن قتيبه، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت٢٧٦هـ-٨٩٠م)
٨٦. أدب الكاتب، تح. علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان. ط١/١٩٨٨م.
٨٧. غريب الحديث، تح.عبد الهادي الجبوري، مطبعة العاني، بغداد. ط١/١٩٧٧م.
٨٨. الشعر والشعراء، تح. أحمد محمد شاكر، دار المعارف-مصر.ط١٩٦٦م
♦القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب (ت٢٣٠هـ-٨٤٤م)
٨٩. جمهرة أشعار العرب-بيروت/١٣٨٣هـ-١٩٦٣م.

♦القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ-١٢٤٨م).
٩٠. إنباه الرواة على إنباه النحاة، تح.محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية-القاهرة/١٩٥٥م.
♦القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت٨٢١هـ-١٤١٨م).
٩١. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح.إبراهيم الأبياري-القاهرةم١٩٥٩م.
٩٢. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة للكتاب-القاهرة. (د. ت).
♦القيرواني، الحسن بن علي بن رشيق (ت٤٥٦هـ-١٠٦٤م).
٩٣. العمدة في صناعة الشعر ونقده، تح.محمد محي الدين عبد الحميد-بيروت/١٩٧٢م.
♦ابن كثير، عماد الدين اسماعيل بن الشيخ (ت٧٧٤هـ-١٣٧٣م).
٩٤. الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، دار الكتب العلمية-بيروت ط٤/١٩٩٤م.
♦المبرد، محمد بن يزيد (ت٢٥٨هـ-٨٩٨م).
٩٥. الكامل في اللغة والأدب، تح.محمد أبو الفضل إبراهيم ورفيقه، مطبعة نهضة مصر-القاهرة (د. ت).
٩٦. المقتضب، تح.محمد عبد الخالق عضيمة-القاهرة/١٩٦٨م.
♦ابن مجاهد، أبو بكر أحمد بن موسى (ت٣٢٤هـ-٩٣٦م)
٩٧. كتاب السبعة في القراءات-القاهرة (د. ت).

♦المقدسي، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري (٣٨٧هـ٩٩٧م).
٩٨. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. بريل-ليدن. ط٢/١٩٦٧م.

♦المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران (ت٣٨٤هـ-٩٩٤م).
٩٩. نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء تح.ردلف زلهايم ١٩٦٤م.
♦المسعودي، أبو الحسن بن الحسين بن علي (ت٣٤٦هـ-٩٥٧م).
١٠٠. التنبيه والإشراف، طبعة مصر/١٩٣٨م.
♦ابن مضاء، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن القرطبي (ت٥٩٢هـ-١١٩٦م).
١٠١. الرد على النحاة، تح. د.شوقي ضيف. القاهرة/١٩٤٧م.
♦المفضل الضبّي، المفضل بن محمد بن يعلى الكوفي (ت١٧٨هـ-٧٩٥م)
١٠٢. المفضليات، تح.أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون دار المعارف ط١٠/١٩٩٢م.
♦ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ-١٣١١م).
١٠٣. لسان العرب، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٨م.
♦ابن النديم، أبو الفرج محمد بن اسحق (ت٤٣٨هـ-١٠٤٦م).
١٠٤. الفهرست، مكتبة خياط، والرحمانية، ودار المعرفة-بيروت ومطبعة ايران. (د. ت).
١٠٥. أخبار العلماء بإخبار الحكماء-القاهرة/١٣٢٦هـ.
♦الهمداني، أبو محمد، الحسن بن أحمد بن يعقوب المعروف بابن الحائك (ت٣٤٣هـ-٩٥٥م)
١٠٦. صفة جزيرة العرب، تح.محمد بن علي الأكوع، منشورات دار اليمامه-الرياض/١٩٧٤م.
• ياقوت الحموي، شهاب الدين ياقوت أبو عبد الله الحموي الرومي (ت٦٢٦هـ-١٢٢٩م).
١٠٧. معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت/١٩٨٤م.
١٠٨. معجم الأدباء، دار المأمون، ودار الفكر، (د.م) ط٣/ ١٩٨٠م.
• ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي (ت٦٤٣هـ-١٢٤٦م).
١٠٩. شرح المفصّل، عالم الكتب، بيروت ومكتبة المتنبي-القاهرة (د. ت).

(ب) المراجع العربية المطبوعة:

• الأسد، ناصر الدين.

١. مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط٤ / ١٩٦٩م.

• أحمد، محمد عبد القادر.

٢. أبو زيد الأنصاري ونوادر اللغة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م.

• الأفغاني، سعيد.

٣. في أصول النحو، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٣م.

• أمين، أحمد.

٤. ضحى الإسلام، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٧ / ١٩٦٤م.

• الأنصاري، أحمد مكي.

٥. أبو زكريا الفراء، مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، ١٩٦٤م.

٦. سيبويه والقراءات، القاهرة، ١٩٧٢م.

• أنيس، إبراهيم.

٧. في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٦ / ١٩٨٤م.

٨. من أسرار اللغة، القاهرة، ١٩٥٨م.

٩ . الفارابي والحضارة الإنسانية، مطابع دار الحرية، بغداد، ١٩٧٥م-١٩٧٦م.

• أيوب، عبد الرحمن.

١٠. دراسات في النحو العربي، القاهرة، ١٩٥٧م.

• بدوي، السعيد محمد.

١١. مستويات العربية المعاصرة في مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م.

• البصير، أحمد مطلوب كامل.

١٢. البلاغة والتطبيق، ط٢ / ١٩٩٠م.

• التكريتي، عبد المنعم أحمد.

١٣. ابن الشجري ومنهجه في النحو، بغداد، ١٩٧٥م.

• جبل، محمد حسن.

١٤. الاحتجاج بالشعر في اللغة، الواقع والدلالة، دار الفكر العربي، القاهرة، (د. ت.).

• الحديثي، خديجة.
١٥. دراسات في كتاب سيبويه، بغداد، ١٩٨٠م.
١٦. الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، الكويت، ١٩٧٤م.
١٧. أبو حيان النحوي، مكتبة النهضة، بغداد، ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م.
• حسّان، تمام.
١٨. اللغة العربية مبناها ومعناها، القاهرة، ١٩٧٣م.
١٩. الأصول، دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٨م.
• حسن، عباس.
٢٠. النحو الوافي، دار المعارف، مصر-ط٥ (د. ت.)
٢١. اللغة والنحو بين القديم والحديث، دار المعارف، مصر ط٢ / ١٩٧١م.
• حسن، عبد الحميد.
٢٢. القواعد النحوية، مادتها وطريقتها، مطبعة العلوم، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢ / ١٩٥٢م.
• حسين، محمد الخضر.
٢٣. القياسي في اللغة العربية، ط٢ / ١٩٨٣م.
• الحلواني، محمد خير.
٢٤. الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف، دار القلم العربي بحلب، (د. ت.).
٢٥. المفصّل في تاريخ النحو العربي، مؤسسة الرسالة، ط١ / ١٩٧٩م.
• الخثران، عبد الله حمد.
٢٦. مراحل تطور الدرس النحوي، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣م.
• خرما، نايف.
٢٧. أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، الكويت، ١٩٧٨م.
• خليل، حلمي.
٢٨. العربية وعلم اللغة البنيوي، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٠م.
• الخولي، محمد علي.
٢٩. الأصوات اللغوية، مكتبة الخريجي، الرياض، ط١ / ١٩٨٧م.
• دمشقية، عفيف.
٣٠. تجديد النحو العربي، بيروت، ط١ / ١٩٧٦م.

• الراجحي، عبده.

٣١. النحو العربي والدرس الحديث، بيروت، ١٩٨٦م.

• الرافعي، مصطفى صادق.

٣٢. تاريخ آداب العرب، تح. محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط٣ / ١٩٥٣م.

• الزبير، محمد بن الزبير.

٣٣. معجم أسماء العرب، جامعة السلطان قابوس، مكتبة الشباب.

• الزهيري، محمود غناوى.

٣٤. نقائض جرير والفرزدق، بغداد، ١٩٥٤م.

• الزيدي، كاصد ياسر.

٣٥. فقه اللغة العربية، جامعة الموصل، العراق، ١٩٨٧م.سامر

• السامرائي، فاضل.

٣٦. ابن جني، بغداد، ١٣٨٩هـ. ١٩٦٩م.

• سعيد، عبد الوارث مبروك.

٣٧. في إصلاح النحو العربي، دار القلم، الكويت، ط١ / ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.

• السيد، عبد الرحمن.

٣٨. مدرسة البصرة النحوية، نشأتها وتطورها، مطابع سجل العرب، ط١ / ١٩٦٨م.

• شلبي، عبد الفتاح.

٣٩. أبو علي الفارسي، القاهرة، ١٣٧٧هـ.

• الشاعر، حسن.

٤٠. النحاة والحديث النبوي، وزارة الثقافة والشباب، ط١ / ١٩٨٠م.

• الشلقاني، عبد الحميد.

٤١. الأعراب الرواة، دار المعارف، مصر / ١٩٧٧م .

٤٢. الأصمعي اللغوي، صورة عراقية في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، مصر (د. ت.).

٤٣. مصادر اللغة، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ط١ / ١٩٨٠م.

• الصالح، صبحي.

٤٤. علوم الحديث ومصطلحه، دار العلم للملايين، بيروت. ط١٧ / ١٩٨٨م.

٤٥. دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت. طبعه٦ / ١٩٧٦م وطبعه١١ / ١٩٨٦م.

♦ صالح، محمد أديب.
٤٦. لمحات في أصول الحديث، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣ / ١٣٩٩هـ.
♦ ضيف، شوقي.
٤٧. المدارس النحوية، دار المعارف، ط٧ / ١٩٩٢م.
♦ طحان، ريمون وزميله.
٤٨. فنون التقعيد وعلوم الألسنية، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، ١٩٨٥م.
♦ الطعان، هاشم.
٤٩. الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة، منشورات وزارة الثقافة والفنون، العراق، ١٩٧٨م.
♦ عبد الحميد، سعد زغلول.
٥٠. تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦م.
♦ عتر، نور الدين.
٥١. منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر، دمشق، ط٣ / ١٩٨١م.
♦ عطار، أحمد عبد الغفور.
٥٢. مقدمة الصحاح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢ / ١٩٧٩م.
♦ علي، أسعد أحمد.
٥٣. تهذيب المقدمة اللغوية، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، ط٤ / ١٩٨٨م.
♦ علي، جواد.
٥٤. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ومكتبة النهضة، بغداد. (د. ت.)
♦ عيد، محمد.
٥٥. أصول النحو، القاهرة، ١٩٧٣م.
♦ غازي، يوسف.
٥٦. مدخل إلى الألسنية، منشورات العالم العربي الجامعية، دمشق، ط١ / ١٩٨٥م.
♦ غالب، علي ناصر.
٥٧. لهجة قبيلة أسد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١ / ١٩٧٩م.
♦ فريحه، أنيس.
٥٨. نظريات في اللغة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١ / ١٩٧٣م.

• فك، يوهان.
٥٩. العربية، دراسة في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٨٠م.
• كحالة، عمر رضا.
٦٠. معجم قبائل العرب، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٣٦٨هـ-١٩٤٩م.
• ماييه، انطوان ولانسون.
٦١. منهج البحث في الأدب واللغة، ترجمة محمد مندور، وهذا الكتاب ملحق في كتاب النقد المنهجي عند العرب لمحمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة (د. ت.).
• المخزومي، مهدي.
٦٢. الخليل بن أحمد الفراهيدي، أعماله، منهجه، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢/١٩٨٦م.
٦٣. مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، بغداد، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.
• مصطفى، إبراهيم.
٦٤. إحياء النحو، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧م.
• مصطفى، إبراهيم، وحامد عبد القادر وأحمد حسن ومحمد النجار.
٦٥. معجم الوسيط، دار الدعوة، استانبول، تركية، (د. ت.).
• أبو المكارم، علي.
٦٦. أصول التفكير النحوي، منشورات الجامعة الليبية-بيروت/ ١٩٧٣م.
• المطلبي، غالب فاضل.
٦٧. لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، منشورات وزارة الثقافة والفنون، العراق، ١٩٧٨م.
• مكرم، عبد العال سالم.
٦٨. القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥م.
• الموسى، نهاد.
٦٩. في تاريخ العربية، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٦م.
• النجار، محمد عبد العزيز.
٧٠. ضياء السالك إلى أوضح المسالك، مطبعة السعادة، (د. م.)، ط٢ /١٩٧٣م.
• وافي، علي عبد الواحد.
٧١. فقه اللغة، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٦ / (د. ت.).

(ج) المراجع الأجنبية المطبوعة.

1- See D. crystal : Linguistic, (Penguin, 1971, P. 40).

- See Eddy Roulet : Linguist theory, Linguistic Discription and Language Teaching, (Long man, 1973 PP. 5-17).

(د) الدوريات العربية المطبوعة.

• بيضون، أحمد.

١. حوار مع الشيخ عبدالله العلايلي، مجلة الفكر العربي، العدد (٨، ٩)، ١٥ كانون ثاني-١٥ آذار / ١٩٧٩م، معهد الإنماء العربي، السنة الأولى.

• حسين، محمد الخضر.

٢. الاستشهاد بالحديث في اللغة، مقال في مجلة مجمع اللغة العربية، ج٣/ شعبان/١٣٥٥هـ-أكتوبر / ١٩٣٦م.

٣. من وثّق من علماء اللغة ومن طعن فيه، مقال في مجلة مجمع اللغة العربية، العدد (١٢) مطبعة التحرير، القاهرة، ١٩٦٠م.

• الحصري، ساطع.

٤. قضية الفصحى والعامية، بحث في مجلة اللسان العربي، العدد ١٣ / ١٩٥٦م.

• خميس، عبد الله.

٥. لغة البادية، مقال في مجلة اللسان العربي، المجلد الثامن العدد (١+٢) ١٩٧١م.

• رفيده، إبراهيم عبد الله.

٦. أصالة اللغة العربية وعلومها، مقال في مجلة الفكر العربي، ٢٦/٤ (١٩٨٢/٣م).

• عمر، أحمد مختار.

٧. الفارابي اللغوي وتحقيق مقدمة معجمه (ديوان الأدب)، مقال في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد السابع، ١٩٦١م.

• فياض، محمود جابر.

٨. مفهوم الفصاحة لغة واصطلاحاً، مقال في مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد (٣٦) آذار / ١٩٨٥م.

• محمود، محمود حسني.

٩. احتجاج النحويين بالحديث، مقال في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد المزدوج (٣-٤) / ١٩٧٩م.